

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

الإصلاح الديني

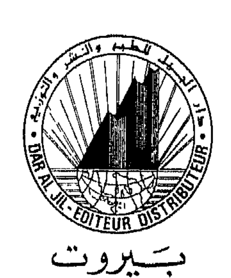
وهو يروي تاريخ الحضارة الأوروبية خارج إيطاليا
من وكليف إلى لوثر ١٣٠٠ - ١٥١٧

ترجمة
الدكتور عبد الحميد يونس

الجزء الثاني من المجلد السادس





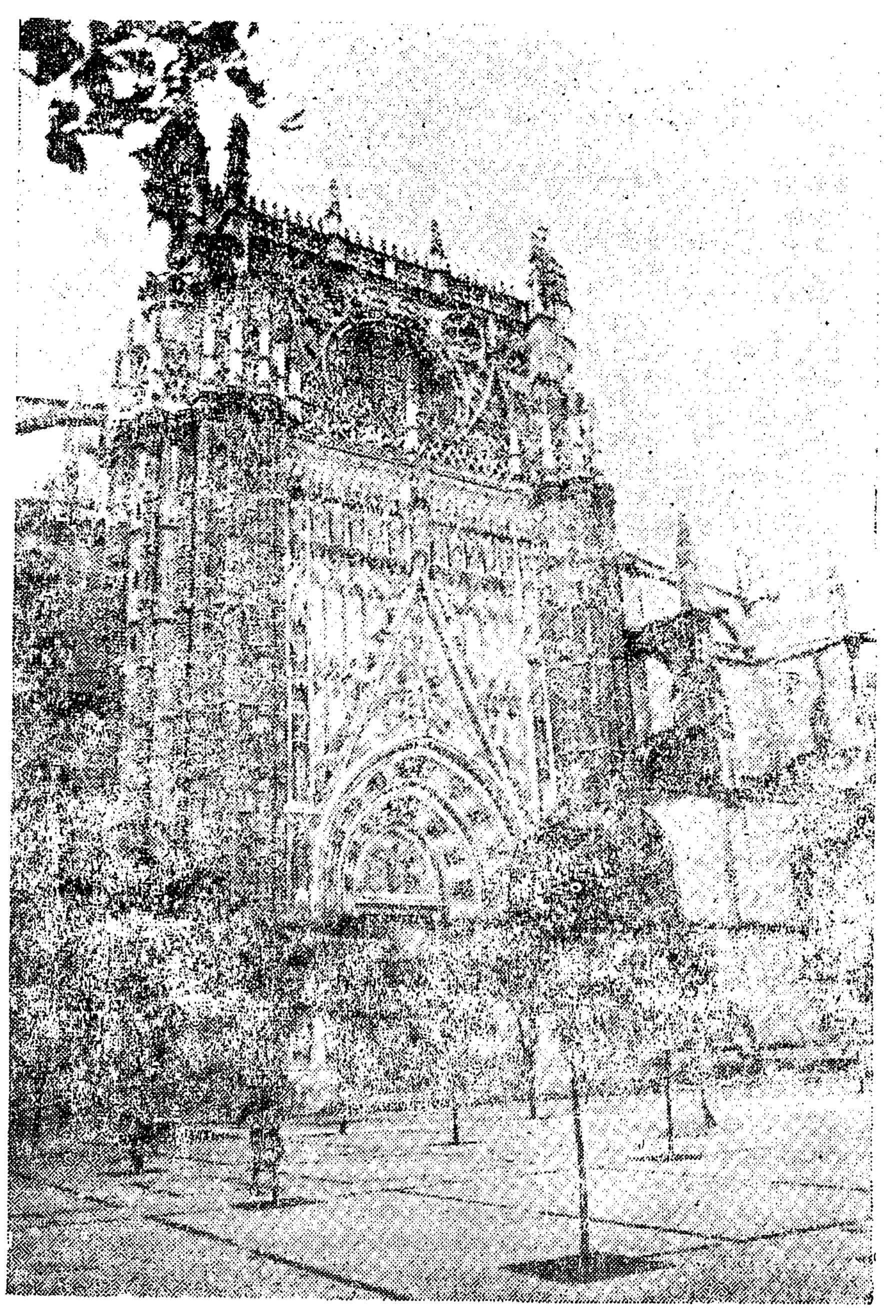


تونس
بيروت

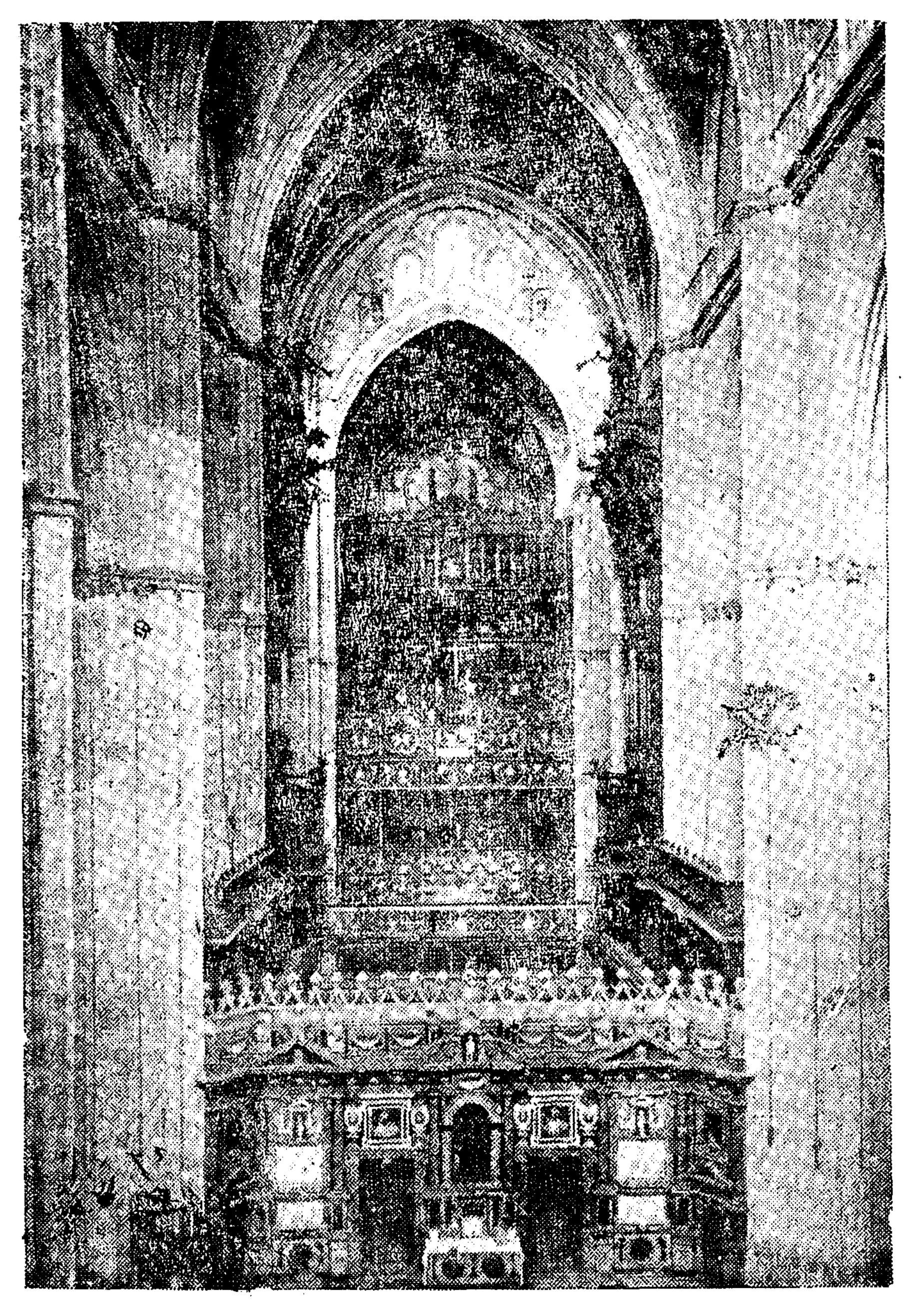
فهرس الجزء الثانى من المجلد السادس

الموضوع صفحة

الموضـــوع — صفحة



الكاتدرائية — أشبيلية (ص ٩٨)



الكاتدرائية (الكنيسة الأصلية) – أشبيلية

الفصل التاسع

الصقالبة الغربيون

(١٣٠٠ – ١٥٧١)

١ – بوهيميا

لا يزال الصقالبة إلى الآن أشبه بالموجات البشرية تجيش أحياناً ناحية الغرب إلى الألب ، وجنوباً إلى البحر الأبيض المتوسط ، وشرقاً إلى الأورال ، وشمالا إلى البحر المتجمد ، وقد ردهم إلى الغرب بعد ذلك فى الثالث عشر ، الفرسان الليفونيون والتيوتون ، أما فى الشرق فقد خضعوا لسيطرة المغول والتتار – وقادت بوهيميا فى القرن الرابع عشر الإمبراطورية الرومانية المقدسة والإصلاح الدينى قبل لوثر ، كما اتحدت بولندة مع ليتوانيا التى كانت متسعة الأرجاء : فأصبحتا دولة كبيرة ، ذات طبقة عليا على حظ رفيع من الثقافة . وتحررت روسيا فى القرن الخامس عشر من نير التتار ووحدت إماراتها المبعثرة فى دولة ضخمة . وهكذا دخل الصقالبة التاريخ كموجة من موجات المد البشرى .

وانتهت أسرة تبرزملد العريقة فى بوهيميا بموت ونسسلوس عام ١٣٠٦ وأعقبتها فترة من الزمان حكم فيها ملوك صغار الشأن ثم جاء الناخبون من البارونات ورجال الدين بجون أمير لكسمبورج ، ليؤسس أسرة حاكمة جديدة (١٣١٠) . وأصبحت بوهيميا بفضل مغامراته الباسلة قلعة منيعة من قلاع الفروسية جيلا من الزمان ، وتعذر عليه أن يعيش بلا صولات وجولات حتى إذا ثبت له أن هذه الفروسية لا ضرر منها على الإطلاق ، اندفع إلى الحرب فى كل مملكة من ممالك أوربا تقريباً . وأصبح من الكلم

المأثور فى تلك الأزمنة أنه لا يتحقق شيء بغير العون من الله وملك بوهيميا . فالتمست برسكيا التى حاصرتها فيرونا ، أن يمد لها يد المعاونة ، فوعد بالقدوم إليها ، وما كادت الأخبار تشيع بوعده هذا حتى رفع الفيرونيون الحصار واعترفت به مختارة برسكيا وبرجامو وكريمونا وبارما ومودينا بل وميلان أيضاً ، سيداً إقطاعياً عليها فى مقابل أن يبسط حمايته عليها جميعاً ، وقد استطاع هذا الملك بسحر اسمه أن يحصل على معظم ما عجز عن تحقيقه بقوة السلاح فردريك الأول ذو اللحية الحمراء ، وفردريك الثانى أعجوبة الزمان وأضافت حروبه الجريئة مساحة من الأرض إلى بوهيميا ولكنها أفقدته عواطف رعاياه ، الذين لم يستطيعوا أن يغتفروا له غيابه الدائم عن بلادهم ، التى أهمل إدارتها ، وحز فى نفوسهم أنه لم يفكر قط حتى فى أن يتعلم لغتهم . وفى عام ١٣٣٦ لازمه مرض عضال كف بصره وهو يخوض معركة صليبية فى ليتوانيا . ومع ذلك فإنه عندما علم أن إدوارد الثالث ملك انجلترا نزل إلى البر فى نورماندیا متجها صوب باريس ركب مع ابنه شارلز فى خمسمائة فارس بوهيمى ، وعبروا أوربا ليكونوا مدداً لملك فرنسا . وحارب الأب والإبن فى الطليعة عند كريسى . حتى إذا انسحب الفرنسيون ، ناشد الملك الكفيف اثنين من فرسانه ، أن يربطا جواديهما إلى جانبى جواده وأن يقوداه لمحاربة الإنجليز المنتصرين ، قائلا : « هذه مشيئة الله ، ولن يقال إن ملكاً على بوهيميا قد فر من حومة الوغى » وقتل من حوله خمسون — من فرسانه . وأثخن بجرح مميت ، ثم نقل وهو يحتضر إلى خيمة الملك الإنجليزى . . فأرسل إدوارد الجثة إلى شارلز ومعها رسالة مهذبة يقول فيها : لقد سقط اليوم تاج الفروسية » .

وكان شارلز الرابع ملكاً أقل بطولة وأرشد عقلا . فآثر المفاوضة على الحرب ، ولم يكن من الجبن بحيث يقبل الهوان ، ومع ذلك فقد وسع من حدود مملكته ، وجعل الصقالبة والألمان إبان السنوات الاثنتين والثلاثين من

حكمه ، يعيشون فى سلام غير مألوف . وأعاد تنظيم الحكومة ، وأصلح القضاء ، وجعل براغ من أجمل مدن أوربا . وشيد فيها مقراً ملكياً على طراز اللوفر ، والقلعة الشهيرة كارلشتين أى « حجر شارلز » لتكون داراً أمينة لمحفوظات الدولة وجواهر التاج — التى أودعت فيها لا للمباهاة والعرض بل لتكون مالا احتياطياً منقولا حصيناً يصلح غطاء للعملة . واستقدم ماثيو الأراسى لكى يصمم كاتدرائية القديس « فيتوس » وتوماسو الموديناوى ليرسم صوراً جصية على جدران الكنائس والقصور . وعمل على حماية الفلاحين من الاضطهاد ونهض بالتجارة والصناعة . وأنشأ جامعة براغ (١٣٤٧) ، ونقل إلى مواطنيه الولع بالثقافة الذى اكتسبه فى فرنسا وإيطاليا وشحذ الحافز الفكرى الذى فجر الثورة الهوسية ، وأصبح بلاطه مركز الدارسين الإنسانيين البوهيميين ، وعلى رأسهم الأسقف جون الاسترساوى صديق بترارك . ولقد أعجب هذا الشاعر الإيطالى بشارلز فوق إعجابه بأى ملك من ملوك ذلك العصر وزاره فى مدينة براغ ، وناشده أن يغزو إيطاليا ، ولكن شارلز كان أرشد فكرا وكان حكمه ، على الرغم من نشرته الذهبية هو عصر بوهيميا الذهبى . وهو باق يبتسم ، فى تمثاله النصفى من الحجر الجيرى ، فى كاتدرائية براغ .

وكان « ونسيسلوس الرابع » فى الثامنة عشرة من عمره عند ما مات أبوه (١٣٧٨) ، ولقد أكسبته فطرته الطيبة ، وحبه لشعبه ، وترفقه فى فرض الضرائب عليهم وبراعته فى الإدارة ، محبة الجميع ما عدا النبلاء الذين رأوا أن شعبيته تعرض امتيازاتهم للخطر . وانتهت سورات غضبه حيناً وإدمانه الشراب حيناً آخر بهؤلاء النبلاء إلى خلعه ، ففاجأوه فى مقره الريفى وألقوا به فى السجن (١٣٩٤) ، ولم يعيدوه إلا بعد أن أخذوا عليه العهد بأن يمتنع عن الإقدام على أى عمل له أهميته دون موافقة مجلس من النبلاء والأساقفة . ونشأت فتن أخرى ، واستدعى سيجسموند ملك المجر ، فقبض على أخيه

ويسسلوس وأخذه أسيراً إلى فينا (١٤٠٢) . وفر الرجل بعد ذلك بأعوام قلائل ، واتخذ طريقه عائداً إلى بوهيميا فاستقبله الشعب مبتهجاً ، واستعاد العرش والسلطان . واختلطت البقية الباقية من قصته بمأساة هس .

٢ — جون هس
(١٣٦٩ — ١٤١٥)

كان ونسيسلوس محبوباً مكروهاً فى آن واحد ، لأنه تسامح مع الهراطقة وتشدد مع الألمان . وأثمر التسلل السريع فى بوهيميا من عمال المناجم وأصحاب الحرف والتجار وطلاب العلم ، عداوة عنصرية بين التيوتون والتشيك ، وكان هس حرياً بألا يلتى التأييد من الملك والشعب لولا أنه رمز لكراهية قومية للتفرق الألمانى . ولم ينس ونسيسلوس أن رؤساء أساقفة ألمانيا قادوا حركة خلعه عن العرش الإمبراطورى ، وتزوجت أخته آن رتشارد الثانى ملك إنجلترا وفطنت إلى — ولعلها عطفت على — محاولات ويكليف ؛ أن يفصل إنجلترا عن الكنيسة الرومانية . وفى عام ١٣٨٨ خلف أدلبرت رانكونيس مبلغاً من المال يعين الطلاب البوهيميين على الذهاب إلى باريس أو أكسفورد . وحصل بعض هؤلاء أو نسخوا بعض مؤلفات ويكليف وحملوها معهم إلى بوهيميا ، وأقام ميلتش الكرومريزى وكونراد ولد هوزر ، براغ وأقعداها باتهاماتهما لرجال الدين والعلمانيين بالخروج على الأخلاق ، وواصل ماتياس الجنوفى وتوماس الستيتنى هذه الدعوة فأيدها الإمبراطور بل أن أرنست كبير الأساقفة قد وافق عليها ، وفى عام ١٣٩١ ، أقيمت فى براغ كنيسة خاصة سميت كنيسة بيت لحم لتقود حركة الإصلاح . وفى عام ١٤٠٢ عين جون هس واعظاً لهذه الكنيسة .

ولقد بدأ حياته فى قرية هوسينتز ، وعرف باسم جون الهوسينتزى الذى اختصره فيما بعد إلى هس . وجاء حوالى عام ١٣٩٠ إلى براغ وهو

طالب فقير وكسب عيشه بالخدمة فى الكنيسة ، وكان أمله أن ينخرط فى زمرة القساوسة ، ومهما يكن من شيء : فقد انضم إلى طرائق الشباب البوهيمى جرياً على سنة العصر ، وهو ما أسمته باريس بعد ذلك « بالبوهيمية » المرحلة للشباب الجامعى ، وحصل عام ١٣٩٦ على أجازة أستاذ فى الآداب ، وبدأ يدرس فى الجامعة ، واختير عام ١٤٠١ عميداً لكلية الآداب — أو بعبارة أخرى عميداً للدراسات الإنسانية ورسم فى ذلك العام قسيساً ، رأصلح حياته حتى اقترب بها إلى زهد الرهبانية ، وأصبح باعتباره رأس كنيسة بيت لحم ، أشهر واعظ فى براغ ، وكان بين المستمعين إليه كثيرون من رجال البلاط ، وقد نصبته الملكة صوفيا واعظاً لها . وأخذ يلقى عظاته باللغة التشيكية ، وعلم رجال كنيسته أن يسهموا بنصيب إيجابى فى الصلاة بترتيل الأناشيد الدينية .

ولقد أكد الذين اتهموه فيما بعد أنه ردد فى السنة الأولى من عمله الكهنوتى شكوك ويكليف حول اختفاء الخبز والنبيذ من العناصر المقدسة فى العشاء الربانى . وليس من شك فى أنه قرأ بعض مؤلفات ويكليف ، ودون نسخا منها لا تزال باقية بتعليقاته عليها ، واعترف فى محاكمته أنه قال « إننى على ثقة من أن ويكليف سينجو ، ولكن لو اعتقدت أنه سيعذب لتمنيت أن تكون روحى مع روحه » ونالت آراء ويكليف عام ١٤٠٢ فى جامعة براغ حظاً من الشهرة جعل القوامين على الإدارة الكهنوتية فى الكاتدرائية يتقدمون إلى أساتذة الجامعة بخمسة وأربعين نصاً مختاراً من كتابات ويكليف متسائلين : هل تمنع الجامعة هذه الأقوال ؟ — فأجاب عدد من الأساتذة بينهم هس بالنفى ، ولكن الأغلبية حكمت أنه لا يجوز منذ ذلك الحين لأى عضو من أعضاء هيئة التدريس بالجامعة ، أن يدافع أو ينتصر بصورة علنية أو سرية لقول من هذه الأقوال الخمسة والأربعين .

ولابد أن يكون هس قد تجاهل هذا التحريم ، لأن رجال الدين فى براغ التمسوا عام ١٤٠٨ من زبينك كبير الأساقفة أن يزجره . فاستجاب

لهم كبير الأساقفة بحذر لأنه كان وقتذاك على خلاف مع الملك . ولكن هس استمر فى عطفه على آراء ويكليف فأصدر عليه زبينك وعلى عدد من زملائه قرار الحرمان (١٤٠٩) حتى إذا أصروا أن يمارسوا وظائفهم الكهنوتية ، جعل براغ بأسرها تحت وطأة قرار الحرمان . وأمر بأن تسلم إليه كل ما يوجد من كتابات ويكليف فى بوهيميا وأحضرت إليه مائتا مخطوطة ، فأحرقها فى ساحة قصره . فاستأنف هس القرار إلى البابا المنتخب حديثا يوحنا الثالث والعشرين . فاستدعاه ليمثل أمام المحكمة البابوية . فأبى أن يذهب إليها .

ورغب البابا عام ١٤١١ فى الحصول على أموال للقيام بحملة صليبية على لاديسلاس ملك نابولى ، فأعلن عرضاً آخر لصكوك الغفران . ولما أذيع ذلك فى براغ وبدا للمصلحين أن عملاء البابا يبيعون الغفران بالمال ، دعا هس ومؤيده الأول جيروم البراغى ضد هذه الصكوك ، وناقشا وجود المطهر ، واحتجا على جمع الكنيسة للأموال لإهراق الدم المسيحى . وهبط هس إلى القدح فوصف البابا بأنه « نابش الأموال » وزاد على ذلك بأنه ضد المسيح . وشارك جانب كبير من الشعب ، هس فى آرائه وعرض عمال البابا للسخرية والانتقاص ، إلى حد جعل الملك يحرم كل دعوة أو عمل بعد ذلك ضد صكوك الغفران . وخرج ثلاثة من الفتيان على هذا المرسوم ، فاستدعوا إلى مجلس المدينة ، ودافع هس عنهم ، واعترف بأن دعوته أثارتهم ، فأدينوا وقطعت رؤوسهم . وعمل البابا فى تلك الفترة على توجيه حرمانه إلى هس . ولما تجاهل الرجل القرار أصدر يوحنا قراراً بحرمان أى مدينة يأوى إليها (١٤١١) . ورحل هس عن براغ مستجيبا لنصيحة الملك وظل معتزلا بالريف عامين .

وكتب فى هذين العامين أهم مؤلفاته ، بعضها باللاتينية ، وبعضها بالتشيكية وتكاد كلها تنطق بوحى ويكليف ، وربما ردد بعضها الهرطقة

واختصام ، الكهنوت مما جلبته شعبة باقية من الولدانيين إلى بوهيميا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . ولقد أنكر عبادة الصور والاعتراف السمعى وتعدد الشعائر الأنيقة . وأعطى حركته صفة شعبية وقومية بالانتقاص من قدر الألمان والدفاع عن الصقالبة و" مقالة عن « التجارة فى الأشياء المقدسة هاجم اتجار رجال الدين بالمقدسات » ، وفى « الموضوع فى ستة أخطاء » De sex erroribus نعى على القساوسة أخذ أجر على العماد وتثبيته والقداس والزواج والدفن ، واتهم بعض رجال الدين فى براغ ببيع الزيت المقدس ، وأخذ برأى ويكليف فى أن القسيس الذى اقترف بيع المقدسات لا يجوز له شرعاً أن يناول السر المقدس ، أما رسالته عن « اجتماع مجلس شرفاء المدينة » De ecclesia فقد أصبحت بمثابة دفاعه وسبب هلاكه فى وقت واحد فإن من صفحاتها نقلت المرطقة التى أحرق من اجلها . فقد اتبع ويكليف فى القول بالجبر ، وأيد ويكليف ومارسيليز وأكهام فى أن الكنيسة يجب ألا يكون لها طيبات دنيوية وعرف الكنيسة مثل كالفن بأنها ليست هيئة رجال الدين ولا الجمع المسيحى بأسره ، ولكنها المجموع الكلى فى السماء أو على الأرض للناجين من الخطيئة ، وليس البابا رأس الكنيسة ، ويجب أن يكون الإنجيل لا البابا مرشد المسيحى . وليس البابا معصوماً ، حتى فى العقيدة أو الأخلاق ، وقد يكون البابا نفسه خاطئاً معتاداً للخطيئة أو هرطيقا . وسلم هس بأسطورة صدقها جمهور كبير فى ذلك الزمان (بل صدقها جرسون) فاستغل الكثير مما ورد عن البابا المزعوم يوحنا الثامن (الذى تقول الأسطورة) أنه كشف عن جنسه النسوى بأن وضع برغمه طفلا مولودا فى شوارع روما . وختم هس كلامه بأنه لا طاعة للبابا إلا إذا اتفقت أوامره مع شريعة المسيح : « وعصيان البابا الخاطئ إنما هو طاعة للمسيح »

ولما اجتمع مجلس عام فى كنستانس عام ١٤١٤ لكى يخلع ثلاثة بابوات

متنافسين ويضع برنامجاً لإصلاح الكهنوت ، بدا للعيان أن فرصة قد سنحت لإعادة الوئام بين الهسيين والكنيسة ، وكان الإمبراطور سيجسموند ، الوارث الشرعى لونسسلوس الرابع الذى لاعقب له ، تواقاً لإقرار السلم وإعادة الوحدة الدينية فى بوهيميا . فاقترح أن يتوجه هس إلى كنستانس ويبدأ الصلح من ناحيته . ومنح هس من أجل هذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر جواز الأمان إلى كنستانس وإبداء رأيه على الملأ أمام المجلس وحرية العودة فى أمان إلى بوهيميا إذا رفض هس حكم المجلس . وعلى الرغم من التحذير الملح من معاونيه فقد رحل إلى كنستانس (اكتوبر ١٤١٤) يصحبه ثلاثة من النبلاء التشيكيين وعدد من الأصدقاء . وذهب إلى كنستانس فى الوقت نفسه تقريباً ستيفن البالكزى وغيره من المعارضين البوهيميين لهس لاتهامه أمام المجلس .

ولما وصل ؛ عومل أول الأمر بحفاوة وترك حراً ، ولكن ما أن عرض بالكز أمام المجلس بياناً بهرطقات هس ، حتى استدعاه أعضاء المجلس واستجوبوه واقتنعوا من إجاباته ، بأنه هرطيق كبير ، فأمروا بزجه فى السجن ، فاعتلت صحته ، وأشرف فى وقت من الأوقات على الموت ، وأرسل البابا يوحنا الثالث والعشرون أطباء من قبله لمعالجته ، وشكا سيجسموند من أن تصرف المجلس قد خالف جواز الأمان الذى أعطاه لهس ، فأجاب المجلس بأنه غير مقيد بصنيعه وبأن سلطته لا تمتد إلى الشئون الروحية ، وبأن للكنيسة الحق فى أن يعلو حكمها على حكم الدولة إذا أرادت أن تحاكم عدواً للكنيسة ، وفى أبريل نقل هس إلى حصن جوتليبن على نهر الراين ووضع هناك فى الأصفاد . وكان الغذاء الذى يقدم إليه قليلا حتى إنه أصيب بمرض خطير . واندفع فى الوقت نفسه زميله فى الهرطقة جيروم البراغى داخلا إلى كنستانس ، وثبت على أبواب المدينة والكنائس وعلى دور الكرادلة ، طلباً بأن الإمبراطور والمجلس يجب أن يمنحاه جواز أمان والاستماع إلى ما يقوله علناً . وألح عليه

أصدقاء هس فترك المدينة وقفل راجعاً إلى بوهيميا ، ولكنه توقف فى الطريق ليخطب عن سوء معاملة المجلس لهس . فقبض عليه وأعيد إلى كنستانس وزج به فى السجن :

وفى الخامس من يولية . سيق هس مكبلا بعد أن قضى فى السجن سبعة أشهر أمام المجلس ، ومثل كذلك فى السابع والثامن من الشهر نفسه . وسئل عن الآراء الخمسة والأربعين التى سبق أن اتهمت من مؤلفات ويكليف فأنكر معظمها وأيد بعضها . ولما ووجه بفقرات من كتابه « عن الكنيسة » عبر عن رغبته فى حذف ما ينكره الكتاب المقدس (وهو بالضبط نفس الموقف الذى اتخذه لوثر فى ورمس) واحتج المجلس بأن الكتاب المقدس يجب أن يفسر بوساطة رؤساء الكنيسة لا بوساطة اجتهاد الأفراد وطالب هس أن يسحب جميع تلك الآراء التى استشهد بها دون تحفظ . وناشده أصدقاؤه ومتهموه أن يوافق ولكنه أبى وفقد النية الطيبة للإمبراطور المتردد ، بتصريحه أن الحاكم يفقد شرعية السلطة الدنيوية أو الروحية فى اللحظة التى يقترف فيها خطيئة مهلكة . وهكذا أبلغ سيجسموند هس بأن المجلس إذا أدانه بطل جواز الأمان من تلقاء نفسه . وبعد ثلاثة أيام من الاستجواب والجهود التى بذلها الامبراطور والكرادلة لكى يسحب هس آراءه ، أعيد إلى محبسه وسمح المجلس له ولأعضائه بأربعة أسابيع لدراسة الأمر الذى كان معقداً بالنسبة للمجلس أكثر منه بالنسبة لهس . كيف يتأتى لهرطيق أن يعيش دون أن يدمغ ذلك بعدم الإنسانية كل جرائم القتل من أجل الهرطقة التى ارتكبت فى الماضى ؟ ولقد عزل هذا المجلس بابوات ، فهل يتحداه قسيس بوهيمى بسيط ؟ أليست الكنيسة وهى إرادة المجتمع الروحية كما أن الدولة إرادته الطبيعية ، مسئولة عن النظام المعنوى الذى يحتاج إلى أساس من السلطة التى لا يرقى إليها الخلاف ؟ وبدا للمجلس واضحاً أن تحدى هذه السلطة كالخيانة العظمى بامتشاق السلاح

ضد الملك . وكان على الرأى أن يتطور إبان قرن آخر من الزمان قبل أن تمكن لوثر من تحد مماثل ويسمح له مع ذلك أن يعيش .

وبذلت محاولات أخرى للحصول على شبهة عدول هس عن آرائه وأوفد الامبراطور رسلا من لدنه للإلحاح عليه . وكانت إجابته واحدة دائماً ، إنه يتنازل عن أى رأى من آرائه لا يؤيده الكتاب المقدس . وفى السادس من يولية عام ١٤١٥ ، اجتمع المجلس فى كاتدرائية كنستانس وأدان كلا من ويكليف وهس ، وأمر بإحراق كتابات هس وسلمه للسلطة الزمنية وجرد لتوه من منصبه الدينى وسيق خارج المدينة إلى موضع أعدت فيه أكداس من الحطب وطلب إليه للمرة الأخيرة أن ينقذ نفسه بكلمة تنبئ عن تنازله عن آرائه ، لكنه أبى ، وأكلته النار وهو يرتل الأناشيد .

وأنكر جيروم فى لحظة فزع تغتفر له أمام المجلس تعاليم صديقه (١٠ سبتمبر ١٤١٥) ولما أعيد إلى السجن ، استعاد شجاعته رويداً . وطالب بأن تسمع أقواله وبعد فترة طويلة سيق أمام المجلس (٢٣ مايو ١٤١٦) وبدلا من السماح له بعرض قضيته ، طلب إليه أولا أن يرد على التهم العديدة التى وجهت إليه . فاحتج ببلاغة مؤثرة حركت الشكاك الإيطالى الإنسانى برجيو براتشيولى الذى جاء إلى كنستانس ليكون كاتماً لسر البابا يوحنا الثالث والعشرين : « أى جور هذا ، فى أننى أمنح الآن ساعة أدافع فيها عن نفسى ، أنا الذى حبست فى سجن حقير مدة ثلاثمائة وأربعين يوماً ، دون أن تتوافر لى وسائل إعداد دفاعى ، بينما لغرمائى الحق دائماً فى أن تستمعوا إليهم ؟ إن عقولكم تحكم علىّ بلا مبرر بأننى هرطيق ، لقد حكمتم على بأننى شرير قبل أن تكون عندكم وسيلة ما تعرفون بها أى نوع من الناس كنته . ومع ذلك فأنتم ناس ، ولستم آلهة ، مخلوقين ، ولستم خالدين ، أنتم معرضون للخطأ . وكلما ادعيتم بأن ينظر إليكم كمصدر هداية للعالم وجب عليكم الحرص على تأكيد العدالة للناس جميعاً . وأنا ، الذى تحكمون على قضيته ، لا أهمية لى ،

كما أننى لا أتحدث عن نفسى ، لأن الموت يحيق بالجميع ، ولكن لا أريد أن أرى عدداً كبيراً من الحكماء يقترفون ظلماً ، يتخذ سابقة فيكون بذلك أفدح ضرراً من العقاب الذى يفرضه » .

وقرئت التهم عليه ، واحدة بعد أخرى ، وأجاب عن كل منها بلا إنكار حتى إذا سمح له آخر الأمر أن يتحدث بحرية استمال المجلس أو كاد يستميله ، بحرارته وصدقه . وعرض بعض القضايا التاريخية التى قتل فيها الناس من أجل معتقداتهم وذكر كيف حكم القساوسة بالإعدام على ستيفن الرسول ، وأبدى أنه قلما توجد خطيئة أفدح من أن يقتل القساوسة قسيسا . ورجاه المجلس أن ينقذ نفسه بطلب المغفرة ، ولكنه أنكر بدلا من ذلك عدوله السابق عن آرائه ، وأكد اعتقاده فى مبادئ ويكليف وهس ، ودمغ إحراق هس بأنه جرم لابد أن يعاقب الله عليه . ومنحه المجلس أربعة أيام ليرجع عن رأيه . ولما لم يستغفر أدين (٣٠ مايو) وسيق توا إلى الموضع نفسه الذى أحرق فيه هس . وسار الجلاد خلفه ليوقد النار فى أكداس الحطب فناشده جيروم قائلا : « تعال أمامى . . . أوقدها أمام وجهى ، فلو كنت أخاف الموت لما قدر لى قط أن أجىء إلى هنا » . وظل يردد أحد الأناشيد حتى خنقه الدخان .

٣ — الثورة البوهيمية

(١٤١٥ — ٣٦)

أثار موت هس ، الذى تناقله الأخباريون إلى بوهيميا ، ثورة قومية فاجتمع نبلاء بوهيميون ومورافيون وأرسلوا إلى مجلس كنستانس (٢ سبتمبر ١٤١٥) وثيقة وقعها خمسمائة من أعيان التشيك ، وناصرت هس وجعلته كاثوليكيا طيبا مستقيما . وأنكرت إعدامه باعتباره إهانة لوطنه ، وأعلنت أن الموقعين سيحاربون إلى آخر قطرة من دمائهم دفاعا عن مبادئ المسيح ضد

القوانين التي من صنع البشر . وطالب تصريح آخر بألا يطيعوا منذ ذلك من الأوامر البابوية إلا ما يتفق مع الكتاب المقدس ، وأن الذين يحكمون على اتفاقها مع الكتاب المقدس إنما هم هيئة التدريس بجامعة براغ . وحيت الجامعة نفسها ، هس باعتباره شهيداً ، ومدحت جيروم السجين . واستدعى المجلس النبلاء المتمردين للمثول أمامه للرد على اتهامهم بالهرطقة ، ولكن أحداً لم يحضر وأمر بإغلاق الجامعة ، بيد أن أغلبية الأساتذة والطلاب ظلوا يواصلون عملهم .

واقترح أحد أتباع هس حوالى عام ١٤١٢ وهو جاكوبك الاستريزيبوى ، وجوب بعث العرف المسيحى القديم الخاص بمناولة القربان بصورتيه — النبيذ إلى جانب الخبز — فى العالم المسيحى كله . ولما استولت الفكرة على الصفوة والعامة من أنصاره ، منحها هس تأييده ، فحرمها المجلس ، ودافع عن ترك العادة البدائية على أساس أنها مجازفة بسفك دم المسيح .

وبعد موت هس اتخذت جامعة براغ والنبلاء ، بقيادة الملكة صوفيا ، مناولة القربان بالنوعين جميعاً كأمر من أوامر المسيح ، وأصبح كأس العشاء الربانى شعار « ثورة الأتراكوست » Utraquist وصاغ أتباع هس عام ١٤٢٠ مبادئ براغ الأربعة باعتبارها مطالبهم الأساسية وهى : أن القربان يجب أن يتناول خمراً كما يتناول خبزاً ، وأن الاتجار بالدين يجب أن يعاقب عليه بحزم وأن « كلمة الله » يجب أن يدعى إليها بلا تراخ باعتبارها الأساس الأوحد لحقيقة الدين وشعيرته ويجب أن يوضع حد لاقتناء القساوسة أو الرهبان للمتلكات المادية المتسعة ورفضت أقلية متطرفة من الثائرين تقديس المخلفات الأثرية وعقوبة الإعدام والمطهر والقداس من أجل الموتى . ولقد وجدت جميع عناصر الإصلاح الدينى اللوثرى فى هذه الثورة الهسية .

وكان الملك ونسسلوس الذى عطف على الحركة ، وربما فعل ذلك لأنها وعدت بنقل أملاك الكنيسة إلى الدولة ، قد أصبح يخشى أن تهدد السلطة

المدنية تهديدها للسلطة الدينية وفى المدينة الجديدة التى أضافها إلى براغ لم يعين إلا الذين لا يدينون بالهسية فى المجلس ، وأصدر هؤلاء الرجال قواعد عقوبات قصد بها القضاء على الهرطقة . وفى ٣٠ يوليو عام ١٤٩١ قام جمهور هس بموكب فى المدينة الجديدة . وشق له طريقا حتى بلغ قاعة المجلس ، وألقى بأعضائه من النوافذ إلى الطريق ، حيث قضى عليهم جمهور آخر . ونظم اجتماع شعبى انتخب أعضاء المجلس الهسيتى وأقر ونسسلوس المجلس الجديد ، ثم مات بنوبة قلبية (١٤١٩) .

وعرض نبلاء بوهيميا أن يقبلوا سيجسموند ملكا عليهم ، إذا اعترف « بمبادئ براغ الأربعة » . فما كان منه إلا أن طالب جميع التشيك بالطاعة الكاملة للكنيسة وألقى فى المحرقة بوهيميا أبى أن يتبرأ من تناول الكأس الربانى . وأعلن البابا الجديد مارتن الخامس ، حملة صليبية ضد الهراطقة البوهيميين وزحف سيجسموند ومعه قوة كبيرة إلى براغ (١٤٢٠) ونظم الهسيون جيشا حوالى الليلة السابقة وأرسلت كل مدينة فى بوهيميا ومورافيا تقريبا المتطوعين المتحمسين ودربهم جان زيزكا وهو فارس أعور فى الستين من عمره وأحرز بهم انتصارات رائعة . ولقد هزموا فرق سيجسموند مرتين . فجمع سيجسموند جيشاً آخر ولكن ما أن جاء خبر زائف بأن رجال زيزكا يقتربون ، حتى فر الجيش الجديد فى غير نظام دون أن يرى عدوا ما . وأسكر رجال زيزكا الطهريين النصر فأخذوا عن خصومهم فكرة القضاء على الخلاف الدينى بالقوة وساروا فى طول بوهيميا ومورافيا وسيلزيا وعرضها كأنهم عاصفة تقتلع أمامها كل شىء ، ينهبون الأديرة ويذبحون الرهبان ويرغمون السكان على قبول مبادئ براغ الأربعة وأصبح الألمان فى بوهيميا الذين رغبوا فى البقاء على كاثوليكيتهم ، الضحايا المفضلة للقوات الهسية وعاشت بوهيميا فى الوقت نفسه ومدى سبعة عشر عاما (١٤١٩ — ٣٦) بلا ملك .

واتحدت عناصر متعددة ومتصارعة لتكون الثورة البوهيمية . فإن المواطنين البوهيميين أسخطهم ما عند المقيمين الألمان من ثروة وما فيهم من تعاظم وأملوا فى إجلائهم عن الوطن . وطمع النبلاء فى ممتلكات الكنيسة ورأوها تستحق المصادرة . وطمح الكادحون اليدويون أن يحرروا أنفسهم من سادتهم من الطبقة الوسطى . وتاقت الطبقة الوسطى أن تضاعف من قوتها المحدودة ضد النبلاء ، فى مجلس الدايت الذى كان يحكم براغ والذى يسهم فى حكم بوهيميا وحلم عبيد الأرض وبخاصة من كان منهم يعمل فى إقطاعيات الكنيسة ، بتقسيم هذه الأراضى المباركة أو تحرير أنفسهم على الأقل من القيود الوبيلة . وقدم بعض صغار رجال الدين الذين ظلمهم رؤساؤهم تأييدهم الصامت للثورة وزودوها بالقيام على الشعائر الدينية التى حرمتها الكنيسة .

ولما ظفر الجيش الهسى بمعظم بوهيميا ، أدت غاياتهم المتناقضة إلى انقسامهم فرقاً يقتل بعضها بعضا . وبعد أن استولى النبلاء على أكثر أموال الجماعات الدينية الأرثوذكسية ، شعروا بأن الثورة يجب أن تخمد وأن يتيحوا الفرصة لمؤثرات الزمن . بينما صخب عبيد الأرض الذين أفلحوها من أجل الكنيسة مطالبين بتقسيمها فيما بينهم باعتبارهم أحراراً فإن الملاك النبلاء طالبوا عبيد الأرض بأن يخدموا السادة الجدد على أسس العبودية السابقة نفسها . وأيد زيزكا الفلاحين ، وحاصر فترة من الزمن « الكأسيين » أو بعبارة أخرى الهسيين أصحاب الكأس الربانى فى براغ الذين أصبحوا محافظين . ولما تعب من الصراع قبل هدنة وانسحب إلى بوهيميا الشرقية وأسس (أخوه حوديب)[1] هدفها تحقيق المبادئ الأربعة وقتل الألمان . ولما مات (١٤١٤) أوصى أن يصنع من جلده طبل حربى .

---

(١) على اسم جبل بشبه جزيرة سيناء .

وتألفت فى تابور فرقة هسية أخرى ، ذهبت إلى أن المسيحية الحقة تتطلب تنظيما شيوعيا للحياة . ولقد وجدت فى بوهيميا قبل هس جماعات من الوالدينيزيين والبجهاردينيين وغيرهم من الهراطقة الذين لا رادع لهم يمزجون المثل الدينية بالمثل الشيوعية . واحتفظوا بهدوء يحمدون عليه إلى أن اقتلعت قوات زيزكا سلطة الكنيسة من معظم بوهيميا ، فظهروا علنا ، واستولوا على القيادة المذهبية فى تابور . وأنكر كثير منهم « الوجود الحقيقى » والمطهر والصلاة للموتى ، وكل الأسرار المقدسة ما عدا العماد والعشاء الربانى ولم يشجعوا تقديس المخلفات الأثرية والصور والقديسين ، واقترحوا إعادة الشعيرة البسيطة لكنيسة الحواريين . وأنكروا جميع الشعائر والأزياء الكهنوتية التى لم يجدوها فى المسيحية الأولى . وعارضوا المذابح وآلات الأرغن الموسيقية وفخامة الزخرف الكنسى وأتلفوا كل ما عثروا عليه من هذه الزينة . وأنقصوا العبادات مثلهم فى ذلك مثل البروتستانت المتأخرين ، إلى القربان والصلاة والقراءة فى الكتاب المقدس والعظة وترتيل الأناشيد ، ويقوم على هذه الشعائر رجال دين لا يختلفون فى الزى عن غيرهم من المدنيين .

ولقد استخلص معظم التابوريين ، الاتجاه الشيوعى من المعتقد بعودة المسيح وحكمه ألف سنة . فإن المسيح سرعان ما يجىء ويوطد مملكته على الأرض ، ولا تكون فى هذه المملكة ملكية ولا كنيسة ولا دولة ولا تفرقة طبقية ولا قوانين وضعية ولا ضرائب ولا زواج ، وفى المؤكد أن المسيح ، سيسره عند مجيئه أن يجد عباده قد أنشأوا مثل هذه المدينة الفاضلة السماوية وطبقت مثل هذه المبادئ فى تابور وبعض المدن الأخرى ، وقال أستاذ معاصر من أساتذة جامعة براغ : كل شىء هناك على المشاع : لا يملك أحد شيئاً لنفسه وحده ، ولذلك عد التملك دائماً يستحق مقترفه

الموت . وهم يرون أن الجميع يجب أن يكونوا أخوة وأخوات متساوين » .

وقد تحول فلاح بوهيمى إلى فيلسوف ، واسمه بيتر تشلجى وذهب فى آرائه إلى أبعد من ذلك ، وكتب بلغة تشيكية قوية مجموعة من المقالات التولستوية يدعو فيها إلى فوضوية مسالمة . وهاجم الأقوياء والأغنياء ، وأنكر الحرب وعقوبة الإعدام وعدهما قتلا ، وطالب بمجتمع لا سادة فيه ولا عبيد ، ولا قوانين من أى نوع . وناشد أتباعه أن يتبعوا المسيحية اتباعا حرفيا ، كما وجدوها فى العهد الجديد وألا يعمدوا إلا البالغين ، وأن يديروا ظهورهم للدنيا ومناهجها والحلف اليمين والتعلم والامتيازات الطبقية ، وللتجارة وحياة المدينة وأن يعيشوا فى فقر اختيارى وأن يؤثروا فلاحة الأرض ، وأن يتجاهلوا تمام التجاهل الحضارة والدولة . ووجد التابوريون هذه الدعوة السلمية لا تناسب مزاجهم . فانقسموا إلى أحرار معتدلين ومتطرفين « وهؤلاء دعوا إلى مبدأ العرى وشيوعية النساء » ، وتحولت الفرقتان فى الجدل إلى الحرب . وفى غضون سنوات قلائل تطورت القدرات غير المتساوية إلى تفاوت فى القوة والامتياز ، ثم إلى تفاوت فى السلع آخر الأمر ، وحل محل رسل السـلام والحرية ، مشرعون لا رحمة عندهم يقوم تدبيرهم على الاستبداد الغاشم .

واستمع العالم المسيحى فى فزع إلى هذه المسيحية الشيوعية المزعومة ، وبدأ الهسيون فى البارونات وسكان المدن يتطلعون إلى كنيسة روما باعتبارها المنظمة الوحيدة التى لها من القوة ما يتيح لها أن تقضى على التحلل الوشيك للنظام الاجتماعى القائم وهللوا عند ما رحب مجلس بازل بالتوفيق . وذهب وفد من المجلس إلى بوهيميا دون الحصول على موافقة البابا ، ووقع مجموعة من المواثيق ، صيغت بحيث يفسرها المسالمون من الهسيين والكثالكة بأنها

تقبل وترفض مبادئ براغ الأربعة (١٤٣٣) . ولما أبى التابوريون الاعتراف بهذه العهود انضم الهسيون المحافظون إلى الجماعة الأرثوذكسية الباقية فى بوهيميا وهاجموا التابوريين المنقسمين على أنفسهم وألحقوا بهم الهزيمة ، وقضوا على التجربة الشيوعية (١٤١٤) واصطلح مجلس « الدايت البوهيمى » مع سيجسموند واعترف به ملكاً (١٤٣٦) .

ولكن سجسموند الذى ألف أن يتوج انتصاراته بما لا نفع فيه ، مات فى السنة التالية . وبلغ الحزب الأرثوذكسى ، إبان الفوضى التى أعقبت ذلك ، المكانة العليا فى براغ . وألف قائد محلى قدير هو جورج البوديبرادى جيشا من الهسيين ، واستولى على براغ ، وأعاد جان روكيكانا . إلى كرسى كبير الأساقفة ونصب نفسه حاكما على بوهيميا (١٤٥١) . ولما أبى البابا نيقولاس الخامس الاعتراف بروكيكانا فكر الأتراكوست فى أن يتحولوا بولائهم إلى كنيسة الروم الأرثوذكس ولكن سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك وضع حداً للمفاوضات وفى عام ١٤٥٨ اختار مجلس الدايت البوديبرادى ملكا لما رآه من إدارته الفائقة التى وطدت النظام والازدهار فى البلاد .

فتحول بجهوده إلى إقرار السلام الدينى . وأرسل بموافقة مجلس « الدايت » وفداً إلى بيوس الثانى (١٤٦٢) يطلب التصديق البابوى على عهود براغ فأبى البابا وحرم على المدنيين فى كل مكان أن يتناولوا القربان بنوعيه وعمل « البوديبرادى » بنصيحة « جريجور هايمبورج » وهو فقيه ألمانى ودعا عام ١٤٦٤ ملوك أوربا لكى يؤلفوا اتحاداً دائماً للدول الأوربية له سلطة تشريعية وأخرى تنفيذية وجيش ومحكمة لها حق الحكم فى المنازعات الدولية فى الحاضر والمستقبل . فلم يجب الملوك على هذه الدعوة ، وكانت البابوية المنتعشة من القوة إلى الحد الذى لا تأبه فيه « بحلف أممى » وأعلن البابا بول الثانى

أن البوديبرادى هرطيق وحرر رعاياه فى يمين ولائهم له ودعا الدول المسيحية إلى خلعه (١٤٦٦) ، وأخذ مارتكاس كورفينوس الهنغارى على عاتقه القيام بهذه المهمة ، فغزا بوهيميا وتوّجه فريق من النبلاء الكاثوليك (١٤٦٩) ملكاً ؛ وعرض البوديبرادى العرش على لاديلاس بن كازيمير الرابع ملك بولنده . وأنهكته الحرب وداء الاستسقاء فمات وله من العمر إحدى وخمسون سنة (١٤٧١) . وتمجده بوهيميا وهى الآن تشيكوسلوفاكيا ، باعتباره أعظم ملوكها بعد شارل الرابع .

ووافق مجلس الدايت على لاديسلاس الثانى وانسحب ماثياس إلى هنغاريا واستغل النبلاء ضعف الشباب فى الملك لكى يوطدوا سلطانهم الاقتصادى والسياسى ، ولينقصوا من عدد نواب المدن والقرى فى مجالس الدايت وأن يعيدوا إلى هوان العبودية الفلاحين الذين حلموا بالمدينة الفاضلة وفر آلاف من البوهيميين إبان هذه الفترة من الثورة والنكسة إلى بلاد أخرى . وفى عام[1] ١٤٨٥ وقع الحزبان الكاثوليكى والأتراكوست معاهـــدة كتفاهورا وتعهدا بالتزام السلم ثلاثين سنة .

---

(١) خلط الفرنسيون بين البوهيميين المبعدين والغجر (**Gypsies**) الذين وصلوا إبان القرن الخامس عشر إلى أوربا الغربية ، مفترضين مجيئهم من بوهيميا فجعلوا اسم بوهيمى يرادف الغجرى . واسم جيبسى **Gypsy** تحريف لاسم ايجبشيان أى مصرى ، ويوحى بما زعمته القبيلة فى أنها جاءت من مصر الصغرى . ويرجع برتن نشأتهم إلى الهند . وسموا فى الأراضى البيزنطية باسم الروم — أى الرومان (الشرقيين) ، وأطلق عليهم فى البلقان وأوربا الوسطى بشتقان من آرزيجان (سزيجانى ، زيجر ، زنجارى) . وهى كلمة يشك فى أصلها . وبدأ ظهورهم فى السجلات الأوربية فى أوائل القرن الرابع عشر بوصفهم جماعات متجولة من أصحاب الحرف والموسيقيين والراقصين والعرافين واللصوص — كما كان الاعتقاد السائد . ووصلوا حوالى عام ١٤١٤ إلى ألمانيا وعام ١٤٢٢ إلى إيطاليا وعام ١٤٢٧ إلى فرنسا وعام ١٥٠٠ إلى إنجلترا .

وكانوا يقبلون العماد فى العادة ؛ ولكنهم تساهلوا فى الدين والتزام الوصايا ومع هذا وقعوا تحت طائلة محاكم التفتيش . وطردوا من إسبانيا (١٤٩٩) ومن الإمبراطورية

وألف أتباع الثلجكى فى بوهيميا الشرقية ومورافيا (١٤٥٧) فرقة مسيحية جديدة ، اسمها كنيسة الأخوة ، ووقفوا أنفسهم على حياة زراعية بسيطة على مبادىء العهـد الجديد وفى عام ١٤٦٧ أنكروا سلطة الكنيسة الكاثوليكية وقدسوا قساوستهم ورفضوا المطهر وعبادة القديسين وأرهصوا بمذهب لوثر فى التزكية بالعقيدة ، وأصبحوا أمل الكنيسة الحديثة التى تدين بالمسيحية ، وما أن جاء عام ١٥٠٠ حتى بلغ أعضاؤها مائة ألف مسيحى . ولقد قضى على هؤلاء « الإخوان المورافيين » تقريباً فى سورة حرب الثلاثين سنة ، وهم إنما عاشوا بفضل جون كومنيوس ، ولا يزالون موجودين فى جماعات مفرقة فى أوربا وأفريقيا وأمريكا ، وهم يدهشون عالما يتسم بالعنف والشك ، بتسامحهم الدينى وتقواهم [غير المزعومة وولائهم السلمى للمبادئ التى يعتنقونها .

٤ – بولنده
(١٣٠٠ – ١٠٥٥)

إن المحافظة على السلم عسيرة : حتى فى المناطق التى تستمد وحدتها ومناعتها من الحواجز الجغرافية ، ولنلاحظ كيف تكون المحافظة على هذا السلم أعسر كثيراً فى الدول التى تتعرض على أحد حدودها أو أكثر لجيران متعطشين للغزو أبدا ، ينزعون إلى التغرير حيناً وإلى القوة حيناً آخر ، واختنقت بولنده بعض الاختناق إبان القرن الرابع عشر على يد الفرسان التيوتون واللتوانيين والهنغاريين والمورافيين والبوهيميين والألمان وذلك بالضغط على حدودها . وما كاد لاريسلاس « القصير » يصبح الأمير الأكبر لبولنده الصغرى أى الجنوبية (١٣٠٦) حتى واجه حشداً من الأعداء . ورفض الألمان طاعته فى

= الرومانية المقدسة (١٥٠٠ – ١٥٤٨) ومن فرنسا (١٥٦١) . وتنحصر مساهمتهم فى الحضارة إذا استثنينا لباسهم المشرق المنوع الألوان والحلى الخاصة بنسائهم الموسرات : فى الرقص والموسيقى – وقد أوحى تبادلهم فى الألحان بين الحزن والقوة إلى بعض كبار الملحنين والموسيقيين .

بولنده الكبرى أى الغربية واستولى الفرسان على دانزج وبوميرانيا ، وتآمر مارجراف — الحاكم العسكرى — حارس تخوم براندنبرج للقضاء عليه ، وادعى ونسسلوس الثالث صاحب بوهيميا العرش البولندى لنفسه ، وجاهد لاريسلاس فى هذا الخضم من المتاعب بالسلاح والسياسة والزواج ، حتى حد بولنده الصغرى والكبرى فى مملكة متماسكة ، وعمل وتوج نفسه ملكاً فى كراكاو عاصمته الجديدة (١٣٢٠) . ولما مات بالغاً من العمر ثلاثاً وسبعين سنة (١٣٣٣) أوصى بعرشه العصى إلى ابنه الوحيد كازيمير الأكبر .

وقد يستكثر البعض هذا اللقب على كازيمير الثالث ، لأنه كان يؤثر المفاوضة والمصالحة ، على الحرب ، وتنازل عن سيليزيا إلى بوهيميا وعن وميرانيا إلى الفرسان ، وقنع بالحصول على غاليسيا حول لواء ومازوفيا حول وارسو ؛ ووقف حكمه مدى سبع وثلاثين سنة على الإدارة ، فجعل أقاليمه المختلفة تحت ظل قانون واحد ، « يجب ألا تبدو الدولة كوحش كثير الرؤوس » ووحد بتوجيهه ، فريق من الفقهاء القانون والعادات المتفاوتة للولايات فى قوانين كازيمير — وهى المحاولة الأولى فى وضع القوانين البولندية فى مجموعة واحدة . . . وهى مثال على الاعتدال الإنسانى ، إذا قورنت بمجموعات القوانين المعاصرة ، ولقد حمى كازيمير اليهود والروم الأرثوذكس وغيرهم من الأقليات العنصرية والدينية ، وشجع التعليم والفنون وأسس جامعة كراكاو (١٣٦٤) وشيد الكثير من المبانى حتى قال الناس أنه وجد بولنده مبنية من الخشب فأعاد بناءها بالحجر وشجع بحكمته البارعة شئون الأمة الاقتصادية حتى لقبه الفلاحون « بملك المزارعين » ، وأثرى التجار فى ظل السلام وأجمعت الطبقات كلها على تلقيبه « بالكبير » .

ولم يكن له وريث من الذكور ، فترك تاجه لابن أخيه لويس الكبير ملك هنغاريا (١٣٧٠) ، آملا أن يحرز لبلاده حماية ملكية منيعة ونصيباً من الحافز الثقافى الذى جلبته الأسرة الإنجفينية من إيطاليا وفرنسا ، ولكن

لويس حصر اهتمامه فى هنغاريا وأهمل بولنـــده ، وأراد أن يجعل النبلاء المزهوين بأنفسهم على ولاء له فى غيابه بمقتضى « امتياز كاتسا » (١٣٧٤) الذى ينص على الإعفاء من معظم الضرائب واحتكار المناصب العليا . ولما مات نشبت الحرب فى سبيل العرش (١٣٨٢) واعترف مجلس « السيم » أى البرلمان بابنته جادويجا البالغة من العمر إحدى عشر سنة (ملكا) ، ولم يقض على الاضطراب إلا زواج جاجللو أمير أمراء ليتوانيا من جادويجا (١٣٨٦) فوحد بذلك مملكته الشاسعة وبولنده ومنح الحكومة شخصية آمرة .

وكان نمو ليتوانيا ظاهرة كبيرة من ظواهر القرن الرابع عشر فلقد ضم جيديمن وابنه ألجيرد تحت حكمهما الوثنى روسيا الغربية بأسرها : بولتسك وبنسك وسمولنسك وتشرنيجوف وفولهنيا وكيث وبودوليا وأوكرانيا ، وفرح بعض هؤلاء أن وجدوا فى ظل الأمراء الكبار ، عاصما من القبيلة الذهبية التترية التى جعلت روسيا الشرقية التزاما إقطاعيا لها . ولما خلف جاجللو ، ألجيرد (١٣٧٧) كانت الإمبراطورية اللتوانية ، التى تحكم فى ويلنو تمتد من البلطيق إلى البحر الأسود وتكاد تصل إلى موسكو نفسها . وكانت هذه هى الهدية التى نقلها جاجللو إلى جادويجا أو بعبارة أخرى كانت بولندة بأسرها هى الصداق الذى قدمته إليه ، ولم تتجاوز السادسة عشرة عند زواجها ، ولقد نشأت رومانية كاثوليكية فى محيط أرفع ثقافة للاتينية عصر النهضة ، أما هو فكان فى السادسة والثلاثين من عمره ، أميا كافراً ولكنه قبل العماد واتخذ لنفسه الاسم المسيحى لاديسلاس الثانى ، ووعد أن يدخل ليتوانيا بأسرها فى المسيحية .

وكان ذلك اتحاداً مؤقتاً ، لأن تقدم الفرسان الألمان ناحية الشرق كان يهدد بالخطر دولتى الزوجين معاً . وتحولت « جماعة الإخوان فى الصليب » التى وقفت نفسها فى الأصل على تنصير الصقالبة ، إلى فرقة من المحاربين

الغزاة يأخذون بحد السيف كل ما يستطيعون اختطافه من الأرض من أصحابها سواء أكانوا وثنيين أم مسيحيين وأنشأوا عبودية إقطاعية غليظة على الأراضى التى أفلحها يوما من الأيام مزارعون أحرار . وحكم السيد الأكبر عام ١٤١٠ من عاصمته مادينبرج ، استونيا وليفونيا وكورلند وبروسيا ويومبرانيا الشرقية وبهذا فصل بولنده عند البحر والتقى فى « حرب شمالية » ضروس ، جيش السيد الأكبر وجيش تجاجللو ، ولقد أنبئنا أن كلا منهما كان يتألف من عشرة آلاف من الأشداء — فى موقعة بالقرب من جرونيفولد أوتاتنبرج (١٤١٠) وهزم الفرسان ولاذوا بالفرار ، مخلفين وراءهم أربعة عشر ألف أسير وثمانية عشر ألف قتيل ، بينهم السيد الأكبر نفسه . وأفل نجم جماعة الإخوان فى الصليب منذ ذلك اليوم سريعا حتى تنازلت فى صلح ثورن (١٤٦٦) عن بومبرانيا وبروسيا الغربية إلى بولنده بما فى ذلك ميناء دانزج الحر باعتباره منفذا إلى البحر.

وبلغت بولنده فى عهد كازيمير الرابع (١٤٤٧ — ٩٢) أقصى اتساعها وذروة قوتها وأوج فنها . ومع أن كازمير كان أميا ، إلا أنه ختم كراهة الفروسية للقراءة والكتابة ، بأن منح أولاده تعليما كاملا . وخلفت الملكة جادويجا وهى تحتضر ، جواهرها للإنفاق على إعادة افتتاح جامعة كراكاو — وهى التى قدر لها أن تعلم فى القرن التالى كوبرنيكوس . وتوسل الأدب إلى جانب الفلسفة والعلم باللغة اللاتينية ، وكتب جان ولوجوز كتابه الكلاسى « تاريخ بولنده » (١٤٧٨) ودعا عام ١٤٧٧ فيت ستوس النورمبرجى إلى كاراكاو ، فمكث فيها سبع عشرة سنة ، وبلغ بالمدينة مكاناً رفيعاً فى فن ذلك العصر ، ولقد نقش لكنيسة سيدتنا مائة وسبعة وأربعين مقعداً للمرتلين ، ومذبحاً كبيراً ، وهو أربعون قدماً فى ثلاثة وثلاثين مع ضريح مركزى للقيامة ، وهو فى روعة صورة تيتيان ومع ثمانى عشرة صورة جدارية تقص حياة مريم وطفلها — وهى صور

جدارية جديرة — وإن كانت فى الخشب — بأن تضارع الأبواب البرونزية التى حققها غيبرتى لموضع العماد الفلورنسى قبل ذلك بقرن . وحفرستوس لكتدرائية كراكاو مدفنا فخماً من المرمر الأحمر المزرقش لكازيمير الرابع ، وباغ النحت القوطى بهذه الآثار فى بولنده أوجه ونهايته . أما فى عهد ابن كازيمير ، وهو سيجسموند الأول (١٥٠٦ — ٤٨) فقد اتخذ الفن البولندى ، لوثرية عصر النهضة الإيطالية الذى تسرب فى ألمانيا ، وهكذا بدأ عصر جديد .

الفصل العاشر

المد العثمانى

(١٣٠٠ — ١٥١٦)

١ – الازدهار الثانى فى بيزنطة ١٢٦١ — ١٣٧٣ .

أعيدت الإمبراطورية البيزنطية بلا إراقة دماء فى ظل أسرة بلايولوجيا جديدة عام ١٢٦١ ، وبقيت برغمها حوالى قرنين من الزمان وانتقص من أطرافها تقدم المسلمين فى آسيا وأوربا ، وتوسع الصقالبة فى مؤخرتها وتناثر الأجزاء المفرقة التى استقلت عنها على يد أعدائها المسيحيين الذين استباحوا القسطنطينية عام ١٢٠٤ — النورمانديين والبندقيين والجنوبيين . وتخلفت الصناعة فى مد الإمبراطورية ، ولكن منتجاتها كانت تحمل على سفن ايطالية لا تدفع إيراداً للخزانة . ولم يبق من الطبقة الوسطى كثيرة العدد إلابقية وفوقها نبلاء مترفون ، ومطارنة ذوو ملابس فضفاضة ، لم يتعلموا شيئاً من التاريخ ونسوا كل شىء اللهم إلا امتيازاتهم . وتحتهم طبقات من من رهبان مشاغبين خلطوا التقوى بالسياسة ، وملاك مزارعون هبطوا إلى مستأجرين كما هبط الفلاحون المستأجرون إلى عبيـــد أرض وحلم العمال اليدويون بمدينة فاضلة تقوم على المساواة . وطردت ثورة فى سالونيك (١٣٤١) الطبقة الأرستقراطية ، ونهبت القصور وأقامت جمهورية شبه شيوعية حكمت ثمانى سنوات قبل أن تقضى عليها قوات الجيش المسيرة فى فى العاصمة . وظلت القسطنطينية مركزاً زاخراً بالتجارة بيد أن أحد الرحالة المسلمين لاحظ عام ١٣٣٠ « كثيراً من البيوت المهدمة والحقول المبذورة فى داخل أسوار المدينة » ، وكتب السفير الأسبانى روى جونزاله

ده كلافيجو حوالى عام ١٤٠٩ يقول : « فى كل مكان فى أنحاء العاصمة توجد القصور العظيمة والكنائس والأديرة ولكن معظمها أطلال » . فقد هجر المجد ملكة البوسفور .

وفى وسط هذا الاضمحلال السياسى امتزج التراث اليونانى النفيس أبداً فى الفلسفة بالتقاليد البيزنطية الشرقية فى العمارة والتصوير ليؤلف الأنشودة الثقافية للإمبراطورية الرومانية الشرقية . ولبثت المدارس تشرح أفلاطون وأرسطو وزينون الرواقى ، وإن تحاشوا أبيقور باعتباره ملحداً ، ونقح العلماء النصوص الكلاسية وذيلوها بالحواشى . وصنف ماكسيموس بلانوديس المبعوث البيزنطى إلى البندقية « مجموعة الشعر اليونانى » وترجم الآثار الكلاسية اللاتينية إلى اليونانية وأعاد بناء جسر ثقافى بين بيزنطة وإيطاليا وتوضح سيرة تيودوروس ميتوتشيتيس هذه النهضة الباليولوجية . فلقد كان كبير وزراء أندرونيقوس الثانى وفى الوقت نفسه من أعلم علماء زمانه وأغزرهم إنتاجا ولقد كتب عنـــه نيقفورس جريجورس وهو عالم ومؤرخ يقول : « لقد كان يقف جهده كله من الصباح إلى المساء على الشئون العامة ، كأنما لا علاقة له بالدراسة ولكنه يصبح بعد مغادرته القصر وفى الجانب الأخير من المساء مستغرقاً فى الدراسات بدرجة عالية كأنه دارس لا علاقة له البتة بمهمة أخرى » . وقد ألف تيودوروس فى التاريخ والشعر والفلك والفلسفة ، بتفوق لا يضارعه فيه يونانى آخر فى هذا القرن الرابع عشر . وخسر فى الثورة التى خلعت مولاه عن العرش منصبه وداره وماله وألقى به فى السجن ، واعتلت صحته فسمح له أن ينفق أيامه الأخيرة فى دير « المخلص » فى كورا (أى فى الحقول) . الذى زين جدرانه بفسيفساء من أجمل ما فى التاريخ البيزنطى .

واستعادت المناظرة القديمة بين الأفلاطونيين والأرسطيين مكانتها . فدافع الإمبراطور جون السادس كانتاكوزين عن أرسطو ، بينما ظل

أفلاطون إله جمستوس بليثو . ولقد درس هذا الفيلسوف الذى يعد من أشهر السفسطائيين اليونان فى بروسا بأسيا الصغرى ، عندما أصبحت هذه المدينة عاصمة الزحف العثمانى ودرس على أحد اليهود هناك حكمة الزرادشتيين حتى إذا عاد إلى مسقط رأسه بيلوبونيزس ، وقد عاد إليها اسم موريا — ترك فيما يبدو العقيدة المسيحية . واستقر فى مسترا ، فأصبح قاضياً وأستاذاً فى آن واحد . وكتب عام ١٤٠٠ رسالة تحمل عنوان أفلاطون ، « القوانين » اقترح فيها أن تحل ديانة الإغريق القدماء محل المسيحية والإسلام ، بمجرد تحويل جميع آلهة الأولمب ، ما عدا زيوس إلى مشخصات رمزية لعمليات إبداعية أو أفكار ، ولم يعرف بليثو أن الأديان تولد ولا تصنع . ومع ذلك فقد اجتمع حوله التلاميذ مشغوفين ، وقدر لأحدهم وهو جوهانز بساريون أن يكون الكاردينال الدارس للآثار الكلاسية فى إيطاليا ، ولقد صحب كل من جمستوس وبسايرون الإمبراطور جون الثامن إلى فرارا وفلورنسه (١٤٣٨) لحضور المجلس الذى اتفقت فيه الكنيستان اليونانية والرومانية فى علوم الدين وفى السياسة . وفى فلورنسه حاضر جيمستوس عن أفلاطون لصفوة من المستمعين ، وكاد يتأثر عصر النهضة الإيطالية . وهناك أضاف كنية بليثو (الكامل) إلى اسمه ، وأخذ يلعب باسمه جمستوس ومعناه « التام » وأفلاطون وعاد إلى مسترا ولم ينشط فى علوم الدين ، فأصبح كبير أساقفة ومات بالغا من العمر خمسا وتسعين سنة « ١٤٥٠ » .

وكان البعث الفنى ملحوظاً دعودة الفتوة إلى الآداب . وكانت الموضوعات والرسوم لا تزال كهنوتية ، بيد أن لمسة من منظر خلوى أو نسمة من الطبيعة ودفئاً جديداً ينم عنه الخط واللون قد أسبغ الحياة على الفسيفساء بين حين وحين . وفى الفسيفساء التى كشف عنها حديثا ديركورا « مسجد قاهرية الجامع » حيوية دافقة جعلت المؤرخين الغربيين يعترفون

بأنهم يرون فيها تأثيراً إيطالياً جديداً . وتراخت القبضة الكهنوتية عن الصور الجدارية التى حلت محل الفسيفساء ، باهظة النفقة فى زخرف الكنائس والقصور وظهرت رسوم من الخيال الرحب والقصص الدنيوى إلى جانب قصص القديسين . ومع ذلك تشبث صناع الأيقونات بالطراز الموروث القديم ، أشكال ضامرة ووجوه يحرقها ورع طهرى غائبة بصورة أخاذة عن أخلاقيات العصر . وتعرض حينذاك تصوير المنمنمات البيزنطى لانحلال كبير ، بيد أن نسج الرسوم التصويرية بالحرير ظل ينتج روائع لا تنافس فى العالم الغربى ويعود تاريخ ما يسمى « زنار شارلمان » إلى القرن الرابع عشر ، أو الخامس عشر ، ولقد نسج صانع بارع على قاعدة من الحرير المصبوغ بالزرقة صممها فنان ، بخيوط من الفضة والذهب ، مشاهد من حياة مريم والمسيح وقديسين مختلفين . وتحققت آثار رائعة مماثلة فى التصوير على النسيج فى ذلك العصر فى سالونيك والصرب وملدافيا وروسيا .

وعادت اليونان مرة أخرى مركزاً للفن العظيم . وما كاد القرن الثالث عشر يشرف على نهايته حتى كان الفرنجة الذين نثروا على الأماكن الكلاسية القلاع البهيجة قد أخلوا السبيل للقوة البيزنطية ، وفى عام ١٣٤٨ أرسل الإمبراطور جون السادس ابنه عمانويل ليكون حاكماً على المورة ، فأقام مقره المحلى على تل مشرف على إسبرطة القديمة . فوفد على العاصمة الجديدة نبلاء وأعيان ورهبان وفنانون وعلماء وفلاسفة وبنيت أديرة فخمة ، واحتفظت ثلاثة منها فى كنائسها ، ببعض صورها الجدارية التى ترجع إلى القرون الوسطى : ديرا متروبوليس وبريليبتوس من القرن الرابع عشر وبانتاتسا من أوائل القرن الخامس عشر ، وهذه هى أحسن الجداريات فى التاريخ البيزنطى الطويل ، وهى تضارع خير ما أنتجته إيطاليا فى العصر نفسه من الصور الجدارية بدقة رسمها ورشاقة صورها الفياضة وعمق وإشراق ألوانها ، والحق ، أنها تدين

ببعض ما تتسم به من الروعة إلى كيما بووجيوتو أودكشيو — وهم جميعاً يدينون بالكثير للفن البيزنطى .

وعلى الشاطئ الشرقى لبلاد اليونان ، على ارتفاع قمة « جبل أثوس » أقيمت الأديرة فى القرن العاشر ، وظلت تقام هناك فى معظم القرون بعد ذلك فى القرن الرابع عشر بانتوكراتور الفخم ، وفى القرن الخامس عشر دير القديس بول . ولقد نسب إبان فترة التقهقر « دليل يونانى للتصوير » يرجع تاريخه إلى القرن الثامن عشر ، أحسن الجداريات إلى عمانويل بانسيلينوس السالونيكى الذى « أظهر تفوقاً وحذقاً فى فنه حتى وضع على رأس جميع المصورين القدماء والمحدثين » ، وليس من المستطاع التحقق من تواريخ عمانويل وآثاره فقد يرجع إلى القرن الحادى عشر أو السادس عشر ، ولا يستطيع أحد أن يجزم بما صدر عن يده من الصور التى فوق جبل أثوس .

وبينما كان الفن البيزنطى يجتاز هذا الوجد الأخير فى تاريخه أفل نجم الحكومة البيزنطية . فقد اضطرب نظام الجيش واضمحل الأسطول ، وسيطرت سفن جنوه والبندقية على البحر الأسود ، وأخذ القرصان يتجولون فى الأرخبيل اليونانى ، واستولت على غاليبولى (١٣٠٦) فرقة مرتزقة من قطلونية — « وهى الشركة القطلونية الكبرى » — وفرضت الإتاوات على تجارة الدردنيل ، وأنشأت جمهورية من اللصوص فى أثينا (١٣١٠) ، ولم توفق حكومة فى القضاء عليهم وتركوا تحت رحمة شططهم . وانضم البابا كليمنت الخامس عام ١٣٠٧ إلى فرنسا ونابلى والبندقيــة فى مؤامرة لاستعادة القسطنطينية . وفشلت المؤامرة ، بيد أن الأباطرة البيزنطيين لبثوا سنوات كثيرة يستشعرون الخوف من الغرب المسيحى حتى لم يكن عندهم من النشاط والحمية ما يدفعون به الزحف الإسلامى وما كاد هذا الخوف يتبدد حتى كان العثمانيون على الأبواب .

ولقد اشترى بعض الأباطرة هلاكهم بأنفسهم . فنى عام ١٣٤٢ تورط جون السادس كانتاكوزين فى حرب أهلية وطلب العون من أورخان سلطان آل عثمان فأرسل إليه أورخان السفن وساعده فى الاستيلاء على سالونيك ، فما كان من الإمبراطور المعترف بالجميل إلا أن أرسل إليه ابنته تيودورا لتكون زوجة ثانية له ، وبعث إليه السلطان بفرق جديدة تتألف من ستة آلاف جندى . وأخذ جون باليولوج على عاتقه أن يخلعه — فما كان من جون كانتاكوزين إلا أن نهب الكنائس القسطنطينية ليدفع إلى أورخان ثمن عشرين ألف جندى تركى آخرين ووعد السلطان بحصن فى شيرزونيس بتراقيا ، وفى لحظة انتصاره الظاهرى انقلب الشعب عليه وعده خائناً ، وحولته الثورة فى ليلة واحدة من إمبراطور إلى مؤرخ — (١٣٥٥) فاعتزل فى دير ، وكتب تاريخ عصره كمحاولة أخيرة لإرباك أعدائه .

ولم يجد جون الخامس باليولوجس العرش ذلولا ، فذهب إلى روما مستشفعاً (١٣٦٩) ، ووعد ، فى مقابل ما يقدم له من عون ضد الأتراك أن يدخل شعبه فى طاعة البابوية ، وأنكر الكنيسة اليونانية الأورثوذكسية أمام المذبح الكبير للقديس بطرس . ووعد البابا إربان الخامس بأن يمد له يد العون ضد الكفار ، وأعطاه رسائل إلى أمراء العالم المسيحى ، ولكن هؤلاء الأمراء كانوا منصرفين إلى شئون أخرى . وبدلا من أن تقدم له البندقية المساعدة المنشودة اعتبرته رهينة فى مقابل الديون اليونانية . وأحضر ابنه عمانويل المال المطلوب ، وعاد جون إلى القسطنطينية أفقر مما رحل عنها ، وأنكره شعبه لأنه حنث بعهده للمذهب الأرثوذكسى . وفشل فى محاولة ثانية للحصول على المدد من الغرب ، فاعترف بالسلطان مراد الأول مولى عليه ، ووافق على أن يمد الجيش العثمانى بالمدد العسكرى ، وقدم ابنه الحبيب عمانويل ليكون رهينة على الوفاء بتعهده وهدأت ثائرة مراد فترة ما وتنكب بيزنطة ، وتحول لإخضاع أمارات البلقان .

٢ ـ أمارات البلقان تلتقي بالترك ١٣٠٠ ـ ٩٦

لقد كان القرن الرابع عشر إلى ذلك الوقت بالنسبة لأمارات البلقان بمثابة القمة فى تاريخها . . . وعمل الصقالبة الأشداء فى ولاشيا وبلغاريا والصرب والبوسنة وألبانيا على قطع الأخشاب من الغابات والبحث عن المناجم وفلاحة الأرض ورعى قطعان الماشية وكانوا يحرصون على تربية دوابهم . وحمل الصقالبة والإيطاليون والمجريون والبلغار واليونان واليهود تجارة الشرق والغرب من بحر الأدرياتى إلى البحر الأسود ومن البحر الأسود إلى البلطيق ، وكانت المدن تدر عليهم الرزق كلما ساروا .

وكان الرجل العظيم من الصرب فى هذا القرن هو ستيفن دوشان . ولقد أنجبه والده ستيفن أروش الثالث فى انفلاتة قصيرة عن روابط الزوجية وسماه بهذا الاسم المحبوب دوشا — أى الروح — وتوجه ولياً للعهد حتى إذا جاء ابن آخر شرعى وحمل بدوره ألقاباً محببة ، خلع ستيفن أباه ، وشنقه وحكم بلاد الصرب بيد قوية مدى جيل كامل . وكتب أحد معاصريه عنه يقول : « كان أطول رجال زمانه وأبشعهم منظراً » ، واغتفرت له الصرب كل شيء لأنه شن حرباً مظفرة . فقد درب جيشاً جراراً ، وقاده بحنكة ، وفتح البوسنة وألبانيا وأبيروس وأكارنانيا وأيتوليا ومقدونيا وتساليا ونقل عاصمة ملكه من بلجراد إلى سكبلجة حيث جمع برلمانا من النبلاء ، وناشده أن يوحد ويجمع قوانين ولاياته المختلفة ، وكانت ثمرة ذلك هى : « زابونيك تساد دوشانه» أى « مجموعة قوانين القيصر دوشا » (١٣٤٩) وهى تكشف عن مستوى فى التطور القانونى والعرف المتمدين لا يقل كثيراً عما فى أوربا الغربية ، وأفاد الفن الصربى فى القرن الرابع عشر من هذه النهضة السياسية فى التمويل وربما فى الحافز حتى ضارع الازدهار المعاصر فى القسطنطينية والمورة ، فأقيمت الكنائس الفخمة ، وكانت الفسيفساء فيها أكثر

حرية وحياة مما سمح به الاتجاه الكهنوتى المحافظ فى العاصمة اليونانية . وفى عام ١٣٥٥ حشد دوشان جيوشه للمرة الأخيرة . وسألهم هل يؤثرون أن يسيروا ضد بيزنطة أم ضد هنغاريا . فأجابوا أنهم على استعداد لمتابعته إلى أى مكان يختاره لقيادتهم . فصاح « إلى القسطنطينية » ومرض فى الطريق ومات .

وكانت إمبراطوريته من التنافر إلى حد لا يجمعها غير رجل له ذكاء نافذ ونشاط منظم ، فشقت البوسنة عصا الطاعة ، والتمست لحظة مواتية . فى كنف ستفين ترتكو ، لقيادة البلقان . وحصلت بلغاريا على المرحلة الأخيرة من مراحل عظمتها فى عهد جون الإسكندر . وانفصلت ولاشيا ، التى كانت فى يوم من الأيام جزءاً من الإمبراطورية البيزنطية (١٢٩٠) وحكمت دلتا الدانوب الشاسعة . وخرجت ملدافيا عن ولائها لهنغاريا (١٣٤٩) . وداهم الترك هذه الدويلات المتنافرة حتى قبل أن يجعل جون الخامس باليولوجس من بيزنطة التزاماً إقطاعياً لمراد الأول . وقاد سليمان الابن المقدام للسلطان أورخان الجيوش التركية لمعاونة جون السادس كانتاكوزين ، فتسلم أو أخذ مكافأة له ، حصن زمبه على الجانب الأوربى للدردنيل (١٣٥٣) ولما هدم الزلزال غاليبولى المجاورة دخل سليمان المدينة العزلاء واستجاب الأتراك المستعمرون لدعوته فعبروا من الأناضول وانتشروا على طول الشاطئ الشمالى لبحر مرمرة وكادوا يبلغون القسطنطينية نفسها وزحف سليمان بجيش متزايد صوب تراقيا واستولى على أدرنة (١٣٦١) . وبعد خمس سنوات جعل منها مراد عاصمته الأوربية . وفى هذا المركز صوب الأتراك ضرباتهم مدى قرن من الزمان إلى إمارات البلقان المنقسمة على نفسها .

وأدرك البابا اربان الخامس مغزى هذا التسلل التركى إلى أوربا فاستنفر العالم المسيحى بأسره لحرب صليبية أخرى . فاتجه جيش مؤلف من الصرب والهنغاريين والولاشيين ، ببسالة صوب أدرنة . وأقاموا عند نهر مارتزا احتفالا بزحفهم الذى لم يلق مقاومة ، وفيما هم يشربون الأنخاب

يعربدون إذا بهم يفاجأون بهجوم ليلى من قوة تركية صغيرة بالقياس إليهم . وذبح كثيرون قبل أن يتمكنوا من حمل أسلحتهم ، وغرق كثيرون آخرون وهم يحاولون الانسحاب عبر النهر وفر الباقون (١٣٧١) . وفى عام ١٣٨٥ استسلمت صوفيا وسقط نصف بلغاريا فى أيدى العثمانيين . واستولوا عام ١٣٨٦ على نيس وعلى سالونيك عام ١٣٨٧ . وأصبحت اليونان بأسرها مكشوفة أمام الأتراك .

وأوقفت بوسنه الصغرى الزحف فى غضون سنة بطولية واحدة . وضم ستيفن توتكو جنوده إلى جنود الصرب بقيادة لازار الأول وهزموا الأتراك فى بلوشنيك (١٣٨٨) . وبعد عام سار مراد غرباً على رأس جيش فيه فرق كثيرة من الجند المسيحيين . والتقى فى قوصوه بحلف من الصرب والبوسنين والمجريين والفلاشيين والبلغار والألبان والبولفريين وادعى فارس حربى إسمه ميلوش كوبيلتش ، أنه آبق فى الخدمة العسكرية وجاسوس واستطاع بذلك أن يشق طريقه إلى خيمة مراد وأن يغتال السلطان فضرب حتى مات . واستثار ابن مراد ووريثه بايزيد الأول الحمية الغضوب فى نفوس الأتراك وقادهم إلى النصر . فأسر الملك لازار وقطعت رأسه وأصبحت الصرب إمارة إقطاعية تدفع الجزية للأتراك ، وأرغم ملكها الجديد ستيفن لازار فتش على إرسال السلاح والرجال إلى بايزيد ، وفى عام ١٣٩٢ انضمت ولاشيا فى عهد جون شيشمان ، إلى قائمة الدول البلقانية التى تدفع الجزية للعثمانيين . ولم تقو على الدفاع غير بلغاريا وبيزنطة .

وفى عام ١٣٩٣ غزا بايزيد بلغاريا . وسقطت ترنوفو بعد حصار دام ثلاثة أشهر ، ودنست الكنائس وأضرمت النيران فى القصور ودعى زعماء النبلاء إلى اجتماع ، ثم أعمل السيف فيهم . فاستصرخ البابا مرة أخرى العالم المسيحى ودعا الملك سيجسمند ملك هنغاريا ، أوربا لحمل السلاح . ومع

أن فرنسا كانت مشغولة بصراع حياة أو موت مع انجلترا إلا أنها أرسلت قوة من الفرسان تحت قيادة كونت نيفير ، وجاء كونت هوهنزلون والسيد الأعظم لفرسان القديس يوحنا مع أتباعهما ، وأحضر أمير بلتين ثلة من الفرسان الباقارين ، وأنكرجون شيشمان تبعية الإقطاعية وجاء بجنده ليحارب تحت قيادة الملك الهنغارى .

وسار الجيش المتحد الذى يتألف من ستين ألفاً من الجنود الأشداء عبر الصرب وحاصر الحامية فى نيكوبوليس . وبلغهم التحذير بأن بايزيد فى طريقه ، ومعه جيش من آسيا لرفع الحصار ، فوعد الفرسان الفرنسيون وقد لعبت الخمر والنساء برءوسهم بأن يبيدوا هذا الجيش ، وقالوا مفاخرين لو سقطت السماء على الأرض فسيرفعونها برماحهم ، أما بايزيد فقد أقسم ليربطن جواده بالمذبح الرفيع فى كنيسة القديس بطرس فى روما ووضع ضعف قواته فى المقدمة بخطة حربية بادية الوضوح . فاندفع الفرسان الفرنسيون وسط هذه القوات مستشعرين للنصر ، ثم وسط عشرة آلاف من الانكشارية ثم وسط خمسة آلاف من الفرسان الأتراك ، ثم هجموا مصعدين فى غير تبصر أحد التلال ، وإذا بهم يواجهون وراء القمة مباشرة الجزء الرئيسى من الجيش التركى المؤلف من أربعين ألفا من حملة الرماح . وحارب النبلاء ببسالة وكانوا بين قتيل وأسير ولائذ بالفرار ، وباندحارهم وقع الاضطراب فى صفوف المشاة المتحالفين خلفهم . ومع ذلك فقد كان الهنغاريون والألمان يردون الأتراك على أعقابهم بينما كان ستيفن لازارفتش أمير الصرب يقود خمسة آلاف من . المسيحين ضد الجيش المسيحى وانتصر فى موقعة نيكوبوليس الحاسمة لمصلحة السلطان (١٣٩٦) .

وثارت ثائرة بايزيد عندما رأى الجم الغفير من رجاله صرعى فى حومة القتال ، وعندما سمع ما زعمته الحامية التى أنقذت من أن المحاصرين المسيحيين قتلوا أسراهم من الترك ، فأمر بقتل أسراه البالغين عشرة آلاف

رجل . وسمح لكونت نيفير أن يتخير أربعة وعشرين فارساً فى مقابل الفدية التى يحضرونها . وذبح آلاف من المسيحيين فى مقتلة دموية استمرت من طلوع الشمس إلى فترة متأخرة من المساء ، حتى توسل قواد السلطان أن يخلى سبيل الباقين ؛ وظلت بلغاريا منذ ذلك اليوم إلى عام ١٨٧٨ ولاية من ولايات الإمبراطورية العثمانية وبذلك استولى بايزيد على معظم اليونان ، ثم اتجه صوب القسطنطينية .

٣ — السنوات الأخيرة للقسطنطينية ١٣٧٣ — ١٤٥٣

لم تكن هناك حكومة جديرة تماماً بالسقوط كالحكومة البيزنطية . فلم ترسل فرقاً من الجنود إلى الجيوش المسيحية فى مارتزا وقوصوه أو نيكوبوليس لأنها فقدت الرغبة فى الدفاع عن نفسها وعجزت عن إقناع اليونان الممعنين فى السفسطة بأن الاستشهاد فى سبيل الوطن عمل مجيد ونبيل ، فقد جهزت اثنى عشر ألف جندى للسلطان عام ١٣٧٩ والفرق البيزنطية هى التى أجبرت بأمر جون السابع باليولوجس مدينة فيلادلفيا البيزنطية بأسيا الصغرى على التسليم للأتراك (١٣٩٠) .

ولما واصل بايزيد حصار القسطنطينيين (١٤٠٢) كانت الإمبراطورية البيزنطية قد انحسرت فى عاصمتها . وسيطر بايزيد على شاطئ بحر مرمرة وتحكم فى الدردنيل وحكم معظم آسيا الصغرى والبلقان تقريباً وتنقل فى أمن بين عواصمه الأسيوية والأوربية . ويبدو أن الساعة الأخيرة للمدينة المحاصرة قد حانت . وكان اليونان المشرفون على الموت جوعاً يلقون بأنفسهم من الأسوار ، ويلجأون إلى الأتراك لكى يطعموا . وفجأة ظهر من الشرق الإسلامى مخلص « كافر » للحدود الأمامية للعالم المسيحى . وهو تيمور الأعرج — أى تيمورلنك الكبير — الذى عزم على أن يضع حداً لنمو القوة العثمانية ووجودها . ولما أخذت حشود التتار تطوى الأرض متجهة إلى الغرب رفع بايزيد الحصار عن القسطنطينية وعاد ليعيد جمع قواته فى الأناضول . والتقى التتار والأتراك فى أنقره (١٤٠٢) فهزم

بايزيد ووقع أسيراً وانحسر المد التركى فترة جيل . وبدا أن الله قد ناصر آخر الأمر المسيحيين .

واستعادت بيزنطة بفضل حكم عمانويل الثانى السديد ، معظم اليونان وأجزاء من تراقية . ولكن محمد الأول أعاد تنظيم الجيش التركى وتحول به مراد الثانى من الهزيمة المنكرة إلى انتصارات باهرة . وكان جنود الإسلام لا يزالون ، يستلهمون من اعتقادهم بأن الشهيد فى سبيل الإسلام له الجنة ، وحتى ولو لم تكن هناك جنة وحور عين ، فإن فيهم من الإنصاف ما يجعلهم يرون الجمال فى بنات يونان[١] . أما المسيحيون فلم يكونوا على هذا القدر من الأنصاف . فإن اليونان الكاثوليك كانوا يمقتون الرومان الكاثوليك ، وكان الفريقان مكروهين بدورهما . ولما أخذ البنادقة يقنصون اليونان الكاثوليك فى جزيرة كريت ويعملون السيف فى رقابهم انضم البابا أربان الخامس إلى بترارك فى تهنئة أمير البندقية على حمايته للكنيسة الواحـــدة الصادقة (١٣٥٠) ولقد نفر الشعب وصغار القساوسة من كل محاولة لإعادة توحيد المسيحية اليونانية واللاتينية — وصرح أمير بيزنطى بأنه يفضل أن يرى العمامة التركية فى القسطنطينية على القبعة الحمراء لكاردينال رومانى . وكرهت معظم الحكومات البلقانية جيرانها أكثر من كراهيتها للأتراك ، وآثر البعض أن يخضع للمسلمين ، الذين لا يفرضون ضرائب أكثر مما يفرضه الحكام المسيحيون واضطهادهم للهرطقة أقل أو هم لا يضطهدونها على الإطلاق ويسمحون بأربع زيجات .

وفى عام ١٤٢٢ أعاد مراد الثانى الهجوم على القسطنطينية . وأرغمته ثورة فى الولايات البلقانية على رفع الحصار . وسمح لجون الثامن باليولوجس أن يحكم فى سلام نسبى بشرط أن يدفع جزية باهظة للأتراك . وأعاد مراد فتح اليونان وسالونيك ومعظم ألبانيا . وقاومت الصرب ببساطة تحت إمرة

---

(١) أثبتت الوقائع قوة إيمان المسلمين وهو الإيمان الذى جعلهم يطوون رقعة الأرض بالفتوح على الرغم من قلة عددهم وعتادهم وأقام دولتى الفرس والروم . (المترجم)

جورج برانكوفتش ، وألحق جيش موحد من الصرب والهنغاريين تحت إمرة هانياد جانوس الهزيمة بمراد عند كونوفتزا (١٤٤٤) وحكم بارنكوفتش الصرب إلى أن مات بالغاً من العمر تسعين سنة (١٤٥٦) ووقع مراد . بعد انتصارين فى فارنا ووقعة قوصوه الثانية (١٤٤٨) ، صلحاً مع الإمبراطور قسطنطين الحادى عشر باليولوجس وانسحب إلى أدرنه ومات هناك (١٤٥١) .

ولقد جاس محمد الثانى الملقب بالفاتح على العرش العثمانى وهو فى الواحدة والعشرين من عمره . وأيد المعاهدة التى أبرمت مع قسطنطين وأرسل ابن أخيه أورخان ليتعلم (وربما ليكون جاسوساً) فى البلاط البيزنطى ولما تحدت دول إسلامية أخرى سلطانه على آسيا الغربية جعل جنوده يعبرون المضايق وترك ممتلكاته الأوروبية تحت إمرة وزيره خليل باشا المعروف بصداقته لبيزنطة . وكان قسطنطين يتحلى بالشجاعة أكثر من الذكاء ، فأبلغ الوزير أنه إذا لم يضاعف المعاش الذى يدفع لرعاية ابن أخى محمد فإن بيزنطة ستجعل أورخان مطالباً بالسلطنة العثمانية . ويبدو أن قسطنطين قد رأى أن الثورة فى آسيا فرصة لإضعاف الأتراك فى أوربا . ولكنه أهمل أن يحافظ على محالفاته فى الغرب ومواصلاته بالجنوب . وعقد محمد الصلح مع أعدائه من المسلمين ومع البندقية وولاشيا والبوسنة وهنغاريا . وعبر ثانية إلى أوربا وشيد حصناً منيعاً على البوسفور مشرفاً على القسطنطينية ، ومن ثم أمن المعبر المكشوف الذى تجوزه جنوده بين القارتين ، وتحكم فى التجارة كلها التى تدخل البحر الأسود . وظل ثمانية أشهر يجمع المواد والرجال . واستأجر صناع المدافع المسيحيين ، ليصنعوا له أكبر مدفع عرف لذلك العهد ، يرمى بقذائف وزنها ستمائة رطل ، وفى يونيه عام ١٤٥٢ ، أعلن الحرب ، وبدأ الحصار الأخير للقسطنطينية ومعه مائة وأربعون ألف رجل .

ودافع قسطنطين بعزم اليائس وجهز جنوده السبعة آلاف بمدافع صغيرة ورماح وقسى وسهام ومشاعل وبنادق ساذجة ترمى قذائف من الرصاص فى

حجم الجوزة ، وكان لا ينام إلا لحظات خاطفة ، وأشرف كل ليلة ، على إصلاح ما يصيب الأسوار من عطب فى غضون النهار . ومع ذلك فإن الحصون القديمة أخذت تنهار أكثر فأكثر تحت وطأة قذائف المنجنيق ومدفعية الأتراك المتفوقة ، وهكذا انتهى تحصين المدن فى القرون الوسطى بالأسوار. وفى التاسع والعشرين من مايو شق الأتراك طريقهم عبر خندق مكتظ بجثث قتلاهم ، ودخلوا كالموج المتلاطم من فوق الأسوار ومخترقين إيانا إلى المدينة التى أخذها الفزع من كل جانب ، وضاعت حشرجة المحتضرين فى طبول الموسيقى العسكرية وأبواقها . وحارب اليونان بشجاعة آخر الأمر ، وكان الإمبراطور الصغير فى كل مكان من حومة الوغى ، واستشهد النبلاء الذين كانوا معه عن بكرة أبيهم دفاعاً عنه . ولما أحاط به الأتراك صاح قائلا : « ألا يوجد مسيحى يضرب عنقى » . وخلع عن نفسه رداءه الإمبراطورى وحارب كجندى عادى واختفى فى طريق جيشه الصغير ، ولم يسمع عنه شىء قط بعد ذلك .

وقتل المنتصرون الألوف ، حتى توقفت كل محاولة للدفاع . ثم بدأوا النهب والسلب الذى يجنح إليه الظافرون والذى طال تعطشهم إليه ، وأخذ كل بالغ ينتفع به فى العمل غنيمة ، واغتصبت الراهبات كغيرهن من النسوة فى ثورة من الشهوة لا تعرف التمييز ، ووجد السادة والخدم من المسيحيين بعد أن زال عنهم الكساء الذى يدل على مكانتهم ، أنفسهم متساوين فجأة فى العبودية التى لا تمييز فيها وكبح جماح النهب والسلب هوناً ما ، فعند ما رأى محمد الثانى رجلا مسلحا تدفعه عاطفته الدينية يتلف الممر الرخامى لكنيسة القديسة صوفيا ، ضرب به بسيفه الملكى الأحدب ، وأعلن أن كل المبانى يجب أن تصان لتكون غنيمة ينظمها السلطان . وحولت كنيسة القديسة صوفيا إلى مسجد بعد التطهير المناسب فأزيلت عنها كل الأمارات المسيحية ، وطليت فسيفساؤها بالبياض ونسى ما كان عليها خمسمائة سنة ، وصعد مؤذن فى نفس اليوم الذى

سقطت المدينة فيه أو فى يوم الجمعة التالى له إلى أعلى برج من أبراج أيا صوفيا ودعا المسلمين للصلاة فيها جماعة لله الناصر ؛ وأدى محمد الثانى فريضة الصلاة فى أشهر مزار فى العالم المسيحى .

وهز الاستيلاء على القسطنطينية كل عرش فى أوربا . فقد سقط الحصن الذى طالما حمى أوربا من آسيا أكثر من ألف سنة ، فإن القوة والعقيدة الإسلاميتين اللتين أمل الصليبيون فى ردهما إلى داخل آسيا ، قد شقتا الآن طريقهما على جثة بيزنطة ، وعبرتا البلقان إلى أبواب هنغاريا ؛ ورأت البابوية ، التى حلمت بإخضاع جميع المسيحيين اليونان لحكم روما ، بفزع سرعة تحول الملايين من سكان جنوب شرق أوربا إلى الإسلام . وأصبحت طرق التجارة التى كانت مفتوحة فى يوم من الأيام للسفن الغربية فى يد أجنبية ، تفرض عليها المكوس فى وقت السلم أو تسدها المدافع فى وقت الحرب ، وهجر الفن البيزنطى موطنه ولجأ إلى روسيا . بينما اختفى تأثيره فى الغرب بالقضاء على عزمه . وأخذت هجرة العلماء إلى إيطاليا وفرنسا ، التى كانت قد بدأت عام ١٣٩٧ ، تزداد وتثمر فى إيطاليا الدعوة إلى إنقاذ اليونان القديمة . وإذا أخذنا بوجه من الوجوه فإنه لم يضع شىء ، إلا أن الموتى قد ماتوا . فقد أتمت بيزنطة دورها ، وأسلمت مكانها ، فى موكب الإنسانية الذى يتألف من البطولة والقتل ومن النبل والخسة .

٤ — هانيادى جانوس (١٣٨٧ — ١٤٥٦)

وكان سكان هنغاريا البالغ عددهم حوالى سبعمائة ألف فى القرن الرابع عشر مزيجاً من المجر والبانونيين والسلوفاك والبلغار والخزر والباتزيناك والكومان والسلافونيين والكرواتيين والروس والأرمن والولاشيين والبوسنويين والصرب . والخلاصة أن أقلية من المجر كانت تحكم الأغلبية من الصقالبة .. وبدأت تتكون فى المدن الناشئة إبان القرن الرابع عشر طبقة وسطى تجارية وأخرى من عمال

الصناعة — ولما كان هؤلاء . فى الغالب مهاجرين من ألمانيا وفلاندز وإيطاليا فقد أضيفت خلافات عنصرية إلى الكيان الجنسى المعقد .

وانتهت بموت أندرو الثالث أسرة أرباد المالكة (٩٠٧ — ١٣٠١) ، فقسمت الحرب التى اشتجرت فى سبيل العرش الأمة أكثر مما هى عليه ، ولم يعد السلام إلا عندما جعلت الطبقة العليا من النبلاء الملكية بالانتخاب ، ووضعوا تاج القــديس ستيفن على رأس تشارلز روبرت أمير أنجو (١٣٠٨) : فأحضر معه فكرات فرنسية من إقطاع وفروسية وفكرات إيطالية عن التجارة والصناعة فنهض بمناجم الذهب الهنغارية وشجع المشروعات وضرب السكة ، وطهر القضاء ومنح الأمة إدارة مناسبة . وأصبحت هنغاريا فى عهد تشارلز وابنه لويس دولة غربية وذلك رغبة فى الحصول على معاونة الغرب أمام الشرق المتكاثر .

وكتب فولتير « لقد حكم لويس الأول هنغاريا حكما سعيدا أربعين سنة (١٣٤٢ — ٨٢) » وحكم بولنده اثنتى عشرة سنة (حكما غير موفق كذلك) — ولقبه شعبه بالكبير ، الذى يستحقه عن جدارة ، ومع ذلك فإن هذا الأمير قلما يعرف فى أوربا (الغربية) لأنه لم يحكم قوماً يستطيعون أن ينقلوا شهرته وفضائله إلى أمم أخرى . وما أقل الذين يعلمون أنه كان فى القرن الرابع عشر ، لويس الكبير فى جبال الكربات » . . . ومزجت أخلاقه بين الثقافة المدنية ومشاعر الفروسية بالحمية والقــدرة العسكريتين : ولقد انغمس فى الحروب بين حين وآخر ليثأر لمقتل أخيه فى نابلى وليستعيد من البندقية الثغور الدلماشية التى اعتبرتها هنغاريا زمناً طويلا منافذها إلى البحر ، وليضع حداً للتوسع العدوانى للصرب وتركيا وذلك بجعل كرواتيا والبوسنه وبلغاريا الشمالية تحت سيطرة هنغاريا ونشر بالقدرة والمبدأ مثل الفروسية الأعلى بين النبلاء ، ورفع مستوى الأخلاق والعادات بين شعبه . وحقق الفن القوطى الهنغارى فى عهده وعهد أبيه أجمل آثاره ،

ونحت نيقولاس كولوزفارى وأبناؤه من التماثيل البارعة مثل تمثال القديس جورج الذى يوجد الآن فى براغ . وأسس اويس عام ١٣٦٧ جامعة بيس ، ولكنها اختفت مع الكثير من أمجاد هنغاريا فى القرون الوسطى فى الصراع الطويل المضنى مع الأتراك .

واستمتع سيجسموند الأول وهو زوج ابنة لويس بحكم كان من الممكن أن يؤدى طوله (١٣٨٧ — ١٤٣٧) إلى وضع سياسة طويلة بعيدة النظر . ولكن أعماله كانت فوق طاقته . فقاد جيشاً جراراً ضد بايزيد فى نيكوبوليس ، ولم ينج من الكارثة إلا بحياته . وأدرك أن الزحف التركى قد أصبح أخطر مشكلات أوربا ، وبذل عناية فائقة وأموالا لا تكفى لتحصين الحدود الجنوبية ، وشيد عند ملتقى الدانوب بالساف حصن بلغراد الكبير . بيد أن انتخابه لإدارة الإمبراطورية جعله يهمل هنغاريا إبان غيبته الطويلة فى ألمانيا ، كما أن حصوله على تاج بوهيميا قد وسع من مسئولياته دون أن يزيد فى قدراته .

وغزا الأتراك المنتشرون هنغاريا بعد سنتين من وفاته . وأثمرت الأمة فى هذه الأزمة أشهر أبطالها . ولقد حصل هانيادى جانوس على لقبه من قلعة هانيادى فى ترانسلفانيا ، وهو معقل منيع منح لأبيه لحسن بلائه فى الحرب ودرب جانوس — أى جون — على الحرب كل يوم تقريباً فى صباه . وبرز بانتصاره على الأتراك فى سيمندريا ، وجعله الملك الجديد ، لاديسلاس الخامس ، كبير القواد على الجيوش التى تقاوم الأتراك . وأصبح رد العثمانيين على أعقابهم هو الشغل الشاغل فى حياته . فلما دخلوا ترانسلفانيا قاد لمحاربتهم فرقاً حديثة التنظيم تلهبها وطنيته وقيادته . وفى هذه الموقعة بذل سيمون كيمينى ، الأثير فى الأدب الهنغارى ، حياته فى سبيل قائده : وكان قد علم أن الأتراك طلب إليهم أن يفتشوا عن هانيادى ويقتلوه ، فناشد سيمون قائده أن يتبادل الأزياء وإياه فسمح له بذلك .

ومات تحت وطأة الهجمات المركزة عليه ، بينما قاد هانيادى الجيش إلى النصر (١٤٤٢) وأرسل مراد الثانى فرقاً جديدة تتألف من ثمانين ألف رجل إلى الجبهة ، فاستدرجهم مخيلا إليهم أنه يتراجع ، إلى ممر ضيق — لا يسمح إلا لجزء يسير منهم بالقتال دفعة واحدة ، وانتصرت خطة هانيادى مرة أخرى . وأزعجت مراد الثورات فى آسيا ، فسعى إلى الصلح ووافق على دفع تعويض مادى . فوقع الملك لاديسلاس وحلفاوءه هدنة مع مندوبين عن مراد ، هدنة تدعو الفريقين إلى الإخلاد إلى السلم . وأقسم لاديسلاس على الكتاب المقدس ، وأقسم سفراء الترك على القرآن (١٤٤٢) .

ولكن الكاردينال جوليانو شيزاريني ، القاصد الرسول فى بودا ، ما لبث أن وجد الوقت مناسباً للهجوم . فإن مراداً أخذ ينقل جيشه إلى آسيا وبذلك يستطيع أسطول إيطالى يتحكم فى الدردنيل أن يحول بينه وبين العودة واحتج الكاردينال الذى عرف باستقامته وقدرته ، بأن القسم لكافر لا يقيد المسيحى . ونصح هانيادى بالإخلاد إلى السلم ، وأبت الفرقة الصربية أن تحنث بالقسم . ووافق مندوبو الأمم الغربية شيزاريني ، ووعدوا بأن يسهموا بالمال والرجال فى حرب صليبية مقدسة . ولم ير لاديسلاس بدا من التسليم ، وقاد بنفسه هجوماً على مواقع الأتراك . ولم يأت المدد الموعود من الغرب ، وراغ الجيش العثمانى المؤلف من ستين ألف رجل من الأشداء ، من أمير البحر الإيطالى وعبروا عائدين إلى أوربا . وفى فارنه بالقرب من البحر الأسود ألحق مراد هزيمة منكرة بجند لاديسلاس البالغ عددهم عشرين ألفاً (١٤٤٤) وكان حامل اللواء فى الجيش التركى يرفع المعاهدة الممتهنة على رمح . فنصح هانيادى الملك بالانسحاب ولكنه أمر بالتقدم . وناشده هانيادى أن يبقى فى المؤخرة ، بيد

أن الملك اندفع إلى المقدمة ، وقتل . ولم يسترد شيزاريني شرفه ببذل حياته .

وحاول هانيادي بعد ذلك بأربع سنوات أن يرفع البلاء . فشق طريقه عبر الصرب المعادية له ، والتقى بالأتراك في قوصوه في معركة حامية استمرت ثلاثة أيام . واندحر الهنغاريون ولاذ معهم هانيادي بالفرار ، واختفى أياما في بطيحة ماء ، وبرز ، بعد أن أشرف على الموت جوعاً . فعرفه الصرب وأسلموه إلى الأتراك . وأطلق سراحه بعد أن وعد بألا يقود جيشاً على أرض الصرب بعد ذلك .

وفي عام ١٤٥٦ حاصر الأتراك بلغراد . وصوب محمد الثاني على القلعة المدفعية الثقيلة التي هدمت أسوار القسطنطينية . ولم يعرف الأوربيين قبل ذلك قصفاً عنيفاً بالقنابل كهذا . وقاد هانيادي الدفاع بحنكة وشجاعة لم يغفلهما الشعر الهنغاري قط . وآثر المحاصرون ، آخر الأمر خوض المعركة على الموت جوعاً ، فاندفعوا من الحصن ، وشقوا طريقهم إلى المدفع التركي ، وهكذا انتصروا على العدو انتصاراً حاسماً فتخلصت هنغاريا ستين سنة بعد ذلك من أي هجمة إسلامية . وبعد أيام قلائل من هذا الدفاع التاريخي مات هانيادي بالحمى في خيمته . وتمجده هنغاريا باعتباره أعظم رجالها .

٥ — المد في عنفوانه (١٤٥٣ — ٨١)

تابع الأتراك فتح البلقان واستسلمت الصرب آخر الأمر عام ١٤٥٩ ، وظلت ولاية تركية إلى عام ١٨٠٤ . واستولى محمد الثاني على كورنثة بعد أن حاصرها وأثينا دون أن يرفع رمحاً (١٤٥٨) ومنح الفاتح ، مثله في ذلك مثل قيصر ، الآثينيين شروطاً سهلة احتراماً لأسلافهم وأبدى اهتماماً ينم عن الثقافة بالآثار الكلاسية وحق له أن يبتهج ، لأنه لم ينتقم من الصليبيين فحسب وإنما ثأر لوقعة مرثون أيضاً . وقبلت البوسنه ، التي

لقبت عاصمتها وثغرها راجوسه بأثينا الصقلية لمظهرها الثقافى ، الحكم التركى عام ١٤٦٣ وقبلت الإسلام فى يسر أذهل الغرب .

وكان أشجع غرماء الترك فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر هو اسكندر بك الألبانى . واسمه الحقيقى جورج من كاستريوتا ، ولعله كان من أسرة صقلية متواضعة ، ولكن الأساطير المحببة لشعبه تجعله من أسرة ملكية أبيروسية وتسبغ عليه شباباً مغامراً . ولقد أنبئنا أنه قدم فى صباه رهينة لمراد الثانى ، وأنه نشأ فى بلاط العثمانيين بأدرنة . وأحب السلطان فيه الشجاعة والاحتمال حتى عامله كأحد أبنائه وجعله ضابطاً فى الجيش التركى . ودخل فى الإسلام وسمى بهذا الاسم اسكندر بك — أى الأمير اسكندر — وبعد أن قاد الأتراك فى وقائع كثيرة ضد المسيحيين ندم على ارتداده عن المسيحية واحتال للفرار . وأنكر الإسلام ، واستولى على العاصمة الألبانية كروجا من حاكمها التركى وأعلن العصيان (١٤٤٢) وأرسل محمد الثانى الجيش تلو الجيش لمعاقبته ، فهزمها جميعها اسكندر بك بسرعة تحركاته العسكرية وبراعته فى المراوغة وشغل محمد بحروب أكبر ، فمنحه هدنة عشر سنوات (١٤٦١) . ولكن مجلس شيوخ البندقية والبابا بيوس الثانى أقنعوا اسكندر بك بأن يخرج على الهدنة ويواصل الحرب (١٤٦٣) . وتوعد محمد المسيحيين باعتبارهم كفاراً حانثين بوعودهم وعاد إلى حصار كروجا . وأبلى اسكندر بك بلاءاً حسناً فى الدفاع عنها مما اضطر السلطان إلى رفع الحصار مرة أخرى ، وبين حطام النصر مات اسكندر بك (١٤٦٨) واستسلمت كروجا عام ١٤٧٩ ، فأصبحت ألبانيا ولاية تابعة لتركيا .

وفى الوقت نفسه ابتلع محمد الذى لا يشبع الموره وأطرابزنده ولسبوس ونجروبونت (أثيوبيا القديمة) والقرم . وفى عام ١٤٧٧ عبر جيش من

جيوشه الأيزونزو وخرب الجانب الشمالى الشرقى لإيطاليا على مسيرة اثنين وعشرين ميلا من البندقية وعاد إلى الصرب محملا بالغنائم . وسلمت البندقية التى استولى عليها الفزع والتى حاربت طويلا دفاعاً عن ممتلكاتها فى بحرى ايجه والأدرياتى ، بكل حق لها فى كروجا وسكوتارى ، ودفعت تعويضاً مقداره عشرة آلاف بندقى[١] . أما أوربا الغربية التى فشلت فى معاونة البندقية ، فقد أنكرت عليها أن تبرم وتحافظ على الصلح مع الكافر . ووصل الأتراك بذلك إلى الأدرياتى ، ولم يعد هناك ما يفصلهم عن إيطاليا وروما والفاتيكان ، غير جانب ضيق من البحر ، عبره قيصر بقارب صغير . وفى عام ١٤٨٠ أرسل محمد جيشاً عبر هذا الجانب الصغير لمهاجمة مملكة نابولى . واستولى على تورنتو فى يسر ، وأعمل السيف فى نصف عدد السكان البالغ اثنين وعشرين ألف نسمة ، واسترق الباقين وشطر أحد كبار الأساقفة نصفين . وأصبح مصير المسيحية ووحدانية الزوجة معلقاً فى كفة ميزان . وأنهى فيرانت ملك نابولى حروبه مع فلورنسه ، وأرسل خير فرقة لاستعادة تورنتو . وكان محمد قد ورط نفسه فى حصار رودس ومات أثناء المغامرة ، وظلت رودس مسيحية إلى عهد سليمان ورفع الأتراك قبضتهم عن تورنتو وعادوا إلى البانيا (١١٨١) . وتوقف المد العثمانى عن السير لحظة .

٦ ــ النهضة الهنغارية (١٤٥٦ ــ ٩٠)

فى نصف القرن الذى ظفر فيه هانيادى لهنغاريا بالأمن ، قاد ابنه ماتياس كورفينوس بلاده إلى أوجها التاريخى . وكان فى السادسة عشرة من عمره

---

(١) الدوقات هى البندقى ، عملة أجنبية قديمة تنسب إلى البندقية وتستعمل أيضا عياراً للذهب .

فقط عند جلوسه على العرش ، ولم يكن فيه سمت الملوك ، إذ كانت ساقاه قصيرتين -- بالقياس إلى جذعه ، ولا يبدو طويل القامة إلا إذا امتطى صهوة جواد ، ومع ذلك فقد كان له صدر مصارع وذراعه وقوته وإقدامه ، وبعد تتويجه بوقت غير طويل تحدى إلى مبارزة فردية فارساً ألمانيا ضخم الجثة عظيم القوة ، صرع فى جولة واحدة فى مدينة بودا جميع منافسيه ، وتوعد ماتياس غريمه بأن يشنق إذا أخفق فى المبارزة بكل ما أوتى من عزيمة وبراعة . وأكد المؤرخون الهنغاريون بأن الملك الشاب وقد حفزه هذا المأزق العصيب قضى على العملاق قضاء مبرماً . وأنضجت الأيام ماتياس حتى أصبح جندياً باسلا وقائداً محنكا ، فهزم الأتراك كلما التقى بهم ، واستولى على مورافيا وسيليزيا ولكنه أخفق فى فتح بوهيميا وخاض أربعة حروب ضد الإمبراطور فريدريك الثالث ، وأخذ ڤينا وألحق بها النمسا (١٤٨٥) ، وكانت الإمبراطورية النمساوية الهنغارية فى الواقع هنغارية .

وجعلت انتصاراته الملكية متفوقة على طبقة النبلاء بعض الوقت ، وكانت مركزية الحكم هنا كما كانت فى غرب أوربا طابع العصر ، وضارع بلاطه فى بودا وفى القصر الملكى فى فيسجراد أية أبهة ملكية وجدت فى ذلك العهد ، وأصبح كبار النبلاء خدامه ، واشتهر سفراؤه بفخامة أرديتهم وخدمهم وحشمهم ، وكانت دبلوماسية ماتياس ماكرة غير مترددة ، ودودة سخية ، فقد اشترى بالذهب ما يكلف ضعفه بالحرب ، ووجد فى الوقت نفسه الوقت والحماسة لإصلاح كل إدارة فى الحكومة ؛ وليعمل بنفسه كإدارى يقظ وقاض إمبراطورى . وأخذ يتجول متخفيا بين أفراد الشعب والجند والمحاكم ، فاختبر لتوه سلوك موظفيه ، وأصلح من شأنهم بالمنافسة والعدل وبغير محاباة أو خوف وعمل ما يستطيعه لحماية الضعيف من القــوى ، والفلاحين من سادتهم المغتصبين . وبينما استمرت الكنيسة تزعم أن البلاد ملك بابوى ، فإن ماتياس قد بين ونظم تعيين الأساقفة واستمتع بحماسته عندما

عين صبيا إيطاليا فى السابعة من عمره كبير أساقفة هنغاريا فأرسل تجار مدينة فرارا ، رداً على هذه الفكاهة ، إلى كبير الأساقفة الجديد مجموعة من اللعب.

وتزوج ماتياس عام ١٤٧٦ بياتريس أميرة أرجون ، ورحب فى هنغاريا بالروح النابولية المرحة والأذواق الإيطالية المصقولة لحفيدة الفونسو الهمام . وشجع الاتصال بين هنغاريا ونابولى تلك القرابة الأنجوية[1] بين الأسرتين المالكتين ، ولقد تعلم فى إيطاليا كثيرمن رجال الحاشية فى بودا . وتشبه ماتياس نفسه بالحكام المستبدين لعصر النهضة الإيطالية ، فى نزعاته الثقافية إلى جانب اتجاهه المكيافلى فى الحكم ، وأرسل لورنزو ده مدتشى نقشين بارزين من البرونز صنعها فيروكشيه وأوفد لودوفيكو ألمورو ، ليوناردو دافنشى ؛ ليصور العذراء وطفلها للملك الهنغارى مؤكداً للفنان أنه من القلائل الذين يستطيعون تقدير الصورة العظيمة . وقام فيليبينوليبى بعمل صورة أخرى للعذراء وطفلها وذلك لكورفينوس ؛ وزين تلاميذه القصر الملكى فى إذترجوم بالصور الجدارية ؛ ووضع نحات إطالى تمثالا نصفيا لبياتريس ؛ ولعل الصائغ المشهور ، كارادوسو ، وهو من مدينة ميلانو هو الذى صمم صورة المسيح على الصليب البارعة فى أذترجوم ؛ ونقش بينيدتو داميانو زخارف القصر فى بودا ؛ وشيد إيطاليون مختلفون هيكل الكنيسة الصغيرة على طراز عصر النهضة فى القسم الداخلى من العاصمة :

واتبع النبلاء والمطارنة الملك ، فى رعاية الفنانين والعلماء ، بل إن المدن المشهورة بالتعدين فى داخل البلاد قد وجد فيها من الأغنياء من يرفعون من قدر الثروة ، بالإنفاق على الفن ، وشيدت دور جميلة مدنية ودينية لا فى بودا وحدها ولكن فى فيزجراد وتاتا وأنترجوم وناجيفا وفاك أيضاً ، وزين مئات

---

(١) نسبة إلى أنجو .

من النحاتين والمصورين هذه المبانى . ووضع جيوفانى دلمانا تماثيل مشهورة لهانيادى جانوس وغيره من الأبطال الهنغاريين وتألفت فى كسا ، مدرسة صحيحة للفنانين ، ولقد نقش هناك « المعلم ستفين» وغيره ، للمذبح الكبير لكنيسة القديسة اليزابث ، حظاراً زخرفياً ، تبدو تماثيله الأساسية إيطالية فى صقلها ورشاقتها وجمالها ، ونحت فريق آخر فى الصخر لكنيسة بزترزبانيا نقشاً بارزاً عظيماً ، وهو « المسيح فى بستان الزيتون » ، يدهش من رآه بتفاصيله الدقيقة وتأثيره الدرامى ، وظهرت قوة مماثله ى التعبير والفن فى الصور الهنغارية التى بقيت من ذلك العصر ، مثل ما نجده فى « صورة مريم » تزور اليزابث ، رسمها « المعلم م . س » وهى الآن فى متحف بودابست » ولقد تلف أوضاع كل الفن تقريبا الذى أثمرته تلك المرحاة المشرقة من تاريخ هنغاريا إبان الغزو العثمانى فى القرن السادس عشر ، وبعض التماثيل يوجد الآن فى اسطنبول ، نقلها إليها الأتراك المنتصرون .

وكانت اهتمامات ماتياس أدبية أكثر منها فنية ، كما كان دارسو الكلاسيات الأجانب منهم والوطنيون محل ترحيب فى بلاطه ، ويحصلون على رواتب كبيرة لوظائف اسمية فى الحكومة . وكتب أنطونيو بوتفينى تاريخا لهذا العهد بلغة لاتينية على منوال ليفى ، وجمع جانوس فيتيز ، كبير أساقفة حران ، مكتبة عامرة بالكتب الكلاسية القديمة ، وخصص الأموال لإرسال شباب الدارسين لتعلم اليونانية فى إيطاليا . وأنفق أحد هؤلاء وهو جانوس بانونيوس سبعة أعوام فى مدينة فرارا ، وسمح له بأن يكون فى حلقة لورنزو بفلورنسة ، وأدهش البلاط بعد أن عاد إلى هنغاريا ، بأبياته اللاتينية ومحاضراته اليونانية . وكتب بونفين عندما تحدث بانونيوس باليونانية ، « نعتقد أنه لا بد وأن يكون قد ولد فى أثينا » ولعل إيطاليا وحدها هى التى كان يجد فيها المرء ، مثل هذه الكوكبة من الفنانين والعلماء ويحصلون على معاش لهم فى بلاط ماتياس ، وذلك فى الربع الأخير من القرن الخامس عشر . وتعد الرابطة

الأدبية للدانوب من أقدم الجمعيات الأدبية فى العالم ، وقد أسست فى بودا عام ١٤٩٧ .

وجمع كورفينوس مثل معاصريه من آل المدتشى الآثار الفنية والكتب وأصبح قصره متحفا للتماثيل والقطع الفنية ، وتذهب رواية إلى أنه كان ينفق على الكتب ثلاثين ألف كرون كل عام ، وهى فى أكثر الأحوال مخطوطات أنفق الكثير على تزيينها ولم يكن مع ذلك مثل فيديريجودا مونتيفلترو يرفض الكتب المطبوعة ، فلقد أسست مطبعة فى بودا عام ١٤٧٣ ، أى قبل دخول الطباعة إنجلترا بثلاثة أعوام . وكانت مكتبة كورفينوس التى ضمت عشرة آلاف مجلد عند وفاة ماتياس ؛ أجمل مكتبات القرن الخامس عشر خارج إيطاليا . ولقد وضعت هذه الكتب فى قصره بمدينة بودا وخصصت لها قاعتان فسيحتان ؛ لهما نوافذ من الزجاج الملون تطل على الدانوب ؛ وكانت الرفوف كثيرة النقوش ؛ والكتب مجلدة فى معظمها برق الغزال وعليها ستائر من المخمل المزركش . ويظهر أن ماتياس قرأ بعض هذه الكتب ، وتوسل بكتاب ليفى على الأقل طلبا للنعاس ، ولقد كتب إلى أحد دارسى الكلاسيات « أيها العلماء ؛ ما أسعدكم ! إنكم لا تجاهدون فى سبيل المجد المصبوغ بالدم ؛ وفى سبيل تيجان الملوك ؛ وإنما تجاهدون فى سبيل أكاليل الغار التى تتوج الشعر والفضيلة . بل إنكم تستطيعون أن ترغمونا على نسيان ضجيج الحرب » .

ولم تعش السلطة المركزية التى نظمها ماتياس إلا فترة وجيزة بعد وفاته (١٤٩٠) . ولقد بعثت قوة كبار الأمراء وسيطروا على لاديسلاس الثانى ، واختلسوا الموارد التى كان ينبغى أن تنفق على فرق الجيش فانفض الجيش وعاد الجنود إلى دورهم ؛ وبدد النبلاء ، الذين أعفوا من الضرائب ، دخلهم وجهدهم فى حياة معربدة صاخبة ، بينما كان الإسلام يهدد الحدود ، والفلاحون الذين استنزفهم الاستغلال ؛ يتهيأون للثورة . وفى عام ١٥١٤ أعلن مجلس الدايت الهنغارى حربا صليبية على الأتراك ، وعن حاجته لمتطوعين واستجاب

جم غفير من الفلاحين لفداء الصليب إذا لم يجدوا فارقا كبيراً بين الحياة والموت . ولما وجدوا السلاح فى أيديهم ، انتشرت بينهم هذه الفكرة وهى لماذا ننتظرحتى نقاتل الأتراك البعيدين ، فى حين أن النبلاء المبغ: ىن قريبون ؟ وقادهم جندى اسمه جيورجى دوزا فى ثورة عارمة فاكتسحوا هنغاريا بأسرها ، يحرقون جميع القلاع ويقتلون جميع النبلاء الذين يقعون فى أيديهم — رجالا ونساء وأطفالا — فطلب النبلاء النجدة من كل ناحية . . . جنداً نظاميين ومرتزقة ، وفاجأوا الفلاحين غير المنظمين وعذبوا زعماءهم تعذيبا مروعا . ومنع دوزا ومعاونوه الطعام أسبوعين . ثم ربط إلى عرش حديدى محمى بالنار ووضع على رأسه تاج محمى بالنار أيضا ، ووضع فى يديه صولجان محمى بالنار . وسمح لرفاقه المشرفين على الموت جوعا أن ينزعوا اللحم المشوى عن جسده وهو لا يزال حيا يعى . وقد تحتاج النقلة من الهمجية إلى الحضارة قرنا من الزمان ، أما التحول من الحضارة إلى الهمجية فإنما يحتاج إلى يوم واحد .

ولم يذبح الفلاحون لأنهم كانوا لا يعوضون بغيرهم ، ولكن القانون الثلاث (١٥١٤) يقرر : « أن التمرد الحديث . . . يضع فى كل وقت وصمة الخيانة على كاهل الفــلاحين ، ومن أجل ذلك فقد تنازلوا عن حريتهم وأصبحوا خاضعين لسادتهم الملاك فى عبودية دائمة غير مشروطة . . . . وكل نوع من أنواع الملكية يحوزه المالك الإقطاعى ، وليس من حق الفلاح أن يطالب العدل ويحتكم إلى القانون ضد أحد النبلاء .

وبعد ذلك باثنى عشر عاما سقطت هنغاريا فى يد الأتراك .

الفصل الحادى عشر

البرتغال تستهل الثورة التجارية

١٣٠٠ – ١٥١٧

لقد جعلت البرتغال الصغيرة من نفسها فى هذا العصر ، دولة من أغنى وأقوى دول أوربا ، مع أنه لم يكن لها من المزايا الطبيعية غير ساحل يطل على البحر ولم تبلغ هذه المكانة إلا بالعزيمة الخالصة والمغامرة الجسور . ولقد أنشئت الملكية فيها عام ١١٣٩ ، فبلغت حكومتها ولغتها وثقافتها مكانة وطيدة فى عهد أحب حكامها إليها وهو دينيز « العامل » — الإدارى والمصلح والبناء والمعلم ، وداعى الفنون والمكابد الحاذق للأدب والحب . ولقد نضج ابنه أفونسو الرابع بعد حوادث إعدام وقائية ، فأصبح عهده مثمراً ، ربطت فيه التجارة النامية مع إنجلترا ، فى اتحاد سياسى بين الأمتين لا يزال باقياً إلى اليوم . ووجه فونسو ابنه بدرو إلى الزواج من دونا كنستانزا مانويل ، توكيداً لمحالفة رشيدة مع قشتالة الآخذة فى القوة . فاستجاب الابن وتزوجها ، ولكنه استمر على حبه إينيه ده كاسترو ، وهى من أصل ملكى . ولما ماتت كنستانزا ، كانت إينيه عقبة فى سبيل زواج ديبلوماسى آخر لبدرو ، وأمر أفونسو بها فقتلت (١٣٥٥) على مضض . ولقد أورد كاموِنز ، الذى يعد ملتن البرتغالى ، هـــذه القصة الغرامية المشهورة فى ملحمته القومية ، وهى لوزياد :

وهكذا جاءت جماعة القتلة ضد اينيه . . .
وأنفذ الوحوش سيوفهم فى نهديها الأبيضين . . .

وفى سورة غضب صبغوا باللون القرمزى ،
ولن يكون هناك انتقام سماوى بعد ذلك مثله .

واحتفظ بدرو بالرغبة فى الثأر ، حتى إذا ورث العرش بعد عامين من هذا الحادث اقتص من القتلة ، ونبش القبر عن جثمان حبيبته وتوجها ملكة ، ثم أعاد دفنها بما تستحقه من مراسيم ملكية . وحكم بقسوة غذتها هذه المأساة .

وثمة قصة أقل شأناً شوهت حكم خلفه . ذلك أن فرناندو الأول فقد رأسه وقلبه فى سبيل ليونورا ، زوجة أمير بومبيرو ، وفك خطبته لأميرة قشتالية ، وتزوج من ليونورا على الرغم من زوجها الذى على قيد الحياة ومن كنيسة قد أهينت . وبعد أن توفى فرناندو (١٣٨٣) ، ادعت أنها نائبة ملك ، وجعلت ابنتها بياتريز الملكة ، وخطبتها إلى جون الأول ملك قشتالة . وثار الشعب لأنه توقع أن يصبح إقطاعاً تابعاً لقشتالة ، وأعلن مجلس نواب اجتمع فى كوامبرا أن العرش البرتغالى انتخابى واختار دون جنوًا — جون — ابن بدرو من أبيه ملكاً على البرتغال . وأخذت قشتالة على نفسها ، أن توطد ملك بياتريز بالقوة ، فحشد جون جيشاً ، واقترض خمسمائة من حملة السهام من انجلترا ، وهزم القشتاليين فى ألجوباروتا ، وذلك فى الخامس عشر من أغسطس عام ١٣٨٥ — وهو اليوم الذى يحتفل به سنوياً على أنه عيد استقلال البرتغال .

وهكذا افتتح جون الكبير حكمه الذى استمر ثمانى وأربعين سنة ، كما بدأ أسرة — بين افز — التى جلست على العرش قرنين من الزمان . واعترف بالإدارة وأصلح القانون والقضاء ، وجعلت اللغة البرتغالية هى اللغة الرسمية ، وبدأ أدبها فى الظهور . وكان العلماء هنا ، كما كانوا فى أسبانيا ، يستعملون اللغة اللاتينية ، حتى القرن الثامن عشر ، ولكن فاسكو دا لوبيرا كتب باللغة القومية قصة فروسية ، أما ديس دا

جولا (١٤٠٠) التى أصبحت بعد ترجمتها أشيع كتاب غير دينى فى أوربا . وعبر الفن القومى عن نفسه مزدهيا فى كنيسة سانتا ماريا دا فكتوريا ، التى شيدها فى باطلها جون الأول ، تمجيداً لوقعة ألجو باروتا ، وهى تضارع كاتدرائية ميلان فى الحجم ، وكنيسة نوتردام فى باريس ، فى الفخامة المعقدة للركائز والأبراج . وفى عام ١٤٣٦ أضيفت كنيسة صغيرة جميلة التصميم والزخرف تستقبل رفات الملك ابن السفاح » .

ومجد فى بنيه . فخلفه دوارت — إدوارد — وأحسن الحكم مثله تقريباً ووحد بدرو القوانين ، واستهل — هنريك — « هنرى الملاح » الثورة التجارية التى قدر لها أن تغير خريطة الكرة الأرضية . ولما استولى جون الأول على سبته من المغاربة (١٤١٥) خلف هنرى البالغ من العمر إحدى وعشرين سنة حاكماً على هذا المعقل المنيع ، وهى عند مضيق جبل طارق تماماً . وفتنته روايات المسلمين عن تمبكتو والسنغال والذهب والعاج والعبيد التى يمكن الحصول عليها على طول الساحل الغربى لأفريقيا ، فعزم الشاب الطموح على أن يكتشف تلك الربوع ويضمها إلى البرتغال . فربما قاده نهر السنغال الذى تحدث عنه من أخبروه ، صوب الشرق إلى منابع نهر النيل وإلى بلاد الحبشة المسيحية ، وبذلك يُفتتح طريق مائى عبر إفريقيا من المحيط الأطلسى إلى البحر الأحمر — ومن ثم إلى الهند ، ويتحطم الاحتكار التجارى للتجارة مع الشرق ، وتصبح البرتغال دولة كبرى . وقد يدخل سكان الإقليم بعد فتحه فى المسيحية ويحصر الإسلام فى إفريقيا من الشمال ومن الجنوب بدول مسيحية ؛ ويصير البحر الأبيض المتوسط آمناً للملاحة المسيحية . ويبدو أن هنرى لم يفكر فى طريق يدور حول أفريقيا ، ولكن هذا الطريق كان ثمرة جهده .

ولقد أقام حوالى عام ١٤٢٠ فى ساجرس على الطرف الجنوبى الشرقى للبرتغال وأوربا ، داراً لاستخلاص الأخبار المتعلقة بالمعرفة والمغامرة

البحريتين . وجمع ودرس هناك ، هو ومعاونوه ، وفيهم فلكيون ورسامو خرائط من اليهود والمسلمين فى مدى أربعين سنة تقارير الملاحين والرحالة ، وسيروا إلى البحار المحفوفة بالمخاطر ، سفناً خفيفة ، مزودة بالأشرعة والمجاذيف ، ويقوم عليها من ثلاثين إلى ستين رجلا . وكان أحد قباطنة هنرى قد أعاد كشف ماديرة (سنة ١٤١٨) ، التى سبق أن رآها البحارة الجنويون قبل ذلك بسبعين سنة ثم عفّى عليها النسيان ، ولقد طور وقتذاك المستعمرون البرتغاليون مواردها ، وسرعان ما عوضت غلة من السكر وغيره من المنتجات ، نفقات الاستعمار ، وشجعت الحكومة البرتغالية على الاستجابة لمطالب هنرى إلى المال ولاحظ جزر الآزور على خريطة إيطالية رسمت عام ١٣٥١ ، فأرسل جنزالو كابرال للبحث عنها ، وتحقق مرادهـ ما بين عامى ١٤٣٢ — ٤٤ ، ضم هذه الجواهر البحرية ، الواحدة بعد الأخرى إلى التاج البرتغالى .

بيد أن أفريقيا هى التى استهوته أكثر من غيرها . ولقد أبحر البحارة القطلونيون والبرتغاليون ، ما يقرب من تسعمائة ميل على طول الساحل الغربى إلى بوجا دور (١٣٤١ — ٤٦) . ومع ذلك . فإن النتوء الكبير للقارة العظيمة الممتد غربا فى المحيط الأطلسى ، قد ثبط همم البحارة فى الكشف عن الجنوب ، فانسحبوا إلى أوربا متعللين بحكايات عن المواطنين المفزعين ، وعن بحر تشتد كثافة الملح فيه إلى حد لا تستطيع معه أن تشقه أى سفينة ، وعن دلائل تؤكد أن كل مسيحى يجاوز بوجا دور ينقلب إلى زنجى . ولقد رجع القبطان جيليان إلى سامبرس بأعذار مشابهة عام ١٤٣٣ ، فأمره هنرى أن يعيد الكرة ، وطالبه أن يعود ببيان واضح عن الأراضى والبحار جنوبى الرأس المحرم . وأدى هذا التحريض بجيليان إلى أن يصل إلى مسافة تبعد مائة وخمسين ميلا عن بوجادور (١٤٣٥) وأذهله ما رآه من وفرة النبات فى المناطق الاستوائية ، مناقضاً ما قال به أرسطو وبطليموس ، من أن

الصحارى هى التى توجد فقط تحت الشمس المحرقة ، وبعد ذلك بست سنوات أبحر نونوترستاو ، إلى رأس بلانكو ، وعاد إلى موطنه ومعه بعض الزنوج الأشداء ، الذين سرعان ما عمدوا واستعبدوا ، وشغلهم الأمراء الإقطاعيون فى المزارع البرتغالية ، وكانت أول نتيجة هامة لجهود هنرى ، هى افتتاح تجارة الرقيق . وزود الأمير بمعونة مالية جديدة . وأبحرت سفنه لتستكشف وتنصر الأهلين فى الظاهر ، ولتحصل على الذهب والعاج والعبيد فى الواقع . وعاد القبطان لانزاروت عام ١٤٤٤ ومعه مائة وخمسة وستون زنجياً ، وقد شرعوا فى فلاحة أراضى فرقة يسوع المسيح الرهبانية العسكرية . ولقد وصف معاصر برتغالى اقتناص هؤلاء الزنوج بقوله :

كان رجالنا يهتفون ، « القديسة ياجو ، القديس جورج ، البرتغال » . ويسقطون عليهم فيقتلون أو يخطفون كل من تقع عليه أيديهم . وقد تشاهد هناك أمهات يهربن بأطفالهن ، وأزواجاً يفرون بزوجاتهم وكل منهم يبذل — قصاراه للنجاة . يقفز بعضهم فى البحر ، ويرى بعضهم أن يختبئ فى أركان أخصاصهم ، وخبأ البعض أطفالهم تحت الشجيرات . . . حيث كان رجالنا يعثرون عليهم . والله الذى يمنح كل إنسان ما يستحق من جزاء وهب رجالنا آخر الأمر فى ذلك اليوم النصر على أعدائهم : وتعويضاً لهم على ما بذلوه من عناء فى خدمته أخذوا مائة وخمسة وستين بين رجال ونساء وأطفال ، ولم يحسب القتلى فى هذا العدد » .

ولم يأت عام ١٤٤٨ حتى كان قد أحضر إلى البرتغال نيف وتسعمائة عبد ، ويجب أن نضيف أن المسلمين فى شمال أفريقيا قد سبقوا المسيحيين فى نشر تجارة الرقيق ، وكان زعماء الزنوج أنفسهم يبتاعون الرقيق من البرتغاليين فى مقابل الذهب والعاج ، وكان الإنسان سلعة للوحوش الآدمية المفترسة .

ولقد بلغ دينيز دياز عام ١٤٤٥ الجبل الخصب الداخل فى البحر المعروف بالرأس الأخضر ، واكتشف لانزاروت عام ١٤٤٦ مصب نهر السنغال ،

وعثر كادا موستو عام ١٤٥٦ على جزر الرأس الأخضر . وفى هذه السنة مات الأمير هنرى ، ولكن المغامرة استمرت بالحافز الذى منحها إياه وبالغنم الاقتصادى الذى يمولها . وعبر جواو ده سانتارم خط الاستواء (١٤٧١) . ووصل دو يوجو كاو إلى نهر الكونغو (١٤٨٤) ، وأخيراً شق بارثلميو دياز ، بعد نصف قرن من حملة هنرى الأولى ، طريقه وسط العواصف وإغراق السفن ، حتى طاف بأقصى الطرف الجنوبى لأفريقيا (١٤٨٦) . وابتهج عند ما وجد أنه يستطيع بذلك الإبحار شرقا ، فالهند مستقيمة أمامه ، وقد بدت فى قبضته تقريبا ، ولكن رجاله المتعبين أرغموه على العودة ، فندب البحار القاسية التى خلعت قلوب رجاله فأطلق على الطرف الجنوبى لأفريقيا اسم رأس النداب ، ولكن الملك جون الثانى ، رأى الهند بعد الانحناءة أطلق على الموضع اسم رأس الرجاء الصالح .

ولم يعش دياز أو الملك ليريا تحقق الحلم الذى أثار البرتغال بأسرها وهو طريق مائى كامل إلى الهند ، واستشعر الملك عمانويل الغيرة للثروة والتشريف اللذين جلبهما كولمبوس إلى إسبانيا فكلف عام ١٤٩٧ فاسكودا جاما ، أن يبحر حول إفريقيا إلى الهند ، ولقد أبحر القبطان البالغ من العمر ثمانية وعشرين عاما ، وقد أرغمته العواصف أن يتخذ طريقا دائريا ما يقرب من خمسة آلاف ميل فى مائة وسبعة وثلاثين يوما حتى بلغ رأس الرجاء الصالح ، ثم رحل أربعة آلاف وخمسمائة ميل فى مائة وثمانية وسبعين يوما أخرى . تتخللها مئات المخاطر والأهوال حتى بلغ كاليكوت وهى ملتقى رئيسى للتجارة بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب فى آسيا ، وألقى مراسيه هناك فى العشرين من مايو عام ١٤٩٨ ، أى بعد عشرة أشهر واثنى عشر يوما من تركه لشبونه ، وما أن هبط إلى البر حتى قبض عليه باعتباره قرصانا ونجا من الإعدام بأعجوبة . وتغلب بشجاعته النادرة ومنطقه الخلاب على ارتياب الهنود فيه وغيرة المسلمين منه وظفر بالترخيص للبرتغاليين

بالتجارة وأخذ معه مقداراً عظيما من الفافل والزنجبيل والقرفة وجوز الطيب والجواهر وترك كاليكوت فى التاسع والعشرين من أغسطس فى رحلة شاقة استغرقت سنة عائداً إلى لشبونة . وهكذا وجد البرتغاليون آخر الأمر طريقا إلى الهند متحرراً من نقل السلع من سفينة إلى أخرى ومن المكوس المفروضـــة على الطرق البحرية والبرية فى إيطاليا عبر مصر وبلاد العرب وفارس . وكانت النتائج الاقتصادية أكثر حيوية لأوربا مدى قرن كامل من تلك التى نجمت عن اكتشاف أمريكا .

ولم يفكر البرتغاليون إلى عام ١٥٠٠ فى محاولة الإبحار غربا لأنهم اعتزلوا بالوصول إلى الهند الحقيقية ، بينما كان الملاحون الإسبان يتخبطون فى جزر الهند المزعومة بالبحر الكاريبى . بيد أن بدرو كبرال وقع على البرازيل فى تلك السنة بعد أن جرفته الرياح عن الطريق الذى سلكه إلى الهند عن طريق إفريقيا ، وفى هذه السنة أيضا أعاد جاسبار كورت ريال اكتشاف لبرادور . وفى عام ١٥٠٣ اكتشف أمريجو فيسبوتشى فى ظل العلم البرتغالى ريوبلاتا وباراجواى ، وعثر ترستاو داكونها على الجزيرة التى تحمل اسمه فى النصف الجنوبى من المحيط الأطلسى . ومع ذلك فقد رأى السياسيون البرتغاليون ، البرازيل قليلة الغناء فى حين أن كل حمولة تأتى من الهند تملأ خزانة الملك وجيوب التجار والملاحين .

واحتفظت الحكومة البرتغالية بالسيطرة الكاملة على التجارة الجديدة ، ما دامت التجارة تحتاج إلى حماية عسكرية صارمة . وكان التجار المسلمون قد وطدوا أقدامهم منذ أمد طويل فى المراكز الهندية ، وانضم إليهم بعض ذوى النفوذ من الهنود فى مقاومة الغزو البرتغالى ، واختلطت إذ ذاك التجارة بالحرب والمال بالدم فى هذه الثورة التجارية العارمة . وأصبح أفونسو ده ألبوكرك أول حاكم على الهند البرتغالية عام ١٥٠٩ وشن هجوما بعد هجوم على المسلمين والهندوس حتى استولى على عدن وهرمز على الساحل العربى

وحصنهما . كما استولى على جوا فى الهند وملقة فى شبه جزيرة الملايو ، ومن ملقة أحضر إلى بلاده غنيمة مقدارها مليون بندقى . وأصبحت البرتغال بفضل تسلحها على هذا النحو سيدة التجارة الأوربية مع الهند وجزر الهند الشرقية مدى مائة وخمسين سنة . ووطد التجار البرتغاليون أقدامهم شرقاً حتى بلغوا مولوكاس (١٥١٢) وابتهجوا إذ وجدوا جوز الطيب والتوابل والقرنفل فى جزر التوابل هذه ألذ طعماً وأرخص ثمناً منها فى الهند . ولم يقنع البوكرك بما حققه فأبحر ومعه عشرون سفينة إلى البحر الأحمر واقترح على ملك الحبشة المسيحى أن يجمعوا قواتهما ليحفرا قناة من النيل الأعلى إلى البحر الأحمر وبذلك يحولان مجرى النهر ويجعلان مصر الإسلامية بأسرها صحراء قاحلة . وأرغمت المتاعب البوكرك أن يقفل راجعاً إلى جوا حيث مات عام ١٥١٥ . وفى العام التالى فتح دوارت جولهو ، الصين الكوشينية[1] وسيام للتجارة البرتغالية ، وفى عام ١٥١٧ أنشأ فرناو بيرز ده اندراد علاقات تجارية مع كانتون وبيكين .

وأصبحت الإمبراطورية البرتغالية — وهى أول إمبراطورية استعمارية حديثة — أوسع الإمبراطوريات رقعة فى العالم ، لا تضارعها إلا الامبراطورية التى تتكون لأسبانيا فى الأمريكتين . وأضحت لشبونة سوقا تجارية نافقة ، ترسو فى مياهها سفن آتية من بلاد رومانسية بعيدة . ووجد تجار أوربا الشمالية أن تفشل البندقية وجنوة فى الحصول على السلع الآسيوية بأرخص الأسعار . وحزنت إيطاليا على احتكارها المفقود للتجارة الشرقية . وأصيبت النهضة الإيطالية بضربات قاضية على يد كولمبوس وفاسكو دا جاما ولوثر فى جيل واحد ، فضعف أمرها وذبلت ، بينما سبقت البرتغال وأسبانيا ، اللتان سيطرتا على البحار المفتوحة فى الازدهار الدول التى على المحيط الأطلسى .

---

(١) أخص دولة نامية الجنوب فى الهند الصينية الفرنسية .

وانتعش الأدب والفن بهذا المجـد الطريف . وأخذ فرنار لوبس يصف مدى عشرين سنة (١٣٣٤ — ٥٤) « تاريخه » الضخم الذى سرد فيه قصة البرتغال تتدفق فى السرد وقدرة على التشخيص يضارعان ما عند فروسار . واستهل جيل قيسانت الدراما البرتغالية بمسرحيات صغيرة للبلاط وفصول تمثل فى الأعياد العامة (١٥٠٠) وظهرت مدرسة برتغالية فى التصوير ، اتخذت قدوتها فى غلاندرز ولكنها حققت مزاجها ومزاياها الخاصة . وبلغ نوتوجونكالفز شأو مونتانيا وكاد يضارع آل فان ايكس ، فى مجموعة صوره القائمة التى رسمها لدير القديس سانت فنسنت . فإن الصور الجدارية بدائية فى المنظور والنسق ، بيد أن صور الأشخاص الخمسة والخمسين — وأحسنها صورة هنرى الملاح — تبرز الشخصية الفردية ببراعة واقعية . وأراد الملك عمانويل المحدود أن يخلد ذكرى رحلة فاسكودا جاما المظفرة ، فكلف المعمارى جواد القشتالى ، أن يشيد بالقرب من لشبونه ديربلم (١٥٠٠) الفخم على الطراز القوطى المشع . وهكذا دخلت البرتغال فى عصرها الذهبى .

الفصل الثانى عشر

أسبانيا

١٣٠٠ – ١٥١٧

١ – الشهيد الأسبانى : ١٣٠٠ – ١٤٦٩

لقد وجدت أسبانيا فى جبالها وقايتها ومأساتها فى وقت واحد : فقد منحتها أمناً نسبياً من الغزو الخارجى ، ولكنها عوقت تقدمها الاقتصادى ووحدتها السياسية وإسهامها فى الفكر الأوربى . وقد عاش فى ركن صغير من الشمال الغربى شعب نصف بدوى من الباسك وكانوا ينتقلون بأغنامهم من السهول إلى التلال ثم يهبطون إلى السهول مرة أخرى تبعاً لتقلبات الفصول . ومع أن كثيرين من الباسك كانوا رقيق أرض ، إلا أنهم جميعاً زعموا نبل المحتد ، وحكمت ولايتهم الثلاث نفسها تحت السيادة الواهية لقشتالة أو ناقار . وظلت ناقار مملكة قائمة برأسها ، حتى ضم فرديناند الكاثوليكى قسمها الجنوبى إلى قشتالة (١٥٥٥) بينما أصبحت البقية الباقية منها إقطاعاً ملكياً تابعاً لفرنسا . وتملكت أراجون سردينيا منذ عام ١٣٢٦ وتبعتها جزر البليار عام ١٣٥٤ . وصقلية عام ٤٤٠٩ . وزادت ثروة أراجون نفسها بفضل صناعة وتجـارة بلنسية وطركونه وسراقسطة وبرشلونة — وهى عاصمة ولاية قطلونية ضمن مملكة أراجون . وكانت قشتالة أقوى الممالك الأسبانية وأوسعها رقعة . وقد حكمت المدن الآهلة أفيدو وليون وبرجس وبلد الوليد وسلامنكا وقرطبة وإشبلية وطليطلة ،

وهى عاصمتها ، ولعب ملوكها أدوارهم أمام أكبر عدد من النظارة وفى سبيل أعظم المخاطر فى أسبانيا .

وأصلح ألفونسو الحادى عشر (١٣١٢ — ٥٠) قوانين قشتالة ومحاكمها وحول منافسات النبلاء إلى حروب تشن على المسلمين ، وشجع الأدب والفن ، وكافأ نفسه بخليلة نجيبة . ولقد حملت له زوجته ابناً شرعياً واحداً ، نشأ فى ظروف غامضة وإهمال وحقد وأصبح فيما بعد بدرو الغشوم ومن الواضح أن اعتلاءه على العرش ولما يناهز الخامسة عشرة (١٣٥٠) جلب اليأس لأبناء الفونسو التسعة غير الشرعيين ، فقد أقصوا جميعاً عن البلاد ، وأعدمت أمهم ليونورا ده جزمان ، ولما جاءت عروسه الملكية بلانش البوربونية من فرنسا من تلقاء نفسها ، تزوجها وأنفق ليلتين معها ثم أمر أن يدس لها السم متهماً إياها بالتآمر (١٣٦١) وتزوج عشيقته ماريا ده باديلا ، التى تؤكد الأسطورة أن جمالها بلغ من الخلابة حداً ، جعل فرسان البلاط يشربون بنشوة ماء اغتسالها . وكان بدرو محبوباً فى الطبقات الدنيا التى أيدته إلى النهاية المريرة ، ولكن المحاولات المتكررة من اخوته غير الأشقاء لإقصائه عن العرش ، قد دفعته إلى مجموعة من الدسائس والقتل وانتهاك الحرمات ، تقف فى وجه كل حكاية وتلطخها بالدم . واستطاع هنرى الترااستاماری ، أكبر أبناء ليونورا أن ينظم ثورة موفقة ويقتل بدرو بيديه ويصبح هنرى الثانى ملك قشتالة (١٣٦٩) .

ولكننا نظلم الأمم إذا حكمنا عليها من ملوكها ، لأنهم اتفقوا مع مكيافلى فى أن الأخلاق لم تجعل للملوك . وبينما نجد الحكام يتلهون بالقتل الفردى أو المتخذ صفة القومية ، فإن الشعب الذى بلغ عدده عشرة ملايين عام ١٤٥٠ ، هو الذى أنشأ حضارة اسبانيا ، ومع أنهم كانوا يعتزون بنقاء أرومتهم إلا أنهم كانوا مزيجاً غير ثابت من الكلت والفينيقيين والقرطاجنيين والرومان والقوط الغربيين والوندال والعرب والبربر واليهود ، وعند سفح الكيان

الاجتماعي قليل من العبيد ، وطبقة من الفلاحين ظلوا رقيق أرض إلى عام ١٤٧١ ، وفوقهم العمال اليدويون والصناع وتجار المدن ، وفوق أولئك وهؤلاء الفرسان (caballeros) فى طبقات رفيعة من الشرف ، والنبلاء الذين يعتمدون على الملك (أبناء الأسر العريقة bidalgos) والنبلاء المستقلون (proceres) وإلى جانب هؤلاء المدنيين طبقات الكهنوت تبدأ من قساوسة الأبروشيات فالأساقفة ورؤساء الأديرة وتنتهى برؤساء الأساقفة والكرادلة . ولكل مدينة مجلسها البلدى (conseijo) وهى ترسل مندوبين عنها ، ينضمون إلى النبلاء والمطارنة فى المجالس الإقليمية والقومية ، والأصل النظرى أن مراسيم الملوك تتطلب موافقة هذه المجالس لتصبح قوانين . ونظمت الأجور وشروط العمل والأسعار ومعدل الفائدة على الأموال ، المجالس البلدية أو النقابات . وتعثرت التجارة بسبب الاحتكارات الملكية وبالمكوس الحكومية التى تفرضها الدولة أو الأقاليم على الواردات والصادرات وتنوع الموازين والمقاييس وبالعملات المتدهورة وقطاع الطرق وقرصان البحر الأبيض المتوسط ورفض رجال الدين للحساب واضطهاد المسلمين — الذين غدوا معظم الصناعة والتجارة بالقوة البشرية — واليهود ، الذين كانوا يدبرون شئون المال . وافتتح مصرف حكومى فى برشلونة (١٤٠١) بضمان حكومى لودائع المصرف ، وصدرت صكوك للتعامل ، وأنشئ تأمين بحرى قرابة عام ١٤٣٥ .

ولما كان الإسبان يجمعون فى أرومتهم بين الأصول السامية والأصول المناهضة للسامية ، لذلك احتفظوا بحرارة إفريقيا فى دمائهم ، وكانوا يميلون مثلهم فى ذلك مثل البربر ، إلى الوداعة والعنف فى القول والعمل فيهم سورة وفى عقولهم تطلع وفضول ، وهم جد أغرار ويؤمنون بالخرافة إلى حد مخيف واحتفظوا باستقلال للروح وكرامة للشجاعة حتى فى النكبات والفقر . كانوا يحبون اقتناء المال ولقد فطروا على ذلك ، ولكنهم لم يحتقروا الفقراء ولم

يلعقوا نعال الأغنياء . واحتقروا العمل وتقاعسوا عنه ، بيد أنهم احتملوا الشدائد برباطة جأش ، كانوا كسالى ومع ذلك غزوا نصف العالم الجديد . وظمئوا إلى المغامرة والعظمة والفروسية ، وكانوا يستمتعون بالمخاطر ولوكانت بالتفويض فحسب ، فإن مصارعة الثيران ، وهى من آثار كريت وروما كانت قد أصبحت لعبة قومية تقليدية رسمية زاخرة بالألوان محكمة ، تعلم الشجاعة والبراعة الفنية وسرعة الخاطر . ولكن الإسبان تناولوا مباهجهم بشىء من الكآبة ، وهم يشبهون الإنجليز المحدثين (وعلى خلاف إنجليز عصر اليزابث) . ولقد أضفى جدب التربة وظلال المنحدرات الجبلية على نفوسهم كآبة جارفة ، وكانت أخلاقهم جادة مستقيمة كاملة وهى أحسن كثيراً من المحافظة على صحة أبدانهم ، وكان كل إسبانى مهذباً ، بيد أن القليلين منهم كانوا مفتولى الأجسام ، وازدهرت صور ألعاب من الفروسية وسط القاذورات التى اكتنفت الجماهير . وأصبحت مسألة الشرف عقيدة ، وكانت النساء فى إسبانيا ربات وسجينات أما زى الطبقات العليا فكان بسيطا فى أيام الأسبوع ويتحول إلى الأبهة أيام الآحاد والأعياد بالحرير الزاهى والقباء المكشكش والملون المخرم والذهب . وكلف الرجال بالعطور والكعوب العالية . ولم يقنع النساء بفتنتهن الطبيعية فخلبن ألباب الرجال بالمنيقة والمخرمات والخمار يخفى وجوههن واتخذت المطاردة الجنسية آلاف الأشكال وتنكرت فى آلاف الصور ، وجاهدت صنوف الإرهاب الدينى والقوانين الصارمة ومسائل الشرف ، فى الحد من تلك المطاردة ولكن فينوس انتصرت على الجميع ، وزادت خصوبة النساء على غلة الأرض .

وكانت الكنيسة فى إسبانيا حليفا لا ينفصل عن الدولة ، ولم تدخل بابا روما فى حسابها إلا قليلا ، وتقدمت بمطالب كثيرة لإصلاح البابوية حتى عنـــد ما أعطتها اسكندر السادس الذى لا يعترف بالإصلاح ، وفى سنة ١٥١٣ حرم الكاردينال اكزيمينس نشر صكوك الغفران التى قدمها

يوليوس الثانى فى إسبانيا لإعادة بناء كنيسة القديس بطرس ، ونتج عن ذلك أن عد الملك رئيسا للكنيسة الإسبانية ، ولم ينتظر فرديناند فى هذا الشأن ، هنرى الثامن ليعلمه ، ولم تكن إسبانيا فى حاجة إلى إصلاح دينى يجعل الكنيسة والدولة أو الدين والقومية شيئا واحداً ، وحصلت الكنيسة على امتيازات مادية كجزء من هذا الاتفاق غير المكتوب فى ظل دولة تعتمد عليها اعتماداً واعيا فى توطيد النظام الأخلاقى والاستقرار الاجتماعى والعمل على قياد الشعب لها . ولم يكن موظفوها ، حتى الطبقات الدنيا منهم ، يخضعون إلا للمحاكم الكهنوتية . وامتلكت مساحات كبيرة من الأرض ، يفلحها مستأجرون لها ، وكانت تتسلم عشر غلة العقارات الأخرى ، ولكنها كانت تدفع ثلث هذا العشر للخزانة ، ولقد أعفيت من الضرائب علاوة على ذلك . ولعلها كانت أغنى إذا قيست إلى الدولة منها فى أى بلد آخر باستثناء إيطاليا . ومن الواضح أن أخلاق الإكليروس ونظام الأديرة ، كانت فوق مستوى القرون الوسطى ، بيد أن اتخاذ الخطايا قد شاع وسمح به كما حدث فى غير إسبانيا واستمر الزهد فى إسبانيا بينما أخذ ينقرض شمالى جبال البرانس ؛ بل إن العشاق كانوا يجلدون أنفسهم ليذيبوا مقاومة ما فى السيدات من حنان وخفر أو ليحصلوا على شىء من الوجد الماسوشى[1] .

وكان الناس على ولاء شديد للكنيسة والملك ، لأن عليهم أن ينتظموا لمحاربة أعدائهم الألداء المسلمين بشجاعة ونجاح ، ولقد عرض الصراع لتخليص غرناطة على أنه حرب فى سبيل العقيدة المقدسة ، فسارت مواكب حاشدة من الرجال والنساء والأطفال ، الأغنياء منهم والفقراء ، أيام الأعياد فى الطرقات صامتين فى حزن أو مرددين الأناشيد ، وأمامهم تماثيل كبيرة تجسم العذراء أو أحد القديسين . واعتقدوا اعتقاداً راسخاً بأن العالم الروحى هو بيتهم الحقيقية وموطنهم الأبدى . والحياة الدنيا إلى جانبه

(١) الماسوشية ضرب من الانحراف الجنسى يقوم على إيلام البدن .

إنما هى شر وحلم مؤقت . وكرهوا المراطقة باعتبارهم خائنين للوحدة والمبدأ القوميين ، ولا اعتراض لهم على إحراقهم ، وهـذا هو أقل ما يستطيعون أن يبذلوه من أجل إلههم الذى انتهكت حرمته ولم تنعم الطبقات الدنيا بشيء من التعليم المدرسى إلا قليلا وهو دينى فحسب . ولما وجد كورتز القوى بين المكسيكيين الوثنيين ، شعيرة تشبه القربان المسيحى — شك بأن الشيطان هو الذى علمهم إياها لكى يضلل الفاتحين .

وشجع على قوة انتشار الكاثوليكية فى أسبانيا تلك المنافسة الاقتصادية بين الأسبان وبين المسلمين واليهود ، الذين كانوا يؤلفون عشر عـدد السكان فى أسبانيا المسيحية . ومن الأمور السيئة فى نظرهم أن يحتل المسلمون غرناطه الخصيبة ، وأكثر من هذا مضايقة لهم أولئك المدجنون — أى المسلمين الذين لم يتنصروا ، الذين عاشوا بين الأسبان المسيحيين والذين أدت براعتهم فى التجارة والحرف إلى حسد شعب تستعبده الأرض استعباداً بدائياً . أما الأسبان اليهود فلم يصفح عنهم قط . ولقد اضطهدتهم أسبانيا المسيحية مدى ألف سنة : فقد أخضعوهم لضرائب مهنية وقروض مغتصبة ولمصادرة الأموال والاغتيال والتعميد الإجبارى ، وأرغموهم على الاستماع إلى العظات المسيحية ؛ وحرضوهم حتى فى معابدهم أحياناً على التنصر ، بينما جعل القانون تهود المسيحى جريمة عقوبتها الإعدام . ودعوا أو ألزموا على الاشتراك فى مناظرات مع علماء الدين المسيحى ، وهم فيها بين اثنتين إما أن تحيق بهم هزيمة فاضحة أو يحصلون على انتصار محفوف بالمكاره . وأمروا هم والموديجار عدة مرات أن يرتدوا شارة مميزة ، وكانت فى العادة دائرة حمراء توضع على الكتف فى أرديتهم وحرم على اليهود أن يستأجروا خادماً مسيحياً ، ولم يسمح لأطبائهم أن يعالجوا المرضى المسيحيين ، ورجالهم الذين يعاشرون امرأة مسيحية يقتلون .

ولقد حرض راهب فرنسسكانى عام ١٣٢٨ فى عظاته بمدينة ستلا من

أعمال ناڤار ، المسيحيين أن يعملوا القتل فى خمسة آلاف يهودى وأن يحرقوا منازلهم ، وفى عام ١٣٩١ أثارت عظات فرنان مارتينيز الجماهير فى كل مركز كبير بأسبانيا ، أن يقتلوا كل من يجدونه من اليهود الذين يرفضون التحول إلى المسيحية . وفى سنة ١٤١٠ تحركت بلد الوليد وغيرها من المدن ببلاغة فيسنت فرر الذى يشبه القديس المتعصب ، فأمرت أن يحصر اليهود والمسلمون أنفسهم فى أحياء معينة — جوديريا أو الباما — تغلق أبوابها من غروب الشمس إلى شروقها وربما كانت هذه العزلة من أجل حمايتهم .

واستغل اليهود كل فرصة للتطور بما اتسموا به من الصبر والعمل والذكاء فتكاثروا وازدهرت أحوالهم حتى تحت وطأة هذه العوائق . وأحب بعض ملوك قشتالة ، أمثال الفونسو الحادى عشر وبدرو الغشوم ، اليهود وعينوا النابهين منهم فى المناصب الحكومية الرفيعة . وجعل الفونسو دون يوسف الأسيجى وزيراً لماليته ، واختار يهودياً آخر هو يوسف ابن وقار طبيباً خاصاً له ، فأساءا استعمال منصبيهما ، واتهما بالتآمر فسجنا وماتا فى السجن . وتكررت الحادثة مع صمويل يوسف أبى لافيسه فقد عين قواما على خزانة الدولة فى عهد بدرو ؛ فجمع ثروة طائلة ؛ فحكم الملك بقتله . وكان صمويل قد شيد قبل ذلك بثلاثة أعوام (١٣٥٧) فى مدينة طليطلة معبداً يهودياً جميلا على بساطته ، على الطراز التقليدى ، وهو الذى حوله فرديناند إلى الكنيسة المسيحية « الترنسيتو » وتحافظ الحكومة عليها اليوم باعتبارها أثراً من الآثار العبرية — الإسلامية فى أسبانيا وكانت حماية بدرو لليهود من سوء طالعهم ، ذلك لأن هنرى أمير تراستامارا — عندما عزله عن الملك ، أعمل الجنود المنتصرون السيف فى ألف ومائتى يهودى (طليطلة ١٣٥٣) ، وتبعت ذلك مذابح أسوأ ، عندما أحضر هنرى

إلى اسبانيا « الصحاب الأحرار » ، الذين جمعهم دى جيكلان من أوشاب فرنسا . .

وآثر آلاف من اليهود الأسبان التعميد على الفزع من النهب والقتل ، فلما أصبحوا مسيحيين من الناحية الشرعية استطاع هؤلاء المتنصرون أن يرقوا سلم الحياة الاقتصادية والسياسية ، وفى المهن بل وفى الكنيسة ذاتها وأصبح بعضهم من كبار رجال الكهنوت وآخرون من مستشارى الملوك . وأكسبتهم مواهبهم المالية نجاحاً يثير الحسد ، فى جمع الدخل القومى وتدبيره . وأحاط بعضهم نفسه بمظاهر الشرف الأرستقراطى ، وجعل بعضهم نجاحه عدوانياً واضحاً ، ووصم الكاثوليك الغضاب ، هؤلاء المتنصرين بهذا الاسم الفظيع « حلوف العرب المورسكو » (marranos) ومع ذلك فإن الأسر المسيحية التى كانت عراقة نسبها أكثر من مالها ، أو التى كانت تحترم القدرة من الناحية العملية ، قبلت الإصهار إليهم . وبهذه الطريقة ساط الشعب الأسبانى وبخاصة طبقاته العليا ، الدم اليهودى بصورة مادية ملموسة . وكان لفرديناند الكاثوليكى وتوركيمادا قاضى محكمة التفتيش أسلاف من اليهود . وأطلق البابا بول الرابع على خصمه الذى يحاربه فيليب الثانى ، وعلى الأسبان « أنهم بذرة لا قيمة لها من اليهود والمسلمين » .

٢ ـ غرناطه (١٣٠٠ ـ ١٤٩٢)

وصف ابن بطوطة موقع غرناطة على أنه لا يضارعه موقع مدينة أخرى فى العالم . . . وحولها من كل جانب بساتين وحدائق ومراعى مزهرة وكروم ، وفيها مبانى جليلة . واسمها العربى غرناطه ــ ومعناه غير محقق ؟ ونصرها الفاتحون الأسبان وجعلوه (جراناداً Granada) ومعناه الممتلىء بالحبوب ــ ولعله مأخوذ من شجرة الرمان التى تكثر فيما جاورها . ولم يطلق الاسم على المدينة فقط ، وإنما أطلق على إقليم يضم شريش وجيان

والمربة ومالقا وغيرها من المدن ، ويبلغ عدد سكانه نحوا من أربعة ملايين نسمة . ونهضت العاصمة ، التى كانت تضم عشر هؤلاء السكان مثل « برج المراقبة » إلى قمة تسيطر على واد رائع ، يكافئ العناية بالرى والزراعة على أساس علمى بمحصولين فى السنة . وقام على حراسة المدينة من أعدائها المحيطين بها سور عليه ألف برج . واتخذت الأرستقراطية قصوراً رحبة جميلة التصميم ، ورطبت نوافير المياه فى الميادين العامة سعير الشمس ، وعقد السلطان أو الأمير أو الخليفة بلاطه فى أبهاء الحمراء الرحبة .

وكانت الحكومة تأخذ سبع غلة الأرض كلها ، وربما أخذت الطبقة الحاكمة مقداراً مماثلا كنفقات للإدارة الاقتصادية والقيادةالعسكرية ، ووزع الحكام والنبلاء بعض مواردهم على الفنانين والشعراء والدارسين والعلماء والمؤرخين والفلاسفة ، وتولوا جامعة سمح فيها لعلماء المسيحيين واليهود أن يكونوا أساتذة وعمداء أحياناً . ونقش على أبواب الكلية خمسة أسطر : « دعائم الدنيا أربعة : علم الحكماء ، وعدالة العظاء ، وصلوات الأبرار ، وأقدام الشجعان » . وأسهم النساء فى الحياة الثقافية بحرية ، ونحن نعرف أسماء بعض العالمات فى غرناطة الإسلامية . ولم يمنع التعليم السيدات مع ذلك ، من تحريض رجالهم ، لا على العواطف العارمة بل على حب الفروسية ومبارزاتها . وقال أحد ظرفاء العصر : « يميز النساء بدقة ملامحهن ورشاقة أجسامهن وطول شعورهن وتموجها ، وبياض أسنانهن ، وخفة حركاتهن التى تسر الناظرين . . . وسحر حديثهن ، وعطر أنفاسهن » وكانت النظافة الشخصية ورعاية الصحة العامة أكثر تقدماً منها فى العالم المسيحى المعاصر . وكانت الأزياء والأخلاق رائعة وزينت المباريات الفروسية أو المهرجانات أيام الأعياد . والأخلاقيات سهلة ، ولم تكن أعمال العنف نادرة بيد أن الكرم والشرف الإسلاميين اكتسبا مدح المسيحيين . فقد قال مؤرخ اسبانى : « لقد اشتهر سكان غرناطة بأنهم أهل

للثقة ، إلى حد أن كلمتهم كان يعتمد عليها أكثر من اعتمادنا على عقد مكتوب » . وبين هذه التطورات العظيمة اعتصر الترف النامى قوة الأمة ودعا التفكك الداخلى إلى الغزو الخارجى .

وما أن دعمت اسبانيا المسيحية ببطء ممالكها وزادت فى ثرواتها حتى نظرت بعين العداوة الحسود إلى تلك الإمارة المزدهرة المحاصرة التى تحدت ديانتها المسيحية بأنها شرك كفور والتى قدمت ثغورها ، منافذ خطيرة لدولة من الكفار يضاف إلى ذلك أن تلك الحقول الأندلسية الخصبة قد تعوض كثيراً من فدادين الأرض القاحلة فى الشمال . ولم تحتفظ غرناطة بحريتها ، إلا لأن أسـبانيا الكاثوليكية ، قد انقسمت إلى مذاهب وملوك . بل إن الإمارة المعتزة بنفسها وافقت (١٤٥٧) على دفع جزية سنوية إلى قشتالة . ولما أبى أمير مغامر هو على أبو الحسن أن يستمر على دفع رشوة السلام هذه (١٤٦٦) لم يجبره هنرى الرابع على الدخول فى الطاعة لأنه كان منغمساً فى ملذاته . بيد أن فرديناند وإزابيلا سرعان ما أرسلا الوفود بعد اعتلائهما العرش مطالبة بمواصلة دفع الجزية . فأجاب الأمير على بجرأة مهلكة : « قولوا لملوككم إن ملوك غرناطة الذين دفعوا الجزية قد ماتوا وإن سكتنا التى نتعامل بها الآن ليست سوى حداً لسيوف » . ولم يعلم أبو الحسن بأن فرديناند أقوى منه سلاحاً وادعى السخط على غزوات المسيحيين على الحدود فباغت الثغر المسيحى الزهراء واستولى عليها ، وساق أهلها جميعاً إلى غرناطة ليبيعهم بيع العبيـد (١٤٨١) فثأر مركيز فارس بنهب المعقل الإسلامى المنيع الحامة (١٤٨٢) وهكذا بدأ فتح غرناطة .

وعمل الحب على تعقيد الحرب . فقد فتن أبو الحسن بإحدى جواريه حتى أن زوجته السلطانة عائشة أثارت الشعب لخلعه عن العرش وتتويج ابنها أبى عبد الله ، الذى عرفه الغربيون باسم (Boabdil) (١٤٨٢) ففر

أبو الحسن إلى مالقة وسار جيش اسبانى لمحاصرة هذه المدينة ، وأبيد كله تقريباً فى ممرات سلسلة جبال أجاركيه ، على يد فرق لا تزال موالية للأمير المخلوع ، وثارت غيرة أبى عبد الله على انتصارات أبيه العسكرية فسار على رأس جيش من غرناطة لمهاجمة قوة مسيحية بالقرب من الأشانة وحارب بشجاعة ، ولكنه هزم وأخذ أسيراً . واشترى خلاصه بأن وعد بمساعدة المسيحيين ضد أبيه . وبأن يدفع للحكومة الأسبانية اثنى عشر ألف دوكات كل سنة . وفى الوقت نفسه نصب عمه أبو عبد الله المشهور بلقب عز زغرل « أى الشجاع » نفسه أميرا على غرناطة ، ونشبت حرب أهلية ثلاثية بين الأب والابن والعم على العرش الغرناطى ، ومات الأب واستولى الابن على الحمراء ، وانسحب العم إلى وادى آش **Guadix** حيث حاول مراراً أن يهاجم الأسبان كلما وجدهم وأراد أبو عبد الله أن يقلد عمه فامتنع عن الوفاء بوعده ودفع الجزية وأعد عاصمته لمقاومة الهجوم الذى لا مفر منه .

فوزع فرديناند وايزابلا ثلاثين ألف رجل على الحقول التى تمد غرناطة بالغذاء ليكتسحوها . فأتلفت الطواحين ومخازن الغلال ودور الفلاحين والكروم وغياض الزيتون والبرتقال ، وحوصرت مالقة ليمنعوها من تلقى المؤن إلى غرناطة أو إرسالها وصمدت مالقة للحصار حتى أكل سكانها كل ما تقع عليه أيديهم من الخيل والكلاب والقطط ، وكانوا يموتون بالمئات من الجوع أو المرض . وأرغمها فرديناند على أن تسلم بلا قيد ولا شرط ، واستعبد الاثنى عشر ألف الذين بقوا من سكانها ، ولكنه سمح للأغنياء منهم بأن يفتدوا أنفسهم بتسليم كل ما يملكونه . واستسلم عز زغرل وأصبح إقليم غرناطة بأسره خارج العاصمة فى أيدى المسيحيين .

وشيد الملكان الكاثوليكيان ، فسطاطاً كاملا لجندهم ، حول القلعة المحاصرة وأطلقوا عليها اسم سانتافيه ، وانتظروا أن يموت أهلوها جوعاً ،

ليجعلا مفخرة الأندلس تحت رحمتهما . وخرج الفرسان المسلمون من غرناطة ، يطلبون مبارزة فرسان الإسبان فرداً لفرد ، واستجاب هؤلاء بعزم مماثل ، بيد أن فرديناند لما رأى أن خير المحاربين من رجاله يقتلون واحداً بعد واحد ، على أساس خطة الفروسية هذه ، وضع حداً لتلك المبارزة ، وقاد أبو عبد الله قواته فى هجوم يائس ، ولكنهم ردوا على أعقابهم وأنفذت الرسائل تطلب العون من سلطان تركيا ومصر ، ولم يتلقوا شيئا ، فقد كان العالم الإسلامى منقسما على نفسه كالعالم المسيحى .

ولم يجد أبو عبد الله بدأً من توقيع شروط التسليم التى أسبغت شرفا نادراً على الفاتحين . ذلك لأنه سمح لأهل غرناطة أن يحتفظوا بمالهم ولغتهم وزيهم ودينهم وشعائرهم ، ولهم أن يحتكموا إلى شريعتهم وقضاتهم ولا تفرض عليهم ضرائب إلا بعد ثلاث سنوات ، وعند ذلك يؤخذ منهم ما كان يجبيه الحكام المسلمون ، وكان على المدينة أن تفتح أبوابها لاحتلال الإسبان ، وللمسلمين حق الهجرة من المدينة إذا شاءوا ، ويجب أن توفر وسائل المواصلات لمن يرغب فى العبور إلى إفريقية الإسلامية .

ومع ذلك فقد احتج أهل غرناطة على استسلام أبى عبد الله . وتهددته الثورة حتى دفع بمفاتيح المدينة إلى فرديناند (٢ يناير ١٤٩٢) وركب مع أقاربه وفرسانه الخمسين ، وسط صفوف المسيحيين ، إلى إمارته الجبلية الصغيرة التى كان عليه أن يحكمها تابعا لقشتالة ، ومن فوق الصخور الشماء التى عبر عليها ألقى نظرة أخيرة على المدينة الرائعة التى فقدها ، ولا تزال هذه القنة تسمى آخر زفرة للعربى El Ulxtimo Sospiro del Moro وأنبته أمه على بكائه قائلة « ابك كالنساء ملكا لم تحافظ عليه كالرجال » .

ودخل فى الوقت نفسه الجيش الإسبانى بالمدينة . ورفع الكاردينال مندوزا صليبا فضيا عظيما فوق الحمراء ، وركع فرديناند وايزابلا فى ساحة

المدينة شكراً لله الذى أخرج الإسلام من إسبانيا بعد إحدى وثمانين وسبعمائة سنة .

٣ – فرديناند وايزابلا

يعد القرن الذى يقع بين موت هنرى أمير ترستمارا (١٣٧٩) ، واعتلاء فرديناند لعرش أراجون ، فترة ركود لإسبانيا . فقد تعاقبت مجموعة من الحكام الضعفاء وسمحوا للنبلاء بأن يعيثوا فى الأرض فساداً بتنازعهم ، وكانت الحكومة مهملة فاسدة ، ولم يكن هناك رادع للثأر الشخصى ، وكثرت الحروب الأهلية إلى حد أن الطرق لم تكن آمنة للتجارة ، وكثيراً ما احتلت الجيوش الحقول ، حتى اضطر الفلاحون إلى تركها جرداء . ولقد حكم جون الثانى القشتالى فترة طويلة (١٤٠٦ – ٥٤) وكان كلفه بالموسيقى والشعر قد جعله لا يعنى بشئون الدولة ، وتبعه تملك هنرى الرابع الوبيل ، وهو الذى اكتسب لقب انريك العقيم بعدم كفايته الإدارية وعبثه بالعملة وبعثرة الموارد على المقربين الطفيليين . وأوصى بعرشه إلى جوانا ، التى ادعى أنها ابنته ، وأنكر النبلاء الغضاب أبوته وقدرته على الإنجاب ، وأجبروه على أن يستخلف أخته إيزابلا ولكنه أعاد تأكيد بنوة جوانا وحقها فى الحكم عند ما جاءته الوفاة (١٤٧٤) ومن هذا الاضطراب المعطل للمرافق ، صاغ فرديناند وإيزابلا النظام والحكم اللذين جعلا اسبانيا أقوى دولة فى أوربا مدى قرن من الزمان .

ومهد السفراء لتحقيق ذلك بإقناع إيزابلا ، وهى فى الثامنة عشرة من عمرها أن تتزوج ابن عمها فرديناند ، البالغ من العمر سبع عشرة سنة فقط (١٤٦٩) وكان العروسان معا من نسل هنرى أمير ترستامارا ، وكان فرديناند قد أصبح بالفعل ملكا على صقلية ، وإذا مات أبوه يصبح ملكا على أراجون أيضا ، فجمع الزواج لذلك ثلاث دول فى مملكة قوية واحدة ،

وامتنع بول الثانى من إعطاء الوثيقة البابوية المطلوبة لتجعل زواج أبناء الأعمام شرعيا ، وزيفت الوثيقة المنشودة على يد فرديناند وأبيه وكبير أساقفة برشلونة ، وبعد أن تم هذا الصنيع صدرت وثيقة أصيلة عن البابا سكتوس الرابع ، وبقيت صعوبة مادية أكبر هى فقر العروس ، الذى أبى أخوها أن يعترف بالزواج ، وفقر العريس الذى أنهمك أبوه فى الحرب ، انهما كا يجعله لا يستطيع إقامة حفل ملكى ، ويسر محام يهودى طريق السياسة الخالصة ، بأن قدم قرضا مقداره عشرون ألف سولدس سددتها إيزابلا عند ما أصبحت ملكة على قشتالة[1] (١٤٧٤) .

وتحدى حقها فى اعتلاء العرش افرنسو الخامس ملك البرتغال الذى تزوج من جوانا . وحددت الحرب فى تورو النتيجة إذ قاد فرديناند القشتاليين إلى النصر (١٤٧٦) وبعد ذلك بثلاث سنوات ورث عرش أراجون وهكذا أصبحت إسبانيابأ سرها ما عدا غرناطة وناڤار فى ظل حكومة واحدة . وظلت ايزابلا ملكة على قشتالة فقط ، وحكم فرديناند أراجون وسردينيا وصقلية وشارك فى حكم قشتالة واحتفظ لإيزابلا بالإدارة الداخلية لقشتالة ، ولكن المواثيق والمراسيم الملكية كانت توقع منهما معا ، وحملت العملة الجديدة رأسيهما معا . وجعلت صفاتهما الحميدة فرديناند وايزابلا أكثر زوجين ملكيين تأثيرا فى التاريخ .

---

(١) كانت وحدة العملة القشتالية فى القرن الخامس عشر هى المارافيدى النحاسية وكل ١٨٠٧ من هذه العملة تساوى سويلد وآراجونى ، وكل ٢٤ تصبح ريالا فضيا و ٣٧٤ تصبح اكسكود وأودوكات ذهبية وأن تغير سعر هذه العملات يجعل من الصعب أن نفترض المكافئة لها من العملة الحديثة . ولكن لما كان أجر العامل فى اسبانيا إبان القرن الخامس عشر نحوا من ستة مارافيدى يوميا ، فلن تكون مبالغين إذا جعلنا المارافيدى يعادل ٧٦ ٪ من الدولار فى عملة الولايات المتحدة عام ١٩٢٤ والسويلد ويعادل ١٫٢٠ دولار والريال يعادل ٢٫٢٨ دولار والاسكودويعادل ٢٥ دولار .

وكانت ايزابلا ذات جمال لا يعادله جمال ، هكذا قال رجال حاشيتها أى انها كان لها نصيب من الجمال ، كانت متوسطة القوام ، ذات عينين زرقاوين وشعر كستنائى يميل إلى الحمرة . ونالت من التعليم حظا أكبر من فرديناند ، وكانت أقل منه ذكاء وأرق حاشية . وكانت تستطيع أن ترعى الشعراء وأن تتحدث إلى الفلاسفة الحذرين ، ولكنها آثرت صحبة القساوسة . واختارت أكثر الأخلاقيين تزمتا ليكونوا أصحاب هدايتها واعترافها . ومع أنها زفت إلى زوج غير أمين فيبدو أنها حافظت على العهود الزوجية الكاملة إلى النهاية ، وعاشت فى عصر مائع كعصرنا إلا أنها كانت نموذجا للخفر . وظلت وسط الموظفين الفاسدين والسفراء المنحرفين صريحة مستقيمة لا يتطرق إليها الفساد . ولقد ربتها أمها على الصرامة فى اتباع السنة والتقوى ، وتوسعت ايزابلا فيهما إلى حد التقشف ، وكانت شديدة قاسية فى القضاء على الهرطقة بمقدار ما كانت رحيمة كريمة فى كل أمر آخر . وكانت الرقة نفسها بالنسبة لأطفالها ، وسند الوفاء لأصدقائها . وبذلت وأعطت فى سعة للكنائس والأديرة والمستشفيات . ولم تمنعها أرثوذكسيتها من اتهام بعض بابوات عصر النهضة بالخروج على الأخلاق . وتفوقت فى كل من الشجاعة المادية والمعنوية ، ولقد صمدت للنبلاء الأقوياء وأخضعتهم ونظمتهم واحتملت بهدوء أقصى ضروب الحرمان . وواجهت بشجاعة تنتقل منها إلى غيرها أهوال الحرب وأخطارها . ورأت أن من الحكمة أن تحرص على مظهر الملكة أمام الشعب وغالت فى المظاهر الملكية إلى حد البذخ فى الحلل والحلى ، أما فى حياتها الخاصة فقد كانت بسيطة الثياب ، معتدلة فى طعامها وتزجى فراغها بالتطريز الدقيق للكنائس التى تؤثرها . وعملت بضمير حى فى القيام بشئون الحكومة وأخذت على عاتقها المبادأة فى الإصلاحات الرشيدة ونهضت بالقضاء وربما كانت فى ذلك صارمة أكثر من اللازم ، ولكنها صممت على أن ترفع مملكتها من

الاضطراب الذى لا يعــرف قانونا إلى سلم يعتصم بالقانون ووضعها المعاصرون الأجانب أمثال باولو جيوفيو وجويشياردين والفارس بايار ، بين أقدر ملوك العصر ، وشبهوها بالبطلات العظيمات فى التاريخ القديم . وقدسها رعاياها ، بينما احتملوا الملك بصبر نافذ .

ولم يستطع أهل قشتالة أن يغتفروا لفرديناند أنه دخيل عليهم — أى أرجونى ورأوا فيه نقائص كثيرة حتى وهم يمجدون انتصاراته باعتباره رجل دولة وسياسيا ومحاربا ووازانوا بين مزاجه الفاتر المتحفظ وبين حرارة الملكة فى عطفه ، وبين انطوائه الحذر وبين صراحتها المستقيمة ، بين تقتيره وكرمها ، بين كزازته فى معاملة معاونيه وبين انبساط يدها بالمكافأة على ما يقدم لها من خدمات ، بين صبواته وبين قناعتها الهادئة ، ولم ينكروا عليه إنشاءه لمحاكم التفتيش ولا استغلاله لعواطفهم الدينية كسلاح من أسلحة الحرب ؛ فقد استحسنوا حملته على الهرطقة وفتحه غرناطة وطرده اليهود والمسلمين الذين لم يتنصروا ، وكان أكثر ما يحبون فيه أقل ما يعجب به الخلف . فلم نسمع احتجاجاً على صرامة قوانينه — قطع اللسان على السب والإحراق حياً على اللواط ولاحظوا أنه يجنح إلى العدالة بل إلى التساهل ، إذا لم يمنع ذلك امتيازاً شخصياً أو يعطل سياسة قومية وأنه يستطيع أن يقود جيشه بشجاعة وبراعة ، وإن آثر مساجلة العقول بالمفاوضة أكثر من منازلة الإنسان فى الحرب وأن بخله لم يكن للإنفاق على أسباب الترف الشخصى ولا بد أنهم تثبتوا من عاداته التى تؤثر الاعتدال ورباطة جأشه فى الملمات ، واتزانه عند النجاح ، واختياره الرشيد لمعاونيه ، وجهده المبذول بلا كلل على شئون الحكومة وشعبه وراء أهداف بعيدة بكياسة مملة ووسائل حذرة . واغتفروا له الظهور بوجهين باعتباره سياسيا وكثرة حنثه بوعده ، ألم يحاول جميع الحكام غيره بوسائل مماثلة أن يدعوا قرابتهم له ويحتالوا على إسبانيا ؟ ولقد قال متجهما « إن ملك فرنسا يشكو أننى خدعته مرتين . إنه يكذب ، ذلك الغبى لقد

خدعته أكثر من عشر مرات » . ودرس مكيافلي بعناية سيرة فرديناند وأفاد من دهائه ومدح أعماله . . . . بأنها كلها عظيمة وبعضها صادق . ووصفه بأنه أفضل ملك في العالم المسيحي . وكتب جويكشيارديني « ما أعظم الفرق بين أقوال هذا الأمير وأفعاله ، وكيف يضع خططه في عمق وتكتم » . ورأى البعض أنه مجـــدود . ولكن الحق أن حظه الموفق إنما كان في تدابيره للأحداث بعناية وانتهازه للفرص السانحة وإذا أحكم التوازن بين فضائله وجرائمه ، فإنه يبدو أنه دفع إسبانيا بوسائل شريفة وأخرى دنيئة ، من أجزاء متناثرة عقيمة متعددة الألوان ، إلى وحدة وقوة جعلتاها في الجيل التالي المسيطرة وحدها على أوربا .

ولقد تعاون فرديناند مع إيزابلا على إعادة الاستقرار للأنفس والأموال في قشتالة ، وفي بعث السانتا هرماندادا أو الآخرة المقدسة لتكون حرسا أهليا محليا لتحافظ على النظام ، وفي إنهاء السطو في الطرق العمومية والدسائس الجنسية في البلاط ، وفي إعادة تنظيم المحاكم وتوحيد القوانين ، وفي استرداد أراضي الحكومة التي سلمها الملوك السابقون بغير اكتراث إلى المقربين ، وفي أخذ النبلاء بالطاعة الكاملة للتاج ، وهنا أيضا ، كما كان الحال في فرنسا وإنجلترا ، أسلمت الحرية والفوضى الإقطاعيان إلى النظام المركزي للملكية المطلقة وتنازلت المجالس البلدية بدورها عن امتيازاتها ، وقلما اجتمعت المجالس الإقليمية وكان اجتماعها في الغالب للموافقة على أموال تمنح للحكومة ، وذبلت ديمقراطية واهية الجذور وماتت في ظل ملك صاحب المراس . بل ان الكنيسة الإسبانية التي كانت عزيزة على الملكين الكاثوليكيين[1] los reyes católicas انتزع منها جانب من ثروتها وكل حقها في التشريع المدني ، وأصلحت إيزابلا أخلاق رجال الدين بصراحة ، وأكره البابا سكتوس

---

(١) أي الملكان الكاثوليكيان — لقد أسبغه على فرديناند وإيزابلا البابا اسكندر السادس عام ١٤٩٤ .

الرابع ، على التنازل للحكومة عن حق تعيين كبار رجال الكهنوت فى الكنيسة الإسبانية ورقى الكهنة القادرون أمثال بدروجنزالس ده مندوزا واكسمنس ده نيروس ، لينصبوا كبار أساقفة دفعة واحـــدة لطليطلة ورؤساء وزراء فى الدولة .

وكان الكاردينال اكسمينس شخصية إيجابية قوية كالملك ، ولقد انحدر من أسرة نبيلة وإن كانت رقيقة الحال ، فذهب فى طفولته للكنيسة ، وأحرز فى جامعة سالامنكا وهو فى سن العشرين ، أجازات الدكتوراه فى كل من القانونين المدنى والكنسى . وعمل سنوات قسيسا وناظراً لمندوزا فى أسقفية سيجونزا وكان ناجحا ولكن غير سعيد ، ولم يأبه بالجاه أو المناصب ، فالتحق بأكثر فرق الأديرة صرامة فى أسبانيا — وهى الفرنسيسكان الملتزمون بالأوامر والنواهى «Observantine Francîscans» . ولم يبهجه غير الزهد فكان ينام على التراب أو الأرض الصلبة ويكثر من الصوم ويضرب نفسه بالسياط ، ويلبس قميصا من الشعر على جلده . وفى عام ١٤٩٢ اختارت إيزابلا الورعة هذا المتعبد النحيل راعيا لكنيستها الخاصة ومتلقيا لاعترافاتها . وقبل ولكن بشرط وهو أن يسمح له بالاستمرار فى سكن الدير والتزام قواعد الفرنسسكان الصارمة ، وجعلته الفرقة رئيسها المحلى ، واستجابت لإلحاحه فى الإصلاح العسير . ولما رشحته إيزابلا كبيراً لأساقفة طليطلة (١٤٩٥) رفض قبول المنصب ، ولكنه استسلم بعد إباء ستة أشهر لنشرة بابوية تأمره بالخدمة . وكان قد أشرف على الستين من عمره ، ويبدو أنه كان يرغب صادقا أن يعيش راهبا . واستمر على طباعه الخشنة وهو مطران إسبانيا ورئيس المجلس الملكى ، وكان يلبس تحت الأردية الفخمة التى يتطلبها منصبه ، ذلك الجلباب الفرنسسكانى الخشن ، وتحته قميص الشعر كما اعتاد قبل ذلك . وطالب جميع فرق الرهبان فى الأديرة بأن تجرى نفس الإصلاحات التى أجرتها فرقته

فعارضه كبار رجال الدين ولكن الملكة أيدته وكأنما تجرد القديس فرنسيس من تواضعه وزود فجأة بتقوى برنارد ودومنيك وقدرتيهما .

ولم يكن ليرضى هذا القديس العبوس ، أن يجد يهوديين لم يتنصرا لهما مكانة مرموقة فى البلاط . أحدهما من أكثر مستشارى إيزابلا ثقة وهو إبراهام سنيور . وقد أخذ هو وإسحاق إبرابانيل يجمعان الموارد لفرديناند وينظمان تمويل حرب غرناطة . وكان الملك والملكة وقتذاك معنيين بالمتنصرين بصفة خاصة آملين أن يأتى وقت يصبح فيه هؤلاء مسيحيين مخلصين وأجرت إيزابلا مدرسة لأصول الدين لتعليمهم ، ومع ذلك فقد احتفظ كثير منهم بعقيدته السالفة سراً ولقنوها أبناءهم . وسكنت كراهية الكاثوليك لليهود غير المعمدين إلى حين ، بينما اشتد الحنق على « المسيحيين الجدد » ونشبت الفتن ضدهم فى طليطلة (١٤٦٧) وبلد الوليد (١٤٧٠) وقرطبة (١٤٧٢) وسيجوفيا (١٤٧٤) وأصبحت المسألة الدينية عنصرية أيضا ، ودبر الملك والملكة الفتيان الوسائل التى تحول هذا المزيج المضطرب فى الشعوب واللغات والمذاهب المتصارعة إلى وحدة منسجمة وسلام اجتماعى . ورأيا أن خير وسيلة لبلوغ هـــذه الأهداف هى إعادة محاكم التفتيش إلى إسبانيا .

٤ ــ وسائل محكمة التفتيش

نحن اليوم غير متحققين ومختلفون فى آرائنا حول أصل العالم والإنسان ومصيرهما حتى إننا أمسكنا فى معظم البلاد ، عن معاقبة الناس لمجرد أنهم يختلفون عنا فى معتقداتهم الدينية . ونحن إنما نوجه تسامحنا الحاضر إلى أولئك الذين يناقشون مبادئنا السياسية والاقتصادية ، ونحن نفسر مذهبنا الثابت المروع على أساس أن أى شك يثار فى وجه ادعائنا الذى نقيم عليه الدليل ، يهدد تماسكنا وبقاءنا القوميين . ولقد كان المسيحيون واليهود والمسلمون

إلى منتصف القرن السابع عشر ، أكثر تشبثا بالدين مما نحن عليه الآن ، وكانت علوم الكلام هى أثمن وأوثق ما يملكون ، ونظروا إلى أولئك الذين ينكرون هذه المذاهب كأنما يهاجمون أصول النظام الاجتماعى وجوهر الحياة الإنسانية . واعتقاد كل جماعة بصحة مذهبها جعلها متشددة إلى حد التعصب ودمغ الآخرين بأنهم كفار .

وانتشر مبدأ محكمة التفتيش فى يسر بين الأشخاص الذين لم تتأثر مذاهبهم الدينية بالتعليم والرحلة ، والذين كانت عقولهم أكثر خضوعا لحكم العادة والخيال . واعتقد جميع مسيحيي القرون الوسطى تقريبا عن طريق تعليمهم فى الطفولة والوسط الذى عاشوا فيه بأن الكتاب المقدس من وحى الله بكل لفظ فيه ، وأن ابن الله قد أنشأ الكنيسة المسيحية مباشرة . وبدا أنه ينتج عن هذه المقدمات أن الله يريد أن تكون جميع الأمم مسيحية وأن الإيمان بديانات غير مسيحية — أو ضد المسيحية على التحقيق — يعد كبيرة فى حق الله . يضاف إلى ذلك ، أنه ما دامت كل هرطقة مادية تؤدى بالضرورة إلى عقاب أبدى فإن المختصين منها قد يعتقدون (ويظهر أن كثيرين منهم قد اعتقدوا بإخلاص) أنهم بإزهاق روح هرطيق ، إنما ينقذون الهدى الكامن فيه وربما أنقذوه هو نفسه من الجحيم الأبدى .

ومن المحتمل أن إيزابلا ، التى عاشت فى جو علماء الدين ، قد شاركت فى هذه الآراء . ولعل فردينان ، الذى كان رجلا صلبا من رجال الدنيا قد ارتاب فى بعضها ، ولكن يبدو أنه اقتنع بأن توحيد العقيدة الدينية يجعل إسبانيا أيسر حكما ، وأقدر فى التغلب على أعدائها . ولقد أصدر البابا سكستوس الرابع ، بناء على رغبة فردينان وايزابلا قرارا (أول نوفمبر ١٤٧٨) يفوض لهما أن يعينا ستة قسس ، من حملة الاجازات العليا فى علوم الدين والشريعة ، ليؤلفوا هيئة محكمة التفتيش ليحققوا تهم الهرطقة ويعاقبوا عليها . وأبرز شىء فى هذا القرار هو إعطاء السلطة لملوك إسبانيا ،

أن يعينوا هيئة محاكم التفتيش ، التى كانت فى صورها السابقة ، تختار بوساطة رؤساء فرق الفرنسسكان والدومنيكان المحلية . وهكذا أصبح الدين هنا خاضعا للدولة مـــدى ثلاثة أجيال ، كما حدث فى ألمانيا وإنجلترا البروتستانتيتين بعد ذلك بقرن ، وكان قضاة هذه المحاكم يرشحهم الملوك فقط من الناحية العملية ، ثم يعينهم البابا ، ويستمدون سلطتهم من هذا القرار البابوى ، وظلت المنظمة كهنوتية ، ووسيلة من وسائل الكنيسة وفى الوقت نفسه وسيلة من وسائل الدولة . وكان على الدولة أن تدفع نفقاتها وأن تحصل على دخلها الخالص ويراقب الملوك تفاصيل أعمالها ، وإليهم قد تستأنف أحكامها . وآثر فرديناند بمحبته هذه الوسيلة من بين جميع وسائل حكمه . ولم تكن أهدافه أول أمرها مالية ، فقد غنم من الأموال المصادرة للمحكوم عليهم ولكنه رفض رشـــاوى مغرية من الضحايا الأغنياء للتأثير على القضاة ، وكان همه منصباً على توحيد أسبانيا .

وأعطى القضاة سلطة استخدام المعاونين من رجال الدين ومن المدنيين كمحققين ومنفذين للأحكام . ووضعت المنظمة برمتها بعد عام ١٤٨٣ تحت إمرة وكالة حكومية ، هى هيئة التفتيش العامة وتسمى عادة « مجلس محكمة التفتيش العليا والعامة » Concejo de la Suprema-y General Inquisicior ، وشمل تشريع محكمة التفتيش جميع المسيحيين فى أسبانيا ، ولم تمس اليهود الذين لم يتنصروا ، ووجهت أهوالها إلى المتنصرين الذين يشك أنهم ارتدوا إلى اليهودية أو الإسلام وإلى المسيحيين المتهمين بالهرطقة ، وكان اليهودى غير المتنصر إلى عام ١٤٩٢ آمنا على نفسه أكثر من المعمد . وطالب القسس والرهبان والمتعبدون الإعفاء من التفتيش ؛ ولكن مطالبهم رفضت ، وقاوم اليسوعيون تشريعها نصف قرن ولكنهم غلبوا على أمرهم أيضاً . والحد الوحيد لقوة الهيئة العليا إنما هو سلطة الملوك ، بل

أن هذا الحد قد أهمل فى القرون المتأخرة . وطالبت محكمة التفتيش وتلقت عادة التعاون من جميع الموظفين المدنيين .

وشرعت محكمة التفتيش القوانين والإجراءات الخاصة بها . وكانت قبل أن تقيم قضاتها فى مدينة من المدن تذيع فى الشعب عن طريق منابر الكنائس منشوراً دينياً « يطالب كل من له علم بهرطقة أن يكشف عنها لرجال التفتيش . وشجع كل امرئ على أن يكون شاهدا ، ليبلغ عن جيرانه وأصدقائه وأقاربه . (ولم يكن يسمح فى القرن السادس عشر مع ذلك باتهام الأقربين ووعد المبلغون بالسرية الخالصة والحماية التامة ، وأوقع حرم صارم — أى حرمان ولعنة — على هؤلاء الذين يعرفون هرطيقاً ويخفونه . فإن ظل يهودى معمد يأمل فى عودة المسيح ، وإذا حافظ على قواعد الطعام التى فى الشريعة الموسوية وإذا اعتبر السبت يوم عطلة وعبادة أو غير ملابسه لذلك اليوم ، وإذا احتفل بأى وجه من الوجوه بيوم من أعياد اليهود ، وإذا ختن أى واحد من أطفاله أو أسماه باسم عبرى ، أو باركهم دون أن يقوم بعلامة الصليب ، وإذا صلى بحركات رأســه أو ردد مزموراً من مزامير الكتاب المقدس دون أن يضيف تمجيد الله فى الأعالى ، وإذا اتجه بوجهه إلى الحائط وهو يحتضر ، فإذا فعل هــذا وأمثاله ، كانت عند رجال التفتيش من الشواهد على الهرطقة السرية التى لابد من إبلاغها إلى المحكمة فوراً . ولكل من يشعر بأنه اقترف هرطقة فله فى خلال « مهلة صفح » أن يأتى إلى المحكمة ويعترف بها ، فيحكم عليه بغرامة أو تفرض عليه كفارة ويصفح عنه بشرط أن يكشف عن كل ما يعرفه عن هراطقة آخرين .

ويلوح أن قضاة محكمة التفتيش كانوا يفحصون بعناية القرائن التى جمعها المبلغون والمحققون . حتى إذا اقتنعت المحكمة بالإجماع بإدانة شخص من الأشخاص فإنها تصدر أمراً بالقبض عليه . ويتحفظ على المقبوض عليه

فى سجن انفرادى ، حيث لا يسمح لغير عملاء محكمة التفتيش بالتحدث إليه ، ولا يزوره أحد من أقربائه ؛ وكان يقيد بالسلاسل عادة . ويطلب إليه أن يستحضر معه فراشه وملابسه ، وأن يدفع جميع نفقات محبسه وطعامه . فإذا لم يقدم المال الكافى لهذا الغرض فإنه يباع القدر المناسب من متاعه ليفى بالمبلغ المطلوب . أما باقى أمتعته فيحجز عليه بوساطة مندوبى محكمة التفتيش حتى لا يخبأ أو يتنازل عنه هرباً من المصادرة . وفى معظم الأحوال يباع جانب منه لإعانة من يعجزون عن العمل من أسرة الضحية .

وعندما يدفع المقبوض عليه للحضور أمام المحاكمة فإن المحكمة وقد سبق أن حكمت عليه بأنه مذنب ، تلقى على كاهله عبء إثبات براءته . وكانت المحكمة سرية خاصة وعلى المدافع عن نفسه أن يقسم على أنه لن يفشى أية واقعة من الوقائع فى حالة إطلاق سراحه . ولا يستدعى شهود إثبات التهمة إليه ، ولا يذكر له اسم أحد ، وبرر قضاة التفتيش هذا الإجراء بأنه ضرورى لحماية مبلغهم . ولم يكن يخبر المتهم أولا عن التهم الموجهة ضده ، وإنما يستدعى لمجرد الاعتراف بتقصيره كما تقضى بذلك العقيدة والعبادة الصحيحتان وأن يشى بكل الأشخاص الذين يتهمون بالهرطقة . فإن أقنع اعترافه المحكمة فقد يصدر عليه حكم غير الإعدام ، وإذا أبى الاعتراف سمح له باختيار محامين للدفاع عنه ، ويتحفظ عليه فى الوقت نفسه فى سكن انفرادى . وفى كثير من من الأحوال كان يعذب ليكره على الاعتراف وتستمر القضية عادة شهوراً ، ويكفى التقييد بالسلاسل فى السجن الانفرادى غالباً للحصول على أى اعتراف .

ولم يكن يلجأ إلى التعذيب إلا بعد أن يقترع عليه أغلبية قضاة المحكمة على أساس أن الذنب محتمل ، وإن كانت القرائن لا تقطع به . ويؤجل التعذيب الذى يحكم به على هذا النحو غالباً على أمل أن الفزع منه يدفع إلى الاعتراف ويبدو أن قضاة التفتيش اعتقدوا بإخلاص أن التعذيب خدمة

للمدافع عن نفسه وهو الذى سبق أن عد مذنباً ، فقد يكسبه بالاعتراف عقاباً أخف ، بل أنه إذا حكم بإعدامه بعد اعترافه يحصل من قسيس على المغفرة تنجيه من الجحيم ؛ ومع ذلك ، لم يكن الاعتراف بالذنب كافياً ، فقد يلجأ إلى التعذيب مع مدافع عن نفسه لإكراهه على ذكر شركائه فى الهرطقة أو الجريمة . وربما عذب الشهود المتناقضون للكشف عمن يذكر الحقيقة منهم ؛ وقد يعذب العبيد ليقيموا الدليل على سادتهم . ولم يكن هناك حد فى السن ينقذ الضحايا ، ذلك أن فتيات فى الثالثة عشرة ونسوة فى الثمانين قد ألزمن العذراء[1] ، بيد أن قواعد محكمة التفتيش الأسبانية حرمت التعذيب بالنسبة للمراضع أو ذوى القلوب الضعيفة أو المتهمين بهرطقات صغيرة كالأخذ بالرأى الشائع الذى يقول إن الزنا خطيئة صغيرة يصفح عنها . ويجب أن يحال بين التعذيب وبين إصابة الضحية بعاهة مستديمة ، ولا بد أن يوقف كلما أمر الطبيب المسئول ، ولا ينفذ إلا بحضور قضاة التفتيش المنوط بهم القضية ، وأحد الأعيان وكاتب للتسجيل وممثل للأسقف المحلى . واختلفت الوسائل باختلاف الزمان والمكان . وقد توثق يد الضحية خلف ظهرها ويعلق منهما أو يربط وثاقه حتى يعجز عن الحركة تماماً ، ثم يقطر الماء فى حلقه حتى يشرف على الاختناق ؛ وقد تربط يداه ورجلاه بالحبال ربطاً وثيقاً حتى تقطع اللحم إلى العظام . ولقد أنبئنا أن وسائل التعذيب التى استعملتها محكمة التفتيش الأسبانية كانت أخف مما استخدمته محاكم التفتيش البابوية السابقة ، أو مما توسلت به المحاكم المدنية فى ذلك العصر . وكان أهم وسائل التعذيب السجن الطويل الأمد .

ولم تكن محكمة التفتيش تتألف من مدع وقاض ومحلفين فقط ، ولكنها أصدرت أيضاً أوامر خاصة بالعقيدة والأخلاق وأنشأت مراتب للعقوبات ؛ وكانت رحيمة فى معظم الأحوال ، وتتسامح فى جزء من العقوبة بسبب

---

(١) وهى آلة تعذيب تمط الجسم .

سن المحكوم عليه أو جهله أو فقره أو سكره أو سمعته الحسنة بصفة عامة . وكانت أخف العقوبات هي التعنيف . وأقسى منها هو الإكراه على المجاهرة بالإقلاع عن الهرطقة أمام الناس — التى تترك حتى البرىء ميسوماً بها إلى إلى آخر حياته ، وكان يطلب عادة إلى المعاقب بالأشغال الشاقة أن يحضر القداس بانتظام ، مرتدياً لباس الإدانة « sanbenito » وهو جلباب رسم عليه صليب برّاق . وربما عرض فى الطرقات وقد جرد من ثيابه إلى وسطه وحمل شعار جريرته . وقد يحرم هو وذووه من المناصب العامة إلى الأبد . أو ينفى من مدينته ، وقلما ينفى خارج أسبانيا . وقد يجلد من عشر جلدات إلى مائة جلدة إلى الحد الذى لا تزهق فيها روحه . وكانت هذه العقوبة تطبق على النساء كما تطبق على الرجال . وقد يلقى به فى السجن أو يدفع به إلى السفن — وهو ما أوصى فرديناند بأنه أنفع للدولة ، وربما دفع غرامة مادية أو صودرت أمواله . وقد اتهم بعض الموتى بالهرطقة فى أحوال متعددة وحوكموا بعد الموت وحكم عليهم بالمصادرة فيفقد الورثة فى هذه الحالة ميراثهم . وكان المبلغون عن الهراطقة الموتى يمنحون من ٣٠ ٪ إلى ٥٠ ٪ من المتحصل . ودفعت الأسر المفزعة من هذه المحاكمات ذات الأثر الرجعى للمبلغين فى بعض الأحيان « مصالحات » تأميناً لهم من مصادرة ميراثهم فأصبحت الثروة خطراً على صاحبها وإغراء للمبلغين والمفتشين والحكومة . حتى إذا انسابت الأموال فى خزائن محكمة التفتيش فإن موظفيها أصبحوا أقل اهتماماً بالمحافظة على العقيدة الصحيحة من الحصول على الذهب وانتشر الفساد انتشاراً مروعاً .

وكانت العقوبة القصوى هي الإحراق فى المحرقة . وهى للذين حكم عليهم بأنهم اقترفوا هرطقة عظيمة ، ولم يعترفوا قبل بدء المحاكمة ، ولأولئك الذين اعترفوا فى الوقت المناسب وخففت عنهم عقوبتهم أو صفح عنهم ولكنهم ارتدوا إلى الهرطقة . وصرحت محكمة التفتيش نفسها بأنها لم تقدم

على القتل قط ، وقصاراها أنها كانت تسلم المحكوم إليه إلى السلطات المدنية ؛ وقد علمت أن القانون الجنائى يجعل الإحراق فى المحرقة نافذاً فى جميع العقوبات على الهرطقة الكبيرة أو التى لا توبة عليها . وإن حضور رجال الكهنوت عند المحرقة يدل على مسئولية الكنيسة ، ولم يكن المشهد الخاص بالإيمان هو مجرد الإحراق ، ولكنه الاحتفال المؤثر المروع كله بالنطق بالحكم والتنفيذ . ولم يكن غرضه مقصوداً على ترويع المخالفين فى السر ، وإنما لتهذيب الشعب كأنما يطلعونهم مقدما على يوم الحساب .

وكان الإجراء فى أول أمره بسيطاً فإن الذين يحكم بإعدامهم يقادون إلى الساحة العامة ، وكانوا يوثقون بأربطة على كومة حطب ، بينما يجلس قضاة التفتيش فى أبهة على منصة تواجهها ، ويطلب للمرة الأخيرة إلى المحكوم عليه أن يدلى باعترافه ، وتقرأ عليه الأحكام ، وتشعل النيران . ويبلغ الفزع منتهاه . بيد أن كثرة الإحراق وفقد بعض سلطانها النفسى ، جعل الاحتفال أكثر تعقيداً ورهبة وعنى بإظهاره بكل أسباب العناية والنفقة ، التى يتطلبها إخراج مسرحى كبير . وكان يحدد ميعاده كلما أمكن ذلك للاحتفال بالاعتلاء على العرش أو الزواج أو الزيارة من ملك أو ملكة أو أمير أسبانى . وكان يدعى موظفو البلديات والحكومة وهيئة محكمة التفتيش والقسس والرهبان المحليون ، بل فى الواقع كان يطلب حضورهم : وفى أمسية التنفيذ ينضم هؤلاء الأماثل إلى موكب كئيب يسير فى طرق المدينة الرئيسية ليضع صليب محكمة التفتيش الأخضر فوق مذبح الكاتدرائية أو الكنيسة الرئيسية . وتبذل محاولة أخيرة للحصول على اعترافات المحكوم عليهم ، فيستسلم كثيرون منهم . وتخفف أحكامهم إلى السجن فترة من الزمن أو مدى الحياة . وفى الصباح التالى يساق المسجونون وسط الجموع الغفيرة إلى إحدى ساحات المدينة . وفيهم الدجالون والمجدفون فى الدين والمضارون[1] والهراطقة والمرتدون . وفى

(١) المتزوج من امرأتين .

الأيام المتأخرة كان يساق معهم البروتستانت ، وينتظم الموكب أحياناً دمى تمثل المحكوم عليهم غيابياً أو — صناديق تحمل عظام الذين حكم عليهم بعد الموت . وفى الساحة على مدرج مرتفع أو أكثر ، يجلس قضاة محكمة التفتيش ورجال الدين من قساوسة ورهبان وموظفو المدينة والدولة ؛ يرأسهم الملك بين حين وآخر . وتذاع عظة ، يؤمر بعدها جميع الحضور بترديد يمين الطاعة لحكام محكمة التفتيش المقدس وعهد ينكر ويحارب الهرطقة بجميع أشكالها وفى كل مكان . ثم يساق المسجونون واحدا بعد واحد ، أمام المحكمة ، وتتلى عليهم الأحكام الخاصة بهم . ويجب علينا ألا نتخيل معارضة باسلة لذلك ، وربما كان كل سجين فى هذه المرحلة مشرفا على التلف الروحى والانهيار البدنى . بل إنه قد ينقذ حياته فى هذه اللحظة بالاعتراف . وفى تلك الحالة تقنع محكمة التفتيش بجلده ومصادرة أمواله وسجنه مدى الحياة . وإذا لم يعترف إلا بعد صدور الحكم عليه ، فإنه يغنم الرحمة بشنقه قبل إحراقه ، ولما كانت الاعترافات فى اللحظة الأخيرة كثيرة ، فقد أصبح إحراق الأحياء نادرا نسبيا ، أما الذين يحكم عليهم بالهرطقة الكبيرة ، وينكرون ذلك إلى النهاية ، يحرمون (وظل ذلك مرعيا إلى عام ١٧٢٥) من الكنيسة المقدسة ، ويتركون برغبة محكمة التفتيش للجحيم الأبدى . أما الذين تخفف أحكامهم فيعادون إلى السجن ، والذين لم تقبل توبتهم فيدفع بهم إلى السلطة المدنية ، مع تحفظ وردع بعدم إراقة دم . ويساقون إلى خارج المدينة وسط حشود تجمعت من مسافات بعيدة للفرجة على هذا المشهد من مشاهد العطلة . حتى إذا وصلوا إلى مكان التنفيذ شنق المعترفون ثم أحرقوا بينما يحرق المعاندون أحياء . وتظل النيران تغذى بالوقود حتى تصير العظام رمادا ، ينتثر على الحقول والجداول . ثم يعود القساوسة والمشاهدون إلى مذابحهم ودورهم مقتنعين ، بأن قربانا قدم استعطافا لإله غاضب من الهرطقة . وهكذا أعيد القربان البشرى .

٥ – تقدم محكمة التفتيش (١٤٨٠ – ١٥١٦)

عين فرديناند وإيزابلا القضاة الأوائل لمحكمة التفتيش فى سبتمبر من عام ١٤٨٠ ، لمنطقة إشبيلية . ففر كثيرون من الإشبيليين المتنصرين إلى الريف ، وبحثوا عن الملجأ الأمين عند السادة الإقطاعيين ، وكانت عند أولئك رغبة فى حمايتهم ، ولكن قضاة التفتيش هددوا البارونات بالحرمان من غفران الكنيسة ومصادرة الأموال ، فما كان منهم إلا أن سلموا اللاجئين ، أما فى المدينة نفسها فقد دبر بعض المتنصرين المقاومة المسلحة ولكن التدبير أفشى ، وقبض على الضالعين فى هذا التدبير وسرعان ما امتلأت السجون . وتبعت ذلك محاكمات متعجلة غضوب ، واحتفل بأول محرقة أثمرتها محكمة التفتيش الإسبانية فى السادس من فبراير لعام ١٤٨١ بإحراق ستة من الرجال والنساء . وما أن جاء الرابع من نوفمبر للعام نفسه ، حتى كان قد أحرق ثمانية وتسعون ومائتا شخص وسجن مدى الحياة تسعة وسبعون شخصاً .

وفى عام ١٤٨٣ عين البابا أسكستوس الرابع بترشيح وطلب من فرديناند وإيزابلا ، راهباً دومينيكيا ، هو توماس ده توركيمادا ، مفتشاً عاماً لإسبانيا بأسرها ، وكان مؤمناً متعصباً لا يتطرق الفساد إليه ، يحتقر الترف ويعمل بحماسة شديدة ويحتفل بفرصته السانحة ليخدم المسيح بتصيد الهراطقة وكان يؤنب قضاة التفتيش على التساهل ، ونقض كثيراً من أحكام البراءة وطالب الربانيين فى طليطلة مهدداً إياهم بالموت أن يبلغوا عن الذين ارتدوا إلى اليهودية . وفزع البابا اسكندر السادس من قسوته ، وهو الذى سبق أن مدحه على أخلاقه لعمله ، فأمره (١٤٩٤) أن يشرك فى سلطته مفتشين عامين آخرين . وتجاوز توركيمادا هذين الزميلين ؛ واحتفظ برآسة حازمة عليهما . وجعل محكمة التفتيش حكومة فى داخل الحكومة تضارع سلطة الملوك . وأحرقت محكمة التفتيش فى سوداد ريال بدافع منه فى سنتين (١٤٨٣ – ٨٤) اثنين وخمسين شخصاً وصادرت أموال مائتين وعشرين شريداً

وعاقبت مائة وثلاثة وثمانين تائباً . وفى مدى سنة واحدة من نقل المفتشين لمقرهم الرئيسى إلى طليطلة قبضوا على سبعمائة وخمسين يهودياً متنصراً وصادروا خمس أموالهم ، وحكموا عليهم بأن يسيروا فى مواكب حاشدة فى ستة أيام جمعة ، يضربون أنفسهم بسياط من القنب ، وفى هذه السنة (١٤٨٦) أقيمت محرقتان أخريان وأحرقت رفات ألف وستمائة وخمسين تائباً . وبذلت جهود مماثلة فى بلد الوليد ووادى لوب وغيرهما من مدن قشتالة .

وقاومت أراجون محكمة التفتيش بشجاعة يائسة . فقد أغلق حكام تيرول أبواب المدينة فى وجه المفتشين . فما كان من هؤلاء إلا أن أصدروا قرار الحرمان على سكانها وأوقف فرديناند مرتبات موظفى المجلس البلدى ، وسير جيشاً يكره الأهلين على الطاعة ، أما الفلاحون المجاورون الذين كانوا على عداء دائم للمدينة ؛ فقد هرعوا يؤيدون محكمة التفتيش ، التى وعدتهم بالإعفاء من جميع الإيجارات والديون التى عليهم لأشخاص المتهمين بالهرطقة . واستسلمت مدينة تيرول وأعطى فرديناند المفتشين سلطة نفى كل شخص يشكون فى أنه اشترك فى المقاومة ، وفى سرقوسة انضم إخوة المسيحيين القدماء إلى الإخوة « المسيحيين الجدد » فى الاحتجاج على دخول محكمة التفتيش مدينتهم ، ومع ذلك فلما أقيمت محكمة التفتيش هناك اغتال بعض المتنصرين أحد رجالها (١٤٨٥) وكان ذلك خطأ مهلكاً ، لأن الأهلين المفزعين احتشدوا فى الطرقات صائحين « احرقوا المتنصرين » وسكن كبير الأساقفة من روع الغوغاء بأن وعد بالمحاكمة السريعة . وقبض على جميع المتآمرين تقريباً وأعدموا ، وقفز أحدهم ليلقى مصرعه من البرج الذى سجن فيه ؛ وحطم آخر مصباحاً من الزجاج وابتلع شظاياه ، ثم وجد ميتاً فى محبسه . ورفض مجلس الكورتيس فى بلنسية ، السماح للمفتشين بمزاولة عملهم ، فأمر فرديناند بالقبض على كل من يحول بينهم وبين أداء مهمتهم ، واستسلمت بلنسية . وخنق الملك تأييداً للتفتيش الحريات التقليدية لأرجون ، الواحدة

بعد الأخرى ؛ وأثبت اتحاد الكنيسة مع الملكية ، بقرارات الحرمان والجيوش الملكية ، بأنه أقوى من أن تقاومه مدينة أو ولاية بمفردها . وحددت فى بلنسية وحدها عام ١٤٨٨ تسعمائة وثلاثة وثمانون حكماً بالهرطقة وأحرق مائة رجل .

فكيف نظر الباباوات إلى اصطناع محاكم التفتيش كأداة من أدوات الدولة ليس من شك فى أن عدداً من الباباوات قد حاولوا أن يوقفوا مثل هذا الإفراط وأن يبسطوا حمايتهم على ضحايا التفتيش بين حين وآخر ، منكرين هذا التحكم المدنى ؛ ومدفوعين فى الغالب بالعواطف الإنسانية مع إدراكهم للمصاريف الباهظة التى تدفع للتصديق على أحكام محكمة التفتيش . فقد أصدر البابا سكستوس الرابع عام ١٤٨٢ منشوراً بابوياً لو نفذ لوضع حداً لمحكمة التفتيش فى أراجون ؛ وشكا فيه من أن المفتشين يبدون طمعا فى الحصول على الذهب أكبر من الإخلاص للدين ، وأنهم سجنوا وعذبوا وأحرقوا مسيحيين مؤمنين بشهادة مريبة من أعدائهم وعبيدهم وأمر بأن على المفتش فى المستقبل ألا يباشر مهمته إلا بحضور بعض ممثلى الأسقف المحلى والحصول على موافقتهم ؛ وأن يعلن المتهمون بأسماء الذين اتهموهم واتهاماتهم ولا يبيت المسجونون إلا فى سجون الكنيسة ؛ وأن يسمح للشاكين فى الظلم الواقع عليهم أن يقدموا ظلاماتهم إلى السدة الأسقفية المقدسة ، وأن يؤجل كل تصرف فى القضية حتى يحكم فى الاستئناف ، وأن يحصل جميع المتهمين بالهرطقة ، على حكم البراءة إذا اعترفوا وتابوا ؛ وبذلك يصبحون فى حل من المحاكمة والاضطهاد بسبب هذه التهمة . وكل الإجراءات السابقة المناقضة لهذا المرسوم تعد باطلة وملغاة ، وكل من يخرج على هذه القواعد فى المستقبل يكون عرضة للحرمان من غفران الكنيسة . لقد كان مرسوما متنوراً وأحكامه توحى بصدقه ومع ذلك فيجب أن نلاحظ اقتصاره على أراجون التى أنفق المتنصرون فيها بسخاء فى سبيل الحصول عليه . ولما رفضه فردنياند

وقبض على مبلعيه وطالب المفتشين بأن يواصلوا عملهم ، لم يتخذ البابا سكستوس إجراء آخــر ؛ اللهم إلا تعطيله لمفعول قراره بعد ستة أشهر من إصداره .

وأخذ المتنصرون اليائسون يصبون الأموال صبا فى مدينة روما ، مناشدين الحصول على فتاوى شرعية وبراءة من استدعاء محكمة التفتيش لهم أو حكمها عليهم . وقبلت هذه الأموال ، وأعطيت الفتاوى ، بيد أن المفتشين الأسبان الذين يبسط عليهم الملك حمايته جملة تجاهلوها ، وكان الباباوات فى حاجة إلى حماية فرديناند وإلى المنحة الأسبانية السنوية ، فلم يصروا على تلك الفتاوى ، وكان المال يدفع فى سبيل الحصول على قرار بالعفو فيصبا ثم يسحب بعد ذلك . وعمل الباباوات بين حين وآخر على تأكيد سلطتهم مستدعين المفتشين إلى روما للرد على اتهامات وجهت إليهم بسوء السلوك وحاول إسكندر السادس أن يخفف من قسوة المحكمة . وأمر يوليوس الثانى بمحاكمة المفتش لوسيرو على سوء استعماله لسلطته ، وأصدر قرار الحرمان على مفتش طليطلة . ومع ذلك فقد عد ليو المهذب العالم ، القول بعدم إحراق الهراطقة ، من الهرطقة التى تستوجب اللوم .

كيف كان موقف الشعب الأسبانى من محكمة التفتيش ؟ لقد عارضتها الطبقات العليا والإقليمية المتعلمة معارضة ضعيفة ، أما عامة المسيحيين فقد أيدوها عادة . وأظهرت الجماهير التى احتشدت عند المحرقة تعاطفا واهنا ، وأبدوا دائما عداوة فعالة للضحايا ، وحاولوا فى بعض الأماكن قتلهم حتى لا ينجيهم اعترافهم من المحرقة . وتجمع المسيحيون لابتياع أمتعة المحكوم عليهم المصادرة بالمزاد .

كم بلغت كثرة الضحايا ؟ قدر ليورنت[٢] بأنهم بلغوا بين عامى

---

(١) جوان أنطونيو ليورنت ، قسيس إسبانى ، كان أمينا عاما لمحكمة التفتيش فى سنة ١٨٨٩ إلى سنة ١٨٠١ وانتدبه يوسف بونابرت عام ١٨٠٩ لفحص محفوظات محكمة التفتيش وكتابة تاريخها . وقد ترك إسبانيا مع الفرنسيين المنسحبين ونشر تاريخه عن محكمة التفتيش فى باريس عام ١٨١٧ .

١٤٨٠ و ١٤٨٨ ثمانية آلاف وثمانمائة أحرقوا ، وستة وتسعين ألفا وأربعمائة وتسعين عوقبوا ، وبين عامى ١٤٨٠ — ١٥٠٨ بواحد وثلاثين ألفا وتسعمائة واثنى عشر أحرقوا ومائتين وواحد وتسعين ألفا وأربعمائة وأربعة وتسعين حكم عليهم بعقوبات صارمة ، وكانت هذه الأرقام فى معظمها تخمينية . ويرفضها اليوم بصفة عامة المؤرخون البروتستنت ويعدونها تطرفا فى المبالغة . ويذهب مؤرخ كاثوليكى إلى أنه قد أحرق ألفان بين عامى ١٤٨٠ و ١٥٠٤ ، وألفان آخران حتى سنة ١٧٥٨ . وأحصى كاتب سر ايزابلا واسمه هرناندو ده بولجر عدد الذين أحرقوا ، بألفين قبل عام ١٤٩٠ وفاخر ذوريتا أمين محكمة التفتيش بأنها أحرقت أربعة آلاف فى إشبيلية وحدها وكانت هناك ضحايا فى معظم المدن الأسبانية ، بل فى الإمارات التابعة لأسبانيا مثل البليار وسردينيا وصقلية والأراضى الواطئة وأمريكا .

ونقص معدل الإحراق بعد عام ١٥٠٠ . ولا تصور الإحصائيات أيا كانت الفزع الذى عاش فيه العقل الأسبانى فى تلك الأيام والليالى . فقد كان على الرجال والنساء حتى فى ستر منازلهم ، أن يرقبوا كل كلمة يتلفظون بها حتى لا يؤدى بهم نقد عارض إلى سجن محكمة التفتيش . لقد كان ضغطا عقليا لا نظير له فى التاريخ .

هل نجحت محكمة التفتيش ؟ نعم ، نجحت فى تحقيق غرضها الذى أعلن عنه ، وهو تخليص أسبانيا من الهرطقة الصريحة . فإن الفكرة القائلة بأن اضطهاد المعتقدات لا تأثير له أبداً ، ضلال ، فقــد سحق الألبيجينزيين والهيجونوت فى فرنسا ، والكاثوليك فى انجلترا فى عهد اليزابث والمسيحين فى اليابان — وانتزعت ، فى القرن السادس عشر ، الجماعات الصغيرة التى عطفت على البروتستانتية فى أسبانيا . ولعلها قوت من ناحية أخرى البروتستانتية فى ألمانيا واسكنديناوه وانجلترا بإثارة خوف قتال فى نفوس شعوبها ، مما ؟ يحيق بهم ، إذا أعيدت الكاثوليكية .

ومن العسير أن نقدر نصيب محكمة التفتيش فى القضاء على الفترة المزدهرة من تاريخ أسبانيا ، الواقعة بين كولومبس وفيلاسكيه (١٤٩٢ — ١٦٦٠) وبلغت هذه الفترة أوجها بمجيء سرفانتس (١٥٤٧ — ١٦١٦) لوب ده فيجا (١٥٦٢ — ١٦٣٥) وذلك بعد انتشار محاكم التفتيش فى أسبانيا بمائة عام . ولقد كانت محكمة التفتيش نتيجة كما كانت سبباً لقوة المذهب الكاثوليكى ، وسيطرته على الشعب الإسبانى ، وإن هـذه الحالة الدينية ، قد تمت خلال قرون فى الصراع ، ضد المسلمين : ولعل انحلال اسبانيا من جراء حروب شارل الخامس وفيليب الثانى وضعف الاقتصاد الاسبانى بفضل انتصارات بريطانيا فى البحر والسياسة التجارية للحكومة الأسبوعية ، كان أشد تأثيراً فى اضمحلال اسبانيا من أهوال محكمة التفتيش. ولقد أظهر الحكم بإعدام العرافين فى أوربا الشمالية ونيوانجلند نزوعا فى الشعوب البروتستانتية قريباً لما فى محكمة التفتيش الاسبانية . ومن العجيب أن نقول إن محكمة التفتيش الاسبانية قد عاملت العرافة بتعقل وعدتها وهما يستحق الإشفاق والعلاج لا العقاب . ولم تكن محكمة التفتيش وإحراق العرافين سوى تعابير عن عصر مصاب بالإيمان ، الباعث على القتل ، لفرط ثقته بعلوم الدين . كما تعود بعض أسباب المذابح الوطنية فى عصرنا إلى الإيمان. الباعث على القتل ، بنظرية عنصرية أو سياسية . ويجب علينا أن نحاول نفهم مثل هـذه الحركات بمصطلحات زمانها ، ولكنها تبدت لنا الآن أكبر جريمة لا تغتفر من الجرائم التاريخية . ذلك لأن عقيدة سائدة لا تنازع عدو ومهلك للعقل الإنسانى .

٦ — هجرة إسرائيل

كان الغرض من محكمة التفتيش أن ترهب جميع المسيحيين المحدثين والقدامى على السـواء ليتمسكوا بالسنة الظاهرة على الأقل ، على أمل أن يقضى على الهرطقة فى مهدها وأن الجيل الثانى أو الثالث من اليهود المعمدين سوف

ينسون يهودية أسلافهم . ولم تكن هناك نية للسماح لليهود المعمدين أن يرحلوا عن اسبانيا ، فلما حاولوا الهجرة حرمها عليهم فرديناند ومحكمة التفتيش ولكن ماذا كان مصير اليهود غير المعمدين ؟ لقد ظل حوالى مائتين وخمسة وثلاثين ألفاً منهم فى اسبانيا المسيحية . فكيف السبيل إلى تحقيق الوحدة الدينية للدولة ، إذا سمح لهؤلاء أن يمارسوا شعائر عقيدتهم وأن يصرحوا بها ؟ ورأى توركيمادا استحالة ذلك ، وأوصى بإكراههم على التنصر أو نفيهم .

فتردد فرديناند . ذلك أنه كان يعرف القيمة الاقتصادية لقدرة العبرانيين فى التجارة والمالية . ولكنه أخبر أن اليهود عنفوا المتنصرين منهم ، وحاولوا أن يعيدوهم إلى اليهودية ، بشرط واحد هو أن يكون ذلك سراً . واتهم طبيبه رباس ألتس ، وهو يهودى معمد ، بأنه علق فى رقبته كرة ذهبية تحتوى على صورة له على هيئة فيها تنجيس الصليب ، ويبدو أن التهمة غير صحيحة ولكن هذا الطبيب أحرق (١٤٨٨) . وزيفت رسائل نصح فيها زعيم يهودى فى القسطنطينية ، رئيس الجماعة اليهودية فى أسبانيا بأن يسرق ويدس السم للمسيحيين كلما استطاع إلى ذلك سبيلا . وقبض على متنصر بتهمة وجود رقاقة مقدسة فى جعبته ، وعذب مراراً فتكراراً حتى وقع على عبارة مفادها أن ستة من المتنصرين ومثلهم من اليهود.قتلوا طفلا مسيحياً ، ليستعملوا قلبه فى شعيرة سحرية ، دبرت لتؤدى إلى هلاك جميع المسيحيين والقضاء الكامل على المسيحية . وكانت اعترافات الرجل المعذب يناقض أحدها الآخر ولم يبلغ عن فقد طفل من الأطفال ، ومع ذلك أحرق أربعة من اليهود ، بعد أن انتزع لحم اثنين منهم بوساطة كلابة متوهجة وربما أثرت هذه الاتهامات وأمثالها فى نفس فرديناند، ومهما يكن من شيء فقد مهدت لرأى عام يطلب إجلاء اليهود غير المعمدين عن أسبانيا . ولم تعد المساهمة الاقتصادية لليهود حيوية بعد أن استسلمت غرناطة (٥ نوفمبر ١٤٩١)

وانتقل النشاط التجارى والصناعى من المسلمين إلى أسبانيا المسيحية . وجعل التعصب الشعبى الذى تلهبه المحرقة وعظات الرهبان ، السلام الاجتماعى مستحيلا ، إلا إذا قامت الحكومة بحماية اليهود أو طردهم .

وفى ٣٠ مارس ١٤٩٢ — وهى سنة مزدحمة بالأحداث فى تاريخ أسبانيا وقع فرديناند وايزابلا مرسوم نفى اليهود . ومؤداه أن جميع اليهود غير المعمدين ، أيا كانت أعمارهم أو أحوالهم ، عليهم أن يتركوا أسبانيا فى موعد غايته ٣١ يوليه ، ولا يسمح لهم بالعودة ، ومن يفعل عقوبته الإعدام ، ولهم أن يتخلصوا من متاعهم فى هذه الفترة القصيرة بأى ثمن يحصلون عليه ولهم أن يأخذوا معهم المتاع المنقول وصكوك المعاملات دون النقد من ذهب وفضة . وقدم أبراهام سنيور وإسحاق ابرابانل ، للملكين مبلغاً كبيراً من المال ليسحبا مرسومهما ولكنهما رفضا . ولم يتم اتهام ملكى على اليهود سوى رغبتهم فى إغراء المتنصرين للارتداد إلى اليهودية . وصدر ملحق لذلك المرسوم ، يجعل الضريبة إلى آخر العام يجب أن تجبى على جميع أملاك اليهود ومبيعاتهم . أما الديون المستحقة على المسيحيين والمسلمين فلا تدفع إلا عند بلوغ سن الرشد ، عن طريق العملاء الذين يستطيع المنفيون العثور عليهم ، أو تحل هذه المطالب بخصم لمشترين مسيحيين . وهكذا انتقلت أموال اليهود فى هذه المدة الإجبارية القصيرة إلى أيدى المسيحيين بجزء ضئيل من قيمتها . فكانت الدار تباع فى مقابل حمار والكرمة فى مقابل قطعة من القماش . وأحرق بعض اليهود فى نوبة يأس منازلهم « أليجمعوا قيمة للتأمين عليها ؟ » وتنازل بعضهم الآخر عنها للمجلس البلدى . ووضع المسيحيون أيديهم على المعابد وحولوها إلى كنائس . وتحولت مدافن اليهود إلى مراع . وذاب فى شهور قليلة ، الجانب الأكبر من ثروات اليهود الأسبان ، التى كدسوها خلال قرون . وقبل خمسون ألف يهودى تقريبا التنصر ، وسمح لهم بالبقاء ، وترك أسبانيا أكثر من مائة ألف فى موكب خروج طويل كئيب .

وقبل رحيلهم زوجوا جميع أطفالهم الذين فوق الثانية عشرة . وساعد الصغار الكبار ، وأعان الأغنياء الفقراء . وسار الحجيج على متون الخيل أو الحمير وفى العربات أو على الأقدام . وناشد المسيحيون الطيبون — من رجال دين ودنيا — المنفيين عند كل منعطف أن يذعنوا للتعميد . فقابل الربانيون ذلك بأن أكدوا لأشياعهم بأن الله سيهديهم إلى أرض الميعاد ، وذلك بأن يفتح لهم معبرا فى البحر كما فعل لآبائهم فى القديم . وانتظر المهاجرون الذين أجمعوا فى قادس يملؤهم الأمل بأن يتفرق الماء ويسمح لهم بالعبور إلى إفريقيا دون أن تبتل أقدامهم . فلما انجاب عنهم الوهم دفعوا الأجور الباهظة للنقل بالسفن وفرقت العواصف أسطولهم الذى كان يتألف من خمس وعشرين سفينة ، وردت ست عشر منها إلى أسبانيا حيث آثر الكثيرون من اليهود اليائسين التعميد على دوار البحر . وتحطمت السفينة بخمسين من اليهود بالقرب من صقلية ، فسجنوا عامين ثم بيعوا رقيقاً . ولم يجد الآلاف الذين أبحروا من جبل طارق ومالقة وبلنسية أو برشلونة فى العالم المسيحى بأسره إلا إيطاليا الراغبة فى استقبالهم بدافع إنسانى .

وكانت البرتغال أكثر الأهداف ملاءمة للمهاجرين . فقد وجدت فيها من قبل جماعة كبيرة من اليهود ، وبلغ بعضهم مكانة من الثراء والمركز السياسى فى كنف ملوك لا يضمرون لهم عداوة . ولكن جون الثانى أفزعه عدد اليهود الإسبان — ربما بلغوا ثمانين ألفا — الذين تدفقوا عليها . فمنحهم مهلة ثمانية أشهر ، عليهم أن يرحلوا بعدها . وتفشى بينهم الطاعون وانتشر منهم إلى المسيحيين . الذين طالبوا بإجلائهم فوراً . فيسر جون خروج اليهود المهاجرين بأن هيأ لهم سفنا بأجور زهيدة ، بيد أن الذين اعتصموا منهم بهذه السفن ، تعرضوا للسرقة والاغتصاب ، وألقى بكثيرين على شواطئ غير مأهولة وتركوا للموت جوعاً أو ليسبيهم المسلمون ويبيعونهم . وهام مائتان وخمسون يهودياً على ظهر سفينة فى البحر أربعة

أشهر ؛ ترفض ميناء بعد ميناء نزولهم ، لأن الطاعون لما يزل متفشيا بينهم . واعتقل قرصان بسكاى إحدى السفن ونهبوا ركابها ثم استاقوا السفينة إلى مالقة ، حيث خير القسس والحكام اليهود بين التعميدأ و الموت جوعا . وبعد أن مات خمسون منهم زودت الساطات الباقين بالخبز والماء وطالبتهم بالإبحار إلى إفريقيا .

وما أن انتهت مهلة الثمانية أشهر ، حتى باع جون الثانى بيع الرقيق ، أولئك اليهود المهاجرين الذين بقوا فى البرتغال وانتزع الأطفال دون الخامسة عشرة من آبائهم وأرسلوا إلى جزر القديس توماس لينشأوا تنشئة مسيحية . ولما ذهبت التوسلات إلى منفذى المرسوم عبثا ، فقد آثرت بعض الأمهات إغراق انفسهن وأطفالهن، على تحمل آلام فراقهم، ومنحهم خليفة جون واسمه مانويل فرصة جديدة يجمعون فيها أنفاسهم ، فقد حرر اولئك الذين استرقهم جون وحرم على القسس أن يثيروا الدهماء على اليهود ،وأمر محاكمه أن ترفض جميع المزاعم بأن اليهود قتلوا أطفال المسيحيين باعتبارها حكايات خبيثة . ولكن مانويل خطب ايزابلا فى الوقت نفسه ، وهى ابنة فردیناند وايزابلا ووريثتهما، حالما أن يوحد العرشين فى فراش واحد ووافق الملكان الكاثوليكيان بشرط أن مانويل ينفى من البرتغال جميع اليهود غير المعمدين سواء أكانوا مواطنين أم مهاجرين . وخضع مانويل لهذا الشرط ، مؤثرا الجاه على الشرف وأمر جميع اليهود والمسلمين فى مماكته أن يتنصروا أو يطردوا من البلاد (١٤٩٦) . ولما وجد أن فئة قليلة منهم آثرت التنصر، وكره أن تباد المهن والصناعات التى تفوق فيها اليهود أمر جميع الأطفال اليهود دون الخامسة عشرة، أن يفصلوا عن آبائهم وينصروا كرها . وعارض رجال الدين الكاثوليك هذا الإجراء ، ولكنه نفذ . فقد روى أحد الأساقفة « لقد رأيت أطفالا كثيرين يسحبون إلى حوض التعميد من شعورهم » . واحتج بعض اليهود على ذلك بوأد أطفالهم ثم قتل أنفسهم ،

وأصبح ما نويل شرساً ، فعطل خروج اليهود ، ثم أمرهم بأن ينصروا كرها . فسحلوا إلى الكنائس ، الرجال من لحاهم والنساء من شعورهن ، وقتل كثيرون منهم نفسه فى الطريق وأرسل المتنصرون البرتغاليون رسالة إلى البابا إسكندر السادس يرجون توسطه ولا يعرف رده ، ولعله كان فى مصلحتهم ، لأن مانويل منح إذ ذاك (مايو ١٤٩١) جميع المتنصرين كرها إذنا رسمياً مدته عشرون سنة لا يقدمون أثناءها إلى أى محكمة بتهمة التشيع لليهودية . ولكن مسيحيي البرتغال رفضوا منافسة اليهود معمدين وغير معمدين ، فإذا جادل يهودى فى معجزة تنسب إلى كنيسة فى لشبونه فإن الغوغاء يمزقونه إربا (١٥٠٦) ، وانتشرت المذابح ثلاثة أيام لا يمنعها أحد ، وقتل فيها ألفا يهودى ودفن مئات منهم أحياء . وأنكر المطارنة الكاثوليك هذه السورة من الغضب ، وقتل راهبان دومينيكان حرصا على الشغب . واستتب السلام ، أو كاد ، باستثناء هذه الأحداث مدى جيل من الزمان .

وتم خروج اليهود الرهيب من اسبانيا . بيد أن الوحدة الدينية لم تكن قد تحققت بعد : فقد بقى المسلمون . ذلك أن غرناطة سقطت ، ولكن سكانها المسلمين منحوا الحرية الدينية . وانتدب كبير الأساقفة هرناندو ده تالافيرا ، حاكما على غرناطة . فنفذ الميثاق فى شىء من السرية وحاول أن يستدرج المسلمين إلى التنصير بالرفق والعدل . ولكن اكسيمينيس لم يوافق على مثل هذا الاعتناق للمسيحية . فألح على الملكة ، بأن العهد لا يحافظ عليه مع الكافرين ، وأقنعها بأن تصدر مرسوماً (١٤٩٩) يخير المسلمين بين الدخول فى المسيحية وبين مغادرة اسبانيا . وذهب بنفسه إلى غرناطة ، وتسلط على طلبيرة وأغلق المساجد ، ونصب المحارق العامة التى التهمت جميع الكتب والمخطوطات العربية التى وصلت إليها يده ، وأشرف

على التنصير الإجبارى بالجملة . وكان المسلمون يمسحون الماء المقدس عن أطفالهم عندما يبتعدون عن عين القسيس ونشبت الثورات فى المدينة والولاية ، وسحقت . وخير جميع المســلمين فى قشتالة وليون بمقتضى مرسوم ملكى صدر فى الثانى عشر من فبراير لعام ١٥٠٢ بين الدخول فى المسيحية ومغادرة البلاد وأعطوا لذلك مهلة غايتها آخر إبريل من العام نفسه . واحتج المسلمون بأن أسلافهم عند ما حكموا معظم اسبانيا ، فإنهم سمحوا بالحرية الدينية ، إلا فى القليل النادر ، للمسيحيين الذين تحت سلطانهم ، ولكن الملكين لم يتأثرا بهذا الاحتجاج وحرم على الأطفال الذكور دون الرابعة عشرة والإناث دون الثانية عشرة أن يغادروا اسبانيا مع آبائهم وسمح للأمراء الإقطاعيين بأن يحتفظوا بأرقائهم المسلمين على أن يوضعوا فى الأغلال . ورحل الألوف ، أما الباقون فقبلوا أن ينصروا بفلسفة أكبر مما فعل اليهود وتعرضوا باعتبارهم عربا موريسكيين "moriscos" محل اليهود المعمــدين لتحمل عقوبات محكمة التفتيش على عودتهم إلى ديانتهم السابقة وترك اسبانيا إبان القرن السادس عشر ثلاثة ملايين من المسلمين المتظاهرين بالمسيحية ووصف الكاردينال ريشلييه مرسوم عام ١٥٠٢ بأنه « أكبر حــدث همجى فى التاريخ » ، بيد أن الراهب بليدا رآه « أمجد حادث فى اسبانيا منذ عهد الرسل » . واستطرد قائلا : « الآن أصبحت الوحدة الدينية فى مأمن ، وأوشك عهد من الازدهار أن يبزغ » .

وفقدت اسبانيا كنزاً لا يقدر بخروج التجار وأصحاب المهن والدارسين والأطباء والعلماء من اليهود والمسلمين ، وأفادت الأمم التى تلقتهم من الناحيتين الاقتصادية والفكرية . ولما لم يعد يعرف الشعب الإسبانى منذ ذاك غير ديانة واحدة ، فقد أذعن تماماً لرجال الدين وتنازل عن كل حق له

فى التفكير إلا فى حدود العقيدة التقليدية . وآثرت اسبانيا أن تحتفظ بطابع القرون الوسطى ، وسيان كان ذلك لخيرها أو لشرها ، فى حين اندفعت أوربا نحو التقدم العصرى بفضل الثورات التجارية والطبوغرافية والفكرية والبرتستانتينية .

٧ ــ الفن الإسبانى

لقد عبرت العمارة الإسبانية المتشبثة بالطراز القوطى تعبيراً قوياً عن ذلك الطابع المكين للقرون الوسطى . ولم يسخط الشعب على المرويدات[١] التى أعانت ضمير الملوك والنبلاء على إنفاق المال أو السياسة الدينية ، لبناء الكتدرائيات الضخام كما دفعت إلى الإسراف فى الزينة باهظة النفقة والنحت والتصوير الرائعين على القديسين الأثيرين لديهم وعبادة أم الرب بكل مشاعرهم . وأقيمت كتدرائية برشلونة فى بطء بين عامى ١٢٩٨ ، ١٤٤٨ : وبين فوضى الطرق الضيقة ترتفع أعمدتها الساحقة وبابها الذى لا مزية له وصحنها المنيف بينما لا تزال أروقتها ذوات النوافذ الكثيرة تصلح ملجأ يعتصم الناس فيه من جهاد النهار . ومدت بلنسية وطليطلة وبرجوس وبرغشت ولاردة وطراكونة وسرقسطة وليون أو زينت معابدها التى كانت موجودة من قبل ، بينما أقيمت معابد جديدة فى وشقة وبمبلونة التى تعد أروقتها من الرخام الأبيض ، ذوات النقش الرشيق ، تعد فى جمال أبهاء الحمراء . وفى عام ١٤٠١ قررت هيئة الكتدرائية فى إشبيلية أن تشيد كنيسة تبلغ من العظمة والجمال حداً يجعل الذين يشاهدونها فى الأجيال المقبلة يرون أننا مجانين لإقامتها . « فأزال المعماريون المسجد المتهالك الذى يقوم على المكان المختار لبناء الكنيسة ولكنهم أبقوا على أسسه ، وعلى تخطيطه ومئذنته

---

(١) المرويدات جمع مرويدة ، وهى عملة إسبانية تساوى ربع بنس إنجليزى فإذا كانت ذهبية بلغت قيمتها ١٤ شلنا .

الجيرالدا » البديعة . وظلوا يضعون حجراً فوق حجر طوال القرن الخامس عشر حتى أكملت إشبيلية تشييد أكبر بناء قوطى فى العالم[1] ، وقال عنها تيوفيل جوتييه : « إن كنيسة نوتردام فى باريس قد تسير منتصبة القامة فى صحنها . » ومع ذلك فإن نوتردام كاملة ، وكتدرائية إشبيلية فسيحة . وعمل سبعة وستون نحاتاً وثمانية وثلاثون مصوراً من موريللو إلى جويا ، على تزيين هذا الكهف العظيم للآلهة .

واقترح المعمارى جويللوموبو فى حوالى عام ١٤١٠ على هيئة كنيسة جيرونا أن يزيل الأعمدة والعقود ، التى تقسم داخلها إلى صحن ممرات ، وأن يوحد الجدران بعقد واحد عرضه ثلاثة وسبعون قدما . ونفذ ذلك ، وهكذا أصبح لصحن كتدرائية جيرونا أعرض عقد قوطى فى العالم المسيحى . وكانت نصراً للهندسة وهزيمة للفن . وشيدت أضرحة لم تبلغ هذه الضخامة إبان القرن الخامس عشر فى برنيان ومانريزه واسترقة وبلد الوليد . وتوجت شقوبية عمارتها بتشييد كتدرائية على شكل حصن عام ١٤٧٢ ، وأتمت سجيونزا أروقتها المشهورة عام ١٥٠٧ ، وبدأت سلمنقة فى إقامة مزارها الجديد عام ١٥١٣ وترتفع فى كل مدينة كبيرة فى أسبانيا ، ما عدا مدريد ، كتدرائية تبدو من الخارج بناية ضخمة فى جلال رائع وداخلها يسترحم الشمس بظلامه الدامس ويروع النفس بالتقوى ، ومع ذلك تبدو زاهية بالألوان الناصعة التى يتسم بها فن التصوير الأسبانى ، وبتماثيلها الملونة وبريق الجواهر والفضة والذهب . وهذه هى دور الروح الاسبانى ، الخاضع فى خوف المتكبر فى وحشية .

وعلى الرغم من هذا كله وجد الملوك والنبلاء كما وجدت المدن ،

---

(١) على مساحة مقدارها ١٢٥ ألف قدم مربع ، وكتدرائية القديس بطرس على مساحة تبلغ ٢٣٠ ألف ، ومساحة مسجد قرطبة ٦٠٠ ألف .

الأموال لتشييد القصور الباهظة . وكان بطرس الغشوم وفرديناند وايزابلا وشارل الخامس يعيدون تشكيل القصر "Alcazar" الذى صممه معمارى مسلم فى إشبيلية عام ١١٨١ ، وقام بمعظم الترميم مسلمون من غرناطة حتى ليبدو البناء أخا ضعيفا للحمراء . ولقد شيد دون بدرو انرنيكز على طراز إسلامى مشابه ، لأمراء القلعة "Alcala" فى إشبيلية (١٥٠٠) قصراً منيفا ، وهو قصر بيلاطس وكأنما يكرر الدار التى يقال أن بيلاطس ، أسلم من بابه المسيح للصاب ولقد زود ديوان بلنسية (١٥٠٠) للبلاط المحلى بصالون دوراد وينافس فى فخامته سالا دل ماجيور كونسيجليو ، فى قصر الدوج فى البندقية .

وكان فن النحت لا يزال خادما للعمارة والعقيدة ، يزحم الكنائس الاسبانية بتماثيل العذراء من المرمر أو المعدن أو الحجر أو الخشب ، وهنا نجد التقوى تتجسم فى أشكال دينية صارخة ، أو زهدية جافية ، يذكيها اللون ويضاعف من إثارتها للروع كآبة صحونها . ويفاخر الفن الأسبانى خاصة بالحواجز المنقوشة والملونة المقامة خلف منضدة المذبح ، وأنفقت مبالغ طائلة اغتصبت تحت وطأة التهديد بالموت ، لجمع أحذق الصناع — والاحتفاظ بالمصممين والنقاشين والنحاتين والدورادور الذين يذهبون أو يدمشقون[1] السطوح والاستوفادور الذين يصبغون الثياب والحلى والانكارنادور الذين يلونون الأجزاء التى تحكى اللحم ، وعمل الجميع معا أو بالتناوب فى الضريح. وخلف المذبح الرئيسى لكتدرائية إشبيلية حاجز يتألف من خمسة وأربعين قسما (١٤٨٣ — ١٥١٩) — ويصور الأساطير المحببة ، فى تماثيل ملونة أو مذهبة على الطراز القوطى المتأخر ، بينما يعرض حاجز آخر فى كنيسة القديس سانت جيمس فى كتدرائية طليطلة فى خشب شربين مذهب وبواقعية متجهمة سيرة أكبر قديس أسبانيا تمجيداً .

---

(١) يدمشقون يزخرفون بزخارف دمشقية .

وقد يمثل الأمراء والمطارنة فى فن النحت ؛ ولا يكون ذلك إلا على قبورهم التى توضع فى الكنائس أو للأديرة التى تعد المداخل إلى الجنة وعلى هذا النحو دفنت دونا منسيا أنريكيز ، دوقة البوكرك فى حدث منقور نقرا جميلا ، وهو الآن موجود فى متحف الجمعية الأسبانية فى نيويورك ، وحفر يابلو أرتيز لكتدرائية طليطلة ، تابوتين فخمين لدون الفاروده لونا وزوجته . وصمم جيل ده سيلوى فى دير ميرا فلورس الكارثوسى بالقرب من برغشت ، مدفنا فخما على الطراز الإيطالى لوالدى الملكة وأخوتها . وبلغ من ابتهاج إيزابلا بهذه المدافن الشهيرة للرفات الملكية إنها عندما علمت بمصرع وصيفها ، جوان ده باديلا (الذى كان شجاعاً فى استهتار حتى أطلقت عليه « معتوهى ») بإصابة فى رأسه إبان حصار غرناطة ، كلفت ده سيلوى ، أن ينقر مدفنا ملكيا لضم رفاته ، ونافس جيل مرة أخرى أحسن ما فى فن النحت الإيطالى فى عصره .

وليس هناك فن أكثر تميزاً من الفن الاسبانى ، ومع ذلك فليس بينها ما أسلم للتأثير الأجنبى بخشوع مثله . وخضع أول أمره ، بطبيعة الحال ، للتأثير الإسلامى ، الذى استقر طويلا فى شبه الجزيرة ، وإن استمد جذوره من العراق وفارس وأدخلت فى الطراز الأيبيرى ، دقة فى الصناعة ، وكلفابالزينة قلما تضارع فى أى بقعة من بقاع العالم المسيحى . أما فى الفنون الصغرى ، حيث يحتل الزخرف المكان الأكبر ، فإن اسبانيا قلدت فيها أساتذتها العرب ولم تتفوق عليهم فيها قط . فترك الخزف بأكمله للمدجنين ، الذين لم يضارعهم فى لمعان آثارهم سوى الصينيين ، والذين زادت قراميدهم الملونة — وبنوع أخص الزلزلى الأزرق — من أبهة الأرضيات والمذابح والنوافير والجدران والسقوف فى أسبانيا المسيحية . كما أن الحذق الإسلامى نفسه ، قد جعل المنسوجات الاسبانية من المخمل والحرير والمخرم — أدق ما فى العالم المسيحى من نوعه . وهذا الحذق يبدو مرة أخرى فى المصنوعات الجلدية

الاسبانية ، وفى الزخارف العربية « أرابسك » وفى الحواجز المعدنية وفى أوعية السر المقدس الدينية وفى النقش على الخشب الذى تصنع منه الحواجز خلف المذبح ومقاعد الشمامسة والأقبية وتسللت تأثيرات متأخرة من التصوير البيزنطى ثم من فرنسا وبرجنديا والأراضى الواطئة وألمانيا . واستمد النحت والتصوير الاسبانيان واقعيتهما الرائعة من الهولنديين والألمان — وهى الواقعية التى أظهرت رسوم العذراء مخيفة بالقدر الذى يجعل سنها ملائمة لأن تكون أم المصلوب ، على الرغم من رأى ميشيل انجيلو من أن العذرة التى تبتعث الشباب — ولقد انحسرت جميع هذه التأثيرات إبان القرن السادس عشر أمام انتصار الطراز الإيطالى الذى شمل القارة الأوربية .

وسار التصوير الاسبانى فى تطور مماثل ، ولكنه تقدم ببطء ، وربما كان ذلك لأن المسلمين لم يبذلوا فى هذا المجال معاونة أو توجيها . وكانت الصور الجدارية القطلونية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، أحط من حيث التصميم ، من الرسوم على جدران كهف التاميرا التى تعود إلى ما قبل التاريخ فى إسبانيا . ومع ذلك فما جاء عام ١٣٠٠ حتى أصبح التصوير الفتنة التى تأخذ بالألباب فى شبه الجزيرة بأسرها ، وصور ألف فنان صوراً جدارية كثيرة ولوحات ضخمة على المذبح ، وقد بقى بعضها مما يرجع إلى عام ١٣٤٥ مدة طويلة أكثر ما يستحق — وفى عام ١٤٢٨ زار جان فان ايك ، إسبانيا وأدخل معه تأثيراً فلمنكيا قويا . وأرسل ملك أرجون بعد ذلك بثلاثة أعوام ، لويس دلو ، ليدرس الفن فى بروجس ، ولما عاد صور لويس صورة مغرقة فى الفلمنكية هى « عذراء مجلس الشورى » . وأخذ المصورون الاسبان منذ ذاك ، وإن ظلوا يفضلون الألوان غير اللامعة ، يغمسون ألوانهم فى الزيت شيئا فشيئا .

وبلغ عصر البدائيين فى التصوير الاسبانى ، ذروته على يد بارتلومة برميجو (المتوفى عام ١٤٩٨) وقد حفر نفسه اسما فى فترة مبكرة عام ١٤٤٧

بصورته سانتو دومنجو المعلقة فى البرادو . أما صورتا : سانتا انجراسيا التى اشتراها متحف جاردنر فى بوسطن ، وسانت ماكايل الموجودة فى مجموعة ليدى ليدلو ، فإنهما جديرتان برفائيل ، الذى جاء بعده بجيل من الزمان . ولكن أحسنها جميعها هى صورة بيتا (١٤٩٠) فى كتدرائية برشلونة : وفيها جيروم أصلع على عينيه نظارات ، ومريم سمراء أسبانية تمسك بابنها الكسيح الهزيل الذى لا حياة فيه ، وفى مهاد الصورة أبراج أورشليم تظللها سماء قريبة ، وإلى اليمين صورة جافية للمنعم الكاهن ديسبلا ، غير مرجل الشعر غير حليق اللحية ، يشبه قاطع طريق تائباً محكوما عليه ، ويوحى تصور برميزو المريض الإنسانية . وهنا نجد أن الرشاقة الإيطالية تتحول إلى قوة اسبانية ، وتحتفل الواقعية بانتصارها فى الفن الإسبانى .

واستمر التأثير الفلمنكى فى فرناندو جاليجوس ، وأثمر رائعة مذهلة بـ « فارس من جماعة قلعة رباح » ، صورها ميجويل سيثيوم وهو فلمنكى فى حاشية إيزابلا ، وهى من أجمل صور الأشخاص فى المعرض القومى بواشنطن . ولكن التأثير الإيطالى بدأ مرة أخرى عندما عاد بدرو برجوت إلى اسبانيا بعد تمرس طويل فى إيطاليا . وهناك درس مع بييرو دلافرنشسكا وميلوزودا فورلى ، وتمثل طريقتهما الهادئة فى التظليل . ولما أراد فيديريجو أمير أربينو ، مصورين يزينون قصره ، اختار جستوس فون جنت وبيرو سبانيولو ، ولما توفى الدوق (١٥٨٢) جلب بدور فن التكليل معه إلى اسبانيا ، ورسم لوحات مذبح مشهورة فى طليطلة وأبلة والصور المنسوبة إليه فى اللوفر والبريرا والرادو ومتحف كليفلند ، فلمَ تؤيد شهرته الحالية ، أباعتباره فيلاسكين الملوك الكاثوليك ؟ ولكنها تبدو فى الرسم والتأليف أعظم من جميع الآثار التى ظهرت فى اسبانيا قبلهم .

وأخذت العوامل الأجنبية تتفاعل ببطء مع العبقرية الوطنية لتمهد الطريق لظهور الآثار الفنيةالناضجة التى قام بها الونزوكوالللو والجريكو فى عهد فيليب

الثانى ، وانتصارات فيلاسكيه وزرباران وموريللو فى عصر اسبانيا الذهبى إبان القرن السابع عشر . والعبقرية موهبة فردية من القوة والإرادة . ولكنها فى الوقت نفسه ميراث اجتماعى للنظام والقدرات تشكلت على الأيام وتمثلها النمو والعبقرية تولد وتصنع فى آن واحد .

٨ ـ الأدب الاسبانى

وكان على النفوذ الإيطالى فى الأدب أن يتريث فى الوقت الذى تبادلت فيه أسبانيا التأثير مع فرنسا فى القرون الوسطى . وربما أخذ التروبادور فى برفانس عن أسبانيا الإسلامية والمسيحية ، قوالبهم وأخيلتهم الشعرية ومع ذلك فقد أرسل جون الأول ملك أرجون وفدا إلى شارل الرابع ملك فرنسا (١٣٨٨) يطلب مجىء — التروبادور من تولوز إلى برشلونة ، لينشئوا فيها فرعا من فرقتهم ، الحكمة المرحة وتحقق له ذلك وعقدت المطارحات الشعرية فى برشلونة وطرطوشة على النهج البروفانسى ، وشغفت الأقلية المتعلمة فى أرجون وقشتالة بنظم الشعر وإلقائه . وأنشد منشدون جوالون القصائد الغنائية فى الحب أو العقيدة أو — الحرب بمصاحبة آلات وترية بسيطة .

وإذا كان الجيل الثانى فقد أيد جون الثانى ملك قشتالة النماذج الشعرية الإيطالية . وانتشرت فى شبه الجزيرة الأيبيرية طرائف النظم الإيطالى وأوزانه عن طريق نابولى وصقلية ، حيث حكم الإسبان ، وعن طريق جامعة بولونيا ، حيث تعلم الشباب الإسبانى مثل آل بورجيا ، ووجد دانتى وبترارك مقلدين لها مشغوفين بهما باللسان القشتالى . وكانت مقطعات الشعراء الإسبان الغنائية تجمع بين وآخر فى دواوين الشعر الغنائى cancioneros ، وهى أناشيد فروسية العاطفة بتراركية الأسلوب . واستورد ماركيز سنتيلانا — وهو سياسى وباحث وراعية للأدب وشاعر — قالب المقطوعة الغنائية فى إيطاليا ، وسرعان ما صنف تاريخا للأدب . وقلد جوان ده مينا ، دانتى

تقليداً صريحاً فى ملحمة شعرية ، عنوانها « قصر التيه » وقد فعلت الكثير لتجعل اللغة القشتالية لغة أدبية ، مثلما فعلت الكوميديا الإلهية ، للغة الحديثة التسكانية وسبق دون جوان مانويل فى الوقت نفسه بوكاشيو ، فى كتابة حكايات درامية اقتبس شكسبير من إحداها الشخصية التى لا يمكن تصديقها لبتروشيو فى ترويضه النمرة .

وظلت الرومانس تجد لها مدخلا لكل طبقات القراء . وترجمت أماديس دوجولا إلى الإسبانية (١٥٠٠) على يد جارسا أردونيه ، الذى أكد لقرائه ، أنه استحدث فى الأصل البرتغالى تنقيحا كبيراً ، وما دامت هذه الترجمة قد ضاعت فنحن لا نستطيع أن نخالفه . أماديس ابن غير شرعى لأميرة بريطانية خيالية ، وقد ألقت به أمها فى البحر . فأنقذه فارس اسكتلندى وصار وصيفا للملكة اسكتلنده . ويترك ليوزيرات ملك إنجلترا ابنته أوريانا التى تبلغ من العمر عشرة أعوام فى البلاط الاسكتلندى ، ليخمد ثورة مغتصب لملكه . وتعين الملكة أماديس الذى يبلغ من العمر اثني عشر عاما وصيفا لاوريانا قائلة « هذا طفل يقوم على خدمتك » . . فأجابت إن هذا يسرها . واحتفظ الطفل بهذه الكلمة فى قلبه ، على نحو لم تفارقه بعد ذلك قط . . . ولم يكل قط ، طوال أيام حياته من خدمتها . وهكذا بقى حبهما مابقيا ، ولكن أماديس الذى لم يعرف مطلقا مدى حبها له ، رأى نفسه جسوراً فى أن يحصر أفكاره فيها وقد أدخل فى اعتباره عظمتها وجمالها ، ولم يجسر قط ، أن يتفوه بكلمة معها وهى أيضا ، وان أحبته من قلبها ، حرصت على ألا تكلمه أكثر مما تكلم غيره ، ولكن عينيها وجدت السلوى العظيمة فى أن تبدى لقلبها أعظم ما تحبه فى الدنيا .

ومن المطمئن أن نعلم أن حبهما قد انتصر بزواجهما ، بعد محن بلغت من الكثرة فى القصة قبل الزواج ، ما بلغته بعد ذلك فى الحياة . وفى هذه الحكاية الطويلة لحظات كثيرة تزخر بالعاطفة وبعضها يتسم بالنبل ، وإذا

كان سرفانتيس ، قد أقسم أن يمحو كل هذا النوع من القصص الخيالى فإنه أبقى هذه باعتبارها أحسنها .

وتعد الرومانس مورداً واحداً من موارد الدراما ، التى انبثقت ببطء من مسرحيات المعجزات والأخلاقيات ، فى صورة الهزليات الشعبية ومسرحيات التنكر الخاصة بالبلاط . وأقدم وقت معاوم فى تاريخ الدراما الاسبانية هو عام ١٩٤٢ ، عندما ظهرت على المسرح المحاورات الدرامية لخوان دل انسينا وسار فرناندو ده روجاس وهو من المتنصرين خطوة أخرى نحو الدراما بتأليفه La Celestina ، « القوادة » (١٤٩٩) وهى قصة تسرد بطولتها فى كل شكل حوار ، وتنقسم إلى اثنين وعشرين فصلا ، وكانت أطول من أن تمثل على المسرح ، بيد أن تشخيصها الحى وحوارها المشرق قد مهدا للكوميديا الإسبانية الإنسانية الكلاسيكية .

وكانت الكنيسة تعمل على تعويق الدراسات وتشجيعها معا . بينما فيينا أخذت محكمة التفتيش تراقب الفكر ، فإن صفوة رجال الدين قد عملوا الكثير من أجل التربية والتعليم . وجلب الإيطاليون من أمثال بيترو مارتيره وانجيرا ، الذى جاء إلى إسبانيا عام ١٤٨٧ ، أخبار الحركة الإنسانية ، كما عاد الأسبان الذين تعلموا فى إيطاليا بعدوى التحمس لها . واستجاب بيتر مارتير لطلب الملكة فافتتح فى بلاطها ، كما فعل الكوبن لشرمان قبل ذلك بسبعة قرون ، مدرسة لتعليم الآداب واللغات الكلاسيكية . ودرست الأميرة جوانا اللاتينية فى جد ومثابرة قبل أن تصاب بالجنون . وكتب بيتر نفسه التواريخ الأولى للكشوف الجغرافية فى أمريكا ، بعنوان « فى أمور المحيطات وفى أمور الكرة الأرضية الجديدة (١٥٠٤)» De rebvs Oceanis et novo oibe والكلمتان الأخيرتان تسايران استعمال فسبوتشى (١٥٠٢ ؟) لهما قبل ذلك لتدل على العالم الجديد .

وأسهم الكاردينال اكسيمنيس ، الذى كان إيمانه صارما حاداً كالصلب فى الحركة الكلاسيكية . وقد أسس عام ١٤٩٩ كلية الدوفنسو ، وفى عام

١٥٠٨ جامعة القلعة . وهناك بدأ ، عام ١٥٠٢ ، تسعة من اللغويين تحت إشرافه بأحد الأعمال الكبيرة للنهضة العلمية ، وهو « الكتاب المقدس[1] بعدة لغات » Biblia polyglotta compluti وهو أول نسخة كاملة للكتب المقدسة المسيحية باللغات الأصلية . ولقد أضاف الناشرون إلى النص العبرى الماسوريتى للعهد القديم والنص اليونانى للعهد الجديد ، على عمود متقابل أو تعليق ، الترجمة اليونانية وترجمة جيروم للاتينية وشرحا سريانيا للتوراة . فتح ليو العاشر ، لمعاونى اكسيمنيس ، خزائن مخطوطات الفاتيكان ، ونشر ثلاثة من اليهود المتنصرين علمهم العبرى ، وتم تحقيق هذه النصوص عام ١٥١٧ ولكن المجلدات الستة لم تطبع إلا عام ١٥٢٢ . وأحس اكسيمنيس بالوفاة ، فاستحث علماوءه . قائلا : « لا تضيعوا وقتا فى تنفيـــذ عملنا المجيد ، وإلا ، فقدتم فى خضم حوادث الحياة داعيكم أو قدر على أن أندب فقد أولئك الذين خدماتهم أعظم فى نظرى من كنوز الدنيا وأمجادها » ، وقدم إليه المجلد الأخير قبل وفاته بأشهر قليلة مع تحيات أصدقائه . وقال لهم إنه لا يوجد بين جميع أعمال إداراته ما هو أحق من هذا بتهنئتهم . وشرع إصدار نصوص أرسطو بالطريقة نفسها ، مع ترجمة لاتينية جديدة لها . ولكن المنية حالت بينه وبين ذلك .

٩ ـ موت الملك

سبقت ايزابلا وزيرها الناشط فى المغامرة الكبرى فقد كانت على الرغم من قساوتها ، امرأة عميقة الإحساس ، احتملت ملمات أشد وطأة من الحروب . فقد دفنت أمها عام ١٤٩٦ . ومات من أطفالها العشرة خمسة عند الولادة أو فى سن الطفولة ، ومات اثنان آخران فى الشباب المبكر .

---

(١) نسبة إلى كمبلوتم ، ومعناها مثمر ، وهو الاسم اللاتينى القديم لمدينة القلعة .

وفقدت ابنها الوحيد عام ١٤٩٧ ، وهو أملها الوحيد فى وراثة طبيعية للعرش ، كما ماتت أحب بناتها عام ١٤٩٨ ، وهى ملكة البرتغال ، التى ربما وجدت شبه الجزيرة توحيدا سلميا لو قدرت لها الحياة . وكابدت وسط هذه الضربات المأساة اليومية وهى تشاهد ابنتها جوانا ، التى كانت وقتذاك ولية للعهد ، تفقد عقلها ببطء .

وكانت جوانا قد تزوجت فيليب الجميل ، دوق برجندى وابن الإمبراطور مكسيمليان الأول (١٩٤٦) وأنجبت منه إمبراطورين مقبلين هما شارل الخامس وفرديناند الأول . وأهملها زوجها فيليب إما لمزاجها المتقلب ، أو لسفاهتها ، واستمر على اتصال بإحدى سيدات بلاطها فى بروكسل ، وجزت جوانا شعرها الخلاب فأقسم زوجها ألا يضاجعها — وسمعت ايزابلا بهذا كله . فوقعت مريضة وفى الثانى عشر من أكتوبر عام ١٥٠٤ كتبت وصيتها . بأن يحتفل بجنازتها أبسط احتفال وأن المال المدخر من هذا الصنيع يجب أن يوزع على الفقراء ، وأن تدفن فى دير فرنسسكانى داخل الحمراء ، وأضافت : ولكن إذا رأى مولاى الملك أن يكون جدثه فى مكان آخر نوصيتى أن ينقل جثمانى إلى جواره ، وأن الاتحاد الذى نعمنا به فى هذه الدنيا ، وقد تقتضى رحمة الله أن تتحد معا روحانا مرة أخرى فى الآخرة ، ويمثله اتحاد جسمينا فى الثرى » وماتت فى الخامس عشر من نوفمبر عام ١٥٠٤ ودفنت كما أوصت ، حتى إذا مات فرديناند نقل جثمانها ليدفن إلى جواره فى كتدرائية غرناطة . وكتب بيتر مارتير « لقد فقدت الدنيا أنبل زينتها ، لا أعرف أحداً من جنسها فى العصور القديمة أو الحديثة ، جديرة على الإطلاق بأن يوضع اسمها مع هذه المرأة التى لا تضارع » . (لقد كانت مرجريت ملكة السويد بعيدة عن مجال إدراكه ، كما أن اليزابث ملكة انجلترا كانت كذلك لم تأت بعد) .

وقد عينت وصية إيزابلا ، فرديناند ليكون نائب ملك على قشتالة

من أجل فيليب الذى تمثلته الأراضى الواطئة ومن أجل جوانا التى تسرع الخطى نحو الاعتصام بالجنون . وكان أمل فرديناند أن يمنع سقوط العرش الأسبانى فى يد آل هبسبرج ، فى شخص شارل بن فيليب ، فبادر وهو فى الثالثة والخمسين إلى الزواج (١٥٠٥) من جرمين ده فوا ، ابنة أخى لويس الثانى عشر ، والبالغة من العمر سبعة عشر عاماً ، ولكن الزواج ضاعف من سخط النبلاء القشتاليين على مولاهم الأرجونى . وماتت ثمرة هذا الزواج فى سن الطفولة . فطالب فيليب بعرش قشتالة ، ووصل إلى اسبانيا ورحب به النبلاء (١٥٠٦) بينما انسحب فرديناند إلى مقره باعتباره ملكا على أرجون . وبعد ذلك بثلاثة أشهر مات فيليب ، واستعاد فرديناند ملك قشتالة باسم ابنته المخبولة . وظلت جوانا لا لوكا ، ملكة من الناحية القانونية ، وعاشت إلى عام ١٥٥٥ ، ولم تترك قصرها فى تورديزبلاس إطلاقاً ، بعد عام ١٥٠٧ ، وكانت تأبى الاغتسال أو ارتداء الثياب ولم تكل يوماً بعد يوم عن النظر من خلال إحدى النوافذ إلى المدافن التى تضم رفات الزوج الخائن الذى لم تنقطع عن محبته .

وحكم فرديناند حكماً مطلقاً وهو نائب ملك أكثر مما كان وهو ملك فقد تحرر من تأثير إيزابلا الملطف ، وتحولت عناصر الصلابة والانتقام فى شخصيته إلى التصلب الصارم . وكان قد استعاد قبل ذلك روسيلون وسردينيا (١٤٩٣) كما فتح جونزالو أمير قرطبة باسمه نابولى عام ١٥٠٣ . ونقض ذلك معاهدة وقعها فيليب مع لويس الثانى عشر فى ليون تقسم مملكة نابولى بين أسبانيا وفرنسا : وأكد فرديناند للعالم بأن فيليب تجاوز تعليماته . وأبحر إلى نابولى واستولى بشخصه على عرشها (١٥٠٦) وساوره الشك فى رغبة جونزالو فى العرش لنفسه ! ولما عاد إلى أسبانيا (١٥٠٧) أخذ معه القيطان الكبير وأسلمه إلى عزلة عدها معظم أهالى أسبانيا إذلالا لا يستحقه .

وسيطر فرديناند على كل شىء إلا الزمن . وغاضت ينابيع الإرادة والنشاط فيه شيئاً فشيئاً . وطالت فترات راحته . وأصابه الإنهاك مبكراً ، فأهمل شئون الحكومة ، وأصبح نافذ الصبر قلقاً ، سيئ الظن إلى حد المرض بأوفى خدامه له . وأضناه الاستسقاء والربو ، وتعذر عليه التنفس فى المدن فمر فى يناير عام ١٥١٦ جنوبا إلى الأندلس ، آملا أن يقضى الشتاء فى ريفه الطلق . ولكنه مرض فى الطريق ، وأقنع آخر الأمر بأن يتأهب للموت . فعين أكسيمينيس ليكون نائب الملك على قشتالة ، كما عين ابنه غير الشرعى كبير أساقفة سرقسطة ، نائب الملك على أرجون . وبات فى الثالث والعشرين من يناير عام ١٥١٦ فى السنة الرابعة والستين من عمره ، والثانية والأربعين من حكمه .

ولا غرابة فى أن يمتدحه مكيافلى فيقول : كان هنا ملك قام بدور الأمير قبل أن يفكر مؤلفه فى كتابته . فقد جعل فرديناند من الدين أداة للسياسة القومية والحربية ، وغمر وثائقه بعبارات التقوى ولكنه لم يسمح لاعتبارات الأخلاق قط أن تتغلب على مقاصد الضرورة أو الغنم . ولا يستطيع أحـــد أن يشك فى قدرته وكفاءته فى الإشراف على الحكومة ، واختياره الفطن لوزرائه وقواده ونجاحه المستمر فى الدبلوماسية والاضطهاد والحرب . أما من الناحية الشخصية فلم يكن جشعاً ولا مبذراً ، وكانت شرته تنزع إلى تحقيق السلطة أكثر من تحقيق الترف ، وكان جشعه من أجل بلاده ، يريدها موحدة قوية . ولم يؤمن بالديمقراطية ، وتضاءلت فى كنفه الحريات المحلية وماتت وكان مقتنعاً بأن النظم الإقليمية القديمة لا يمكن التوسع فيها بنجاح أمة تضم ولايات وعقائد ولغات جد كثيرة . وكان عمله وايزابلا معه أن يحل الملكية محل الفرضى والقوة محل الضعف ومهد الطريق لشارل الخامس أن يحتفظ بالسيادة الملكية على الرغم من فترات غيبته الطويلة ، كما مهد الطريق لفيليب الثانى ليركز الحكومة كلها فى رأس واحد

قاصر . وكان آثماً من أجل تحقيق هذه الأغراض بما يعد فى زماننا همجية وتعصباً وقسوة غيرإنسانية ، ولكن يعد عند معاصريه نصراً مجيداً من أجل المسيح .

وحافظ أكسيمنيس باعتباره نائب الملك بحماسة على حكم العرش المطلق ، ولعله كان بديلا من الارتداد إلى الانقسام الإقطاعى . وهو وإن كان فى الثمانين من عمره ، فقد حكم قشتالة بإرادة صلبة ، وقضى على كا محاولة من الإقطاع أو المجالس البلدية لاستعادة سلطاتها السابقة ، فلما سأله بعض النبلاء بأى حق يمنع امتيازاتهم ، لم يشر إلى وثيقة إسناد المنصب إلى شخصه وإنما أشار إلى المدفعية فى فناء قصره . ومع ذلك كانت إرادة السلطة عنده تابعة لإحساسه بالواجب ، لأنه استحث الملك الشاب شارل مراراً على أن يترك فلاندرز وأن يحضر إلى أسبانيا ليتولى ملكها . ولما جاء شارل (١٧ سبتمبر ١٥١٧) سارع اكسيمينيس شمالا لاستقباله . ولكن مستشارى شارل الفلمنكيين أيدوا نبلا قشتالة فى إعطائه تقريراً ضد إدارة الكاردينال وشخصيته ، حتى بعث الملك ، وكان لا يزال فتى غير ناضج فى السابعة عشرة من عمره ، إلى اكسيمينيس ورسالة يشكره فيها على خدماته ، مرجئا مقابلته مطالبا إياه بأن ينسحب إلى مقره الدينى فى طليطلة لينعم براحة يستحقها . وبعث بعدها برسالة أخرى يعفى المتزمت العجوز من جميع المناصب السياسية ، وبلغته الرسالتان متأخرتين حتى لا يضاعفا من إذلاله ، فقد مات فى الثامن من نوفمبر عام ١٥١٧ بالغا من العمر واحداً وثمانين عاما . وعجب الناس من أنه على الرغم من صلاحه فى الظاهر فقد جمع الثروة الشخصية الضخمة التى خلفتها وصيته إلى جامعة القلعة .

وختم لإسبانيا عصراً غنيا بالأمجاد والأهوال والرجال الأقوياء . ويوحى الأعقاب على هذه الأحداث بأن انتصار التاج على المجالس النيابية والولايات قد أزال الوسيلة التى كانت الشخصية الإسبانية تستطيع بوساطتها أن تعبر وتحافظ

على استقلالها وتنوعها وأن توحيداً قد استتب فى مقابل أن يسيطر على اسبانيا جهاز يعمل على قمع الفكر الأصيل فى أوليات الأشياء وأواخرها ، وأن إجلاء اليهود والمسلمين الذين لم يتنصروا ، قد أنقص من القوة البشرية المعاملة فى التجارة والصناعة فى نفس الوقت الذى تطلب اكتشاف العالم الجديد فيه التوسع والتقدم الاقتصاديين ، وأن تورط أسبانيا المستمر فى سياسات وحروب فرنسا وإيطاليا (ثم فلاندرز وألمانيا وإنجلترا) وضعت أثقالا لا تحتمل على كاهل موارد الأمة فى المال والرجال ، بدلا من تحويل السياسة والمغامرة نحو تطوير الأمريكيتين ومع ذلك فهذه نظرة خلفية وهى تحكم على اسبانيا فى عهد فرديناند وايزابلا باصطلاحات لا يستطيع شعب أوربى فى عصرهما فهمها . فقد اضطهدت جميع الفرق الدينية ، اللهم إلا قليلا من المسلمين ومنكرى تعميد الأطفال ، المخالفة فى الدين ، واستعملت جميع الحكومات ، إيطاليا وفرنسا الكاثولكيتان وألمانيا وإنجلترا البروتستانتيان ، القوة فى توحيد العقيدة الدينية ، واستشعرت جميع الدول الظمأ إلى ذهب جزائر الهند — الشرقية والغربية — وكلها توسلت بالحرب والدهاء الدبلوماسى لتؤكد بقاءها وتوسع حدودها أو تزيد من ثروتها .

ولم تكن المسيحية عند جميع الأمم المسيحية حكما بالوسائل وإنما كانت وسائل إلى الحكم ، وكان المسيح أثيراً عند الشعب وميكافلى أثيراً عند الملوك . وقد حضرت الدولة الإنسان من بعض الوجوه ، ولكن من ذا الذى يحضر الدولة ؟ .

الفصل الثالث عشر

نمو المعرفة (١٣٠٠ – ١٥١٧)

١ – السحرة

لم يزل القرنان اللذان صور تاريخهما الأوربى تصويراً مجملا سريعاً فى الفصول السابقة ، يعدان جزءاً مما اصطلح على تسميته بالعصر الوسيط وهو ما نستطيع أن نحدده تحديداً تقريبياً بأنه سيرة أوربا بين قسطنطين وكولمبس ، أى من ٣٢٥ إلى ١٤٩٢ . وإذا أردنا أن نلخص الآن العلم والتربية والفلسفة فى غرب أوربا إبان القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، فيجب أن نتذكر أن الدراسات العقلية كان عليها أن تحارب من أجل الحصول على التربية والهواء فى غابة من الخرافة والتعصب والخوف . وبين أحداث القحط والطواعين والحروب ، وفى الفوضى الضاربة على البابوية الشاردة والمنقسمة على نفسها بحث الرجال والنساء فى القوى الخفية عن بعض التفاسير لما ينزل بالإنسانية من شقاء خفى وعن قوة سحرية ما تتحكم فى الأحداث ، وعن ضرب من الفرار الصوفى من الواقع المرير ، وسارت حياة العقل متعثرة فى وسط من العرافة والسحر واستحضار الأرواح وقراءة الكف وفراسة الدماغ والاستنباء بالعدد والعيافة والطيرة والتنبؤ وتفسير الأحلام وطوالع النجوم والتحويل الكيميائى للمواد والعلاج بالخوارق وللقوى الخفية فى الحيوان والمعدن والنبات . ولا تزال هذه الأعاجيب حية فى أعطافنا اليوم ، وتظفر هذه أو تلك منها بالولاء الصريح أو الخفى من كل واحد منا تقريباً ولكن تأثيرها الحالى فى أوربا اليوم أقل بكثير من سلطانها فى العصور الوسطى . .

ولم تدرس النجوم من أجل هداية السفن أو تحديد المواسم الدينية فحسب وإنما درست من أجل التنبؤ بما يقع على الأرض من أحداث وما يخبأ للأشخاص من مصير . ويبدو أن التأثير النافذ للمناخ والفصول وعلاقة المد والجذر بالقمر والتوقيت القمرى للطمث عند المرأة واعتماد الزراعة على أحوال السماء وكيفياتها ، إنما تبرر مزاعم التنجيم بأن سماء اليوم تكشف عن أحداث الغد . وكانت أمثال هذه التنبؤات تنشر بانتظام (كما هو الحال الآن) وتبلغ جمهوراً كبيراً متعطشاً لها . ولم يكن الأمراء يجسرون على القيام بحملة أو واقعة أو رحلة أو تشييد بناء إلا إذا حصلوا على تأكيد من المنجمين بأن النجوم فى أوضاع ملائمة لهذه الأغراض . ولقد حرص هنرى الخامس ملك انجلترا على الاحتفاظ باصطرلاب ابرسم خريطة السماء ، ولما جاء زوجته المخاض قرأ بنفسه طالع الطفل وكان بلاط متياس كورفينوس الذى يضم صفوة المثقفين يرحب بالمنجمين ترحيبه بعلماء الإنسانيات .

واعتقد الناس أن الملائكة تهدى النجوم ، وأن الهواء يزخر بالأرواح — الخفية ، بعضها من الجنة وبعضها من الجحيم . وسكنت العفاريت كل مكان وبخاصة فى مخدع الإنسان ؛ وينسب إليها بعض الرجال ما يسلب منهم بالليل كما نسب إليها بعض النساء ما يصيبهن من حمل فى غير أوانه ، وأجمع علماء الدين على أن أمثال تلك الخطيات الخبيثات لهن وجود حقيقى ويستطيع كل امرئ ساذج فى كل منعطف وكل لحظة أن يخرج من عالم الحس إلى مماكة من الكائنات والقوى المسحورة . ولكل شىء طبيعى صفات خارقة . وكانت كتب السحر من أروج الكتب فى ذلك العصر . ولقد عُذب أسقف كاهورز وجلد وألقى به فى المحرقة (١٣١٧) بعد أن اعترف بأنه أحرق تمثالا من الشمع للبابا يوحنا الثانى والعشرين آملا أن يلقى الأصل مصير الشمع ، كما وعد بذلك فن السحر . واعتقد الناس أن فطير القربان بتقديس القسيس ينزف دم المسيح إذا خدش .

وخبت شهرة الكيماويين ، ولكنهم استمروا فى أبحاثهم الأمينة وخدعهم البراقة على السواء وفى الوقت الذى أنكرتهم فيه المراسيم الملكية والبابوية فقد أقنعوا بعض الملوك بأن الكيمياء قد تفعم الكنوز متى نضبت ، وكان السذج يبتلعون « الذهب المذاب » الذى أكد لهم أنه يشفى كل شيء إلا الغفلة (ولا يزال المرضى والأطباء يتعاطون الذهب فى علاج داء المفاصل) . .

ونافس علم الطب فى كل خطوة من خطواته ، التنجيم وعلوم الدين والدجل . ونسب جميع الأطباء تقريباً تشخيص مرض من الأمراض إلى البرج الذى ولد أو مرض فيه المريض ، وهكذا كتب الجراح العظيم جى ده شولياك (١٣٦٣) : « إذا جرح امرؤ فى عنقه والقمر فى برج الثور ، فالإصابة خطيرة » ومن أقدم الوثائق المطبوعة ، تقويم نشر فى منز (١٤٦٢) يبين أحسن الأوقات من ناحية طوالع النجوم لفصد الدم . ونسبت الأوبئة بين جمهرة الناس إلى اجتماع سيئ الطالع بين النجوم . وأرجع ملايين المسيحيين ، الشفاء إلى العقيدة وربما كان ذلك لخيبة أملهم فى الطب . وذهب آلاف إلى ملوك فرنسا وإنجلترا يستشفون من الدرن الخنزيرى بلمسة ملكية ويبدو أن هذه العادة قد بدأت بلويس التاسع الذى أدت قداسته إلى الاعتقاد بقدرته على عمل المعجزات . وظن الناس أن قوته ، قد انتقلت منه إلى خلفائه ، كما انتقلت عن طريق ايزابلا أميرة فالوا ، وهى أم إدوارد الثالث ، إلى ملوك انجلترا . وحج آلاف أكثر إلى أضرحة تشفى المرض ؛ وحولوا بعض القديسين إلى أطباء متخصصين ، وهكذا اكتظت كنيسة القديس فيتوس بالمصابين بداء الرقص الزنجى : إذ ساد الاعتقاد بأن هذا القديس متخصص فى علاج هذا المرض وأصبح قبر بيير ده لكسمبورج : وهو كاردينال مات فى الثانية عشرة من عمره بسبب غلوائه فى الزهد ، مزاراً محبباً ، ونسب شفاء ألف وتسعمائة وأربعة وستين

شخص إلى قدرة عظامه السحرية ، وذلك فى خلال خمسة عشر شهراً من وفاته . وراجت صناعة الدجالين ، ولكن القانون بدأ يقاومهم . ففى عام ١٣٨٢ حكم على روبجر كابرك ، الذى ادعى علاج المرضى بالرقى ، أن يسير فى شوارع لندن راكباً وقد علقت المباول حول عنقه .

واعتقد معظم الأوربيين فى السحر ، أو بعبارة أخرى ، فى قوة بعض الأشخاص على التحكم فى الأرواح الشريرة والحصول على معاونتها — لقد كانت القرون المظلمة متنورة نسبياً فى هذه الناحية . ولقد أنكر القديسان بونيفاس واجوبارد الاعتقاد فى السحر باعتباره ذنباً وعملا يوجب السخرية ، وجعله شارلمان جريمة يعاقب مقترفها بالإعدام وكان يشنق كل شخص يتهم بصناعة السحر ، وحرم البابا جريجورى السابع هلدبراند ، على محكمة التفتيش ، أن تحاكم السحرة على أنهم السبب فى العواصف والطواعين ولكن تأكيد الوعاظ لحقيقة جهنم ومكائد إبليس أذكى الاعتقاد الشعبى فى وجود الشيطان وشره فى كل مكان أو وجود أحد أعوانه ، وكم من عقل مريض أو نفس يائسة اعتصمت بفكرة استحضار أمثال هذه الشياطين لمعاونتها . واتهم بالسحر أنواع شتى من الناس ، يدخل فيهم البابا بونيفاس الثامن . ولقد شنق الرجل الإستقراطى انجراند ده مارينى بتهمة السحر عام ١٣١٥ ، وأمر البابا جون الثانى والعشرون عام ١٣١٧ بقتل عدد من الأشخاص غير المعروفين ، لأنهم دبروا اغتياله مستعينين بالشياطين . وأنكر جون مراراً الالتجاء إلى الشياطين وأمر باضطهاد من يقترفه ، وفرض العقوبات عليه ، ولكن الناس فسروا مراسيمه بأنها تؤيد اعتقادهم فى وجود القوى الشيطانية وإمكان الانتفاع بها . وتضاعف الاتهام بالسحر بعد عام ١٣٢٠ ، وشنق كثير من المتهمين أو ألقى بهم فى المحرقة . وساد فى فرنسا الرأى القائل بأن شارل السادس قد أصيب بالجنون بوسائل سحرية ، واستخدم ساحران لإعادة العقل إليه ، فلما أخفقا جز رأساهما (١٣٩٧) .

وفى عام ١٣٩٧ أصدرت كلية أصول الدين بجامعة باريس ، ثمانية وعشرين مقالة تحرم السحر ، وإن اعترفت بقدرته بين حين وآخر . وعد قاضى القضاة جرسون أن من الهرطقة أن يناقش المرء وجـود الشياطين أو نشاطها .

أما الكهانة فهى ممارسة السحر بوساطة أشخاص نسبوا إلى عبادة إبليس باعتباره كبير الشياطين الذين يعملون على استخدامها فى اجتماعات ليلية أو سبتية . ويذهب الاعتقاد الشعبى إلى أن السحرة ، وأغلبيتهم من النساء يزودون بقوى خارقة فى مقابل عبادتهم لإبليس . وانتدابهم على هذا الوجه يجعلهم يسيطرون على النواميس الطبيعية ، ويجلبون النحس أو الموت لمن يريدون . رأيد علماء أمثال ارازمس وتوماس مور وجود الكهانة فى الواقع ، وشك فيها بعض القسس فى كلونيا ، وأيدت وجودها جامعة كلونيا . وزعم معظم رجال الكنيسة — ويوافقهم فى ذلك بعض المؤرخين من غير رجال الدين إلى حد ما — أن الاجتماعات السرية بالليل إنما هى تعلات لعلاقات جنسية مختلطة ولتحريض الشباب على الفسق . واعترف بعض السحرة اعترافا مزعوماً لشخص أو لآخر بالأعمال الشريرة التى أسندت إليهم ، وذلك إما بوساطة وهم مخبول ، وإما للتخلص من التعذيب ، ولعل هؤلاء السحرة الشعبيين قد قاموا بما يشبه التحدير النهائى لمسيحية مثقلة ، وبنزعة ترفيهية من ناحية ومتمردة من ناحية أخرى لعبادة إبليس باعتباره العدو القوى لإله يحكم على كثير من المباهج بالكبت ويلقى بكثير من الأرواح فى الجحيم ، وقد تذكر هذه الشعائر الخفية وتؤكد من جديد العقائد فى الأعياد الوثنية لآلهة الأرض والحقل والغابة الخاصة بالتناسل والإخصاب أمثل باخوس وبريابوس وسيريس دفلورا .

واجتمعت جهود الأوساط المدنية والدينية على قمع ما رأوه أكبر فساد وكفر . وانتدب عدد من البابوات — فى الأعوام ١٣٧٤ و ١٤٠٩

و١٤٣٧ و١٤٥١ وبخاصة البابا انوسنت الثامن عام ١٤٨٤ -عملاء فى محكمة التفتيش للتصرف مع السحرة باعتبارهم هراطقة منبوذين ، تصيب جرائمهم ووسائلهم الثمرات والأرحام بالأذى ، وقد تحول مزاعمهم جماعات بأسرها إلى الشيطنة واعتمد البابوات اعتمادا حرفيا على آية فى سفر الخروج (الأصحاح ٢٢ ; الآية ١٨) « لن تترك ساحرة تعيش » . ومع ذلك فإن المجالس الكنسية قبل سنة ١٤٤٦ كانت تكتفى بالعقوبات المعتدلة إلا إذا كان المذنب السابق العفو عنه قد عاد إلى سابق إجرامه . ولقد أحرقت محكمة التفتيش عام ١٤٤٦ ، عددا من السحرة فى هيلدلبرج ، وأحرقت عام ١٤٦٠ اثنى عشر رجلا وامرأة فى أراس ، وأطلق عليهم الفودوا كما أطاق على الهراطقة (waldenses) وقام السحرة فى فرنسا برحلة عبر الاطلنطى حتى أطلقت كلمة فودوويزم voodooism على سحر الزنوج فى المستعمرات الفرنسية فى أمريكا . وفزع جاكوب سبرنجر قاضى محكمة التفتيش الدومينيكى فزعا شديدا من انتشار السحر فأصدر عام ١٤٨٧ دليلا رسميا لمطاردة السحرة عنوانه : « مطرقة السحرة » . وقدم مكسميليان الأول وكان إذ ذاك ملك الرومان لهذا الدليل برسالة تقريظ قال فيها أعظم أثر هائل ضد الخرافة أنتجه العالم . وقال سبرنجر إن هؤلاء النسوة الشريرات بتقليب خميرة شيطانية فى قدر أو بوسائل أخرى ، يستطعن إحضار أسراب من الجراد والديدان لتلتهم محصولا كاملا ، وهن يستطعن أن يصبن الرجال بالعقم ويجعلن النساء عقيمات ، ويغضن لبن المرضع أو يجهضن الحامل ، ويستطعن بنظرة واحدة فقط أن يجلبن الحب أو الكراهية ، المرض أو الوفاة . ويخطف بعضهن الأطفال ويشوينهم ويأكلونهم . ويستطعن رؤية الأشياء عن بعد ويتنبأن بالجو ، وفى إمكانهن أن يحولن أنفسهن أو غيرهن إلى حيوانات . وأبدى سبرنجر ، دهشته لماذا يفوق الساحرات عدد السحرة من الرجال ، وختم بحثه بقوله إن ذلك لأن النساء أخف رؤوسا وأكثر

شهوة من الرجال ، وأضاف أنهن ، إلى هذا كله ، وسائل محبوبة دائمة لإبليس . ولقد أحرق ثمانية وأربعين منهن فى مدى خمس سنوات . ومنذ عهده ، زاد هجوم رجال الدين على صناعة السحر حتى بلغ أوجه فى القرن السادس عشر ، فى كنف الكاثوليك والبروتستانت على السواء ، وبهذا الضرب من العنف الهائل تفوقت الأزمنة الحديثة ، على العصور الوسطى. وفاخر أحد موظفى محكمة التفتيش عام ١٥٥٤ ، بأن محكمة التفتيش ، قد أحرقت ثلاثين ألفا من السحرة على الأقل ، وإذا تركوا بلا عقاب فقد ينزلن الخراب بالعالم كله .

ولقد ألفت كتب كثيرة فى هذا العصر لمحاربة الخرافات وتحتوى كلها على خرافات . ووجه أجوستينو ترينفو إلى البابا كلمنت الخامس ، رسالة ينصحه أن يحرم السحر الخفى ولكن ترينفو رأى أن الطبيب لايغتفر له أن يجرى فصادا فى مراحل معينة من أوجه القمر . ووجه البابا جون الثانى والعشرون ضربات قاسية للكيمياء (١٣١٧) والسحر (١٣٣٧) ، ونعى ما ظنه انتشارا متزايدا لتقديم القرابين إلى الشياطين ، وأخذ العهود على إبليس وصناعة التماثيل والخواتم والأمزجة للأغراض السحرية ، وأصدر قراراً تلقائياً بالحرمان ضد جميع الذين يمارسون هذه القوانين ، ولكنه أضمر اعتقادا فى قدرتها .

وكان نيقولا أرزم هو الخصم العنيد للتنجيم فى ذلك العصر ، وقد توفى وهو أسقف ليزيوه عام ١٣٨٢ . وسخر من المنجمين ، الذين لا يستطيعون تحديد جنس الطفل قبل ولادته وإن زعموا أنهم يستطيعون التنبؤ بمصيره على الأرض بعد ولادته ، وقال أرزم إن مثل هذه الطوالع حكايات يسردها الزوجات العجائز وكتب مرددا عنوان شيشرون وجهده قبل ذلك بأربعة عشر قرنا رسالة عن : « قراءة الغيب » فى الرد على مزاعم العرافين ومفسرى الأحلام وأمثالهم . ولقد سلم وسط شكه فى العلوم الخفية بصفة

عامة ، بأن بعض الأحـــداث يمكن أن تفسر بأنها من عمل الشياطين أو الملائكة . وقبل فكرة « عين الحسود » : وظن أن المجرم يعتم المرآة بنظره فيها . وأن نظرة الوشق[1] قد تخترق الحائط . واعترف بالمعجزات التى فى الكتاب المقدس ، ولكنه رفض التفسيرات الخارقة إذا كانت العلل الطبيعية تكفى للتفسير وقال نيقولا : إن كثيرين من الناس يصدقون السحر لأنهم يفتقرون إلى معرفة العلل والتطورات الطبيعية . وهم يقبلون بالسماع ما لم يروه ، ولذلك قد تصبح أسطورة — مثل ساحر يتسلق حبلا ألقى به فى الهواء — عقيدة شائعة (وهذه هى أول رواية تذكر فيها أسطورة تسلق الحبل) واحتج أرزم تبعاً لذلك بأن انتشار عقيدة ما ليس دليلا على صدقها بل إذا شاهد كثير من الناس حادثة تناقض تجربتنا العادية للطبيعة فيجب أن تتردد فى تصديقهم . يضاف إلى ذلك أن الحواس من السهل خداعها فإن ألوان الأجسام وأشكالها وأصواتها تختلف تبعاً لمسافة أعضاء الحواس وأضوائها وحالاتها ، والجسم وهو ساكن قد يبدو متحركا ، والتحرك قد يبدو ساكنا ، وتبدو قطعة النقود الموضوعة فى قاع قنينة مملوءة بالماء ، أبعد منها فى قنينة فارغة . ويجب أن تفسر الأحاسيس بالفعل ؛ وهذا أيضاً عرضة للخطأ ويقول أرزم ، إن خدع الحواس والفعل تفسر كثيراً من الأعاجيب التى تنسب إلى القوى الخارقة أو السحرية .

وعلى الرغم من هذا التقدم الجرىء نحو الروح العلمى ؛ فإن الخرافات القديمة بقيت أو عدلت أشكالها فحسب . ولم تكن مقصورة على الدهماء . فقد دفع إدوارد الثالث ملك انجلترا مبلغاً باهظاً من المـــال للحصول على قارورة ، كان على يقين من أنها من مخلفات القديس بطرس وعرضت على شارل الخامس ملك فرنسا فى سانت شابل : قارورة ، قيل إنها تحوى بعض

---

(١) الوشق : حيوان أصغر من الفهد قصير الذيل .

دم المسيح وسأل حكماءه وعلماء الدين عنده عن صحتها ، فردوا متحفظين بالإيجاب . وفى هذا الجو جاهدت التربية والعلم والطب والفلسفة لتنمو .

٢ — المعلمون

إن نهضة التجارة والصناعة قد أضفت أهمية جديدة على التعليم . وإذا كانت معرفة القراء والكتابة تعد ترفا غالى الثمن فى نظام زراعى فإنها تعتبر ضرورة لا غنى عنها فى عالم المدينة الذى تغلب التجارة عليه . وقد أقر القانون أخيراً هذا التحول ، ذلك أن ملاك الأرض الإقطاعيين فى انجلترا التمسوا عام ١٣٩١ من ريتشارد الثانى تأييد القانون القديم الذى يحرم على رقيق الأرض أن يرسل ابنه إلى مدرسة دون أن يحصل على موافقة سيده ويقضى بتعويض المالك عن العجز فى الأيدى العاملة بالمزرعة . ورفض ريتشارد هذا الالتماس ، أما فى عهد خلفه فقد صدر قانون يسمح لأى رجل بأن يرسل من يشاء من أولاده إلى المدرسة . وفى ظل هذا القانون الذى أطلق حرية التعليم تضاعف عدد المدارس الأولية فى حين بقيت فى الريف المدارس التى يشرف عليها الرهبان . أما فى المدن فإن الكنائس والمستشفيات والبيع والطوائف الحرفية كانت تمول المدارس الكبيرة وكان الالتحاق بها اختياريا بعد أنه شاع حتى فى القرى .

وكان المعلمون فى العادة من القسس ولكن نسبة المعلمين من غير رجال الدين ارتفعت فى القرن الرابع عشر . وكان برنامج الدراسة يركز على الوعظ : والعقيدة الدينية والصلوات الأساسية والقراءة والكتابة والحساب والغناء والجلد بالسياط ، ولقد كان هذا الجلد بالسياط عماد التعليم حتى فى المدارس الثانوية وفسر أحد رجال الدين ذلك بقوله : « يجب قمع أرواح الأولاد » . وسلم معه الآباء بذلك وربما كان الأمر على هذا النحو . ولقد حثت أجنس باستون مربى ابنها الخامل قائلة : « اجلده ، إذا لم ينصلح حاله : فأنا أوثر أن يدفن حيا على أن أراه يضيع بسبب الإهمال » .

تابعت المدارس الثانوية سياسة التربية الدينية وأضافت إليها قواعد اللغة وكانت لا تشمل النحو والصرف والإنشاء فحسب ، بل كانت تشمل اللغة أيضاً كما أنها هذبت أدب روما الكلاسيكى وتعلم الطلبة من أبناء الطبقة المتوسطة قراءة اللاتينية وكتابتها وإن كان هذا قد حدث بلا اكتراث وذلك باعتبارها من الضروريات للاشتغال بالتجارة الخارجية والعمل بالكنيسة . وكانت أحسن المدارس الثانوية إبان ذلك العهد تلك التى أنشأها فى هولندا وألمانيا إخوان « الحياة المشتركة » وكان بمدرسة ديفنتر ألفا طالب . وكان لويليام الأوكهامى ، أسقف ونشستر الثرى المقدام فضل السبق فى إنشاء أولى المدارس العامة فى انجلترا وهى معاهد تعتمد على الإعانات التى تتلقاها من الأفراد والهيئات العامة لتزود عدداً محدوداً من الأولاد بالمعلومات وتعدهم للالتحاق بالكلية . وحذا هنرى السادس حذوه فأسس عام ١٤٤٠ مدرسة ايتون ومُنحت الكثير من المال لإعداد الكبار وللالتحاق بكلية الملك بكمبردج .

وكان تعليم النساء ، اللهم إلا بعض كريمات العقائل ، مقصوراً على البيت بعد المرحلة الابتدائية . وتعلم كثير من نساء الطبقة الوسطى مثل مارجريت باستون كتابة الإنجليزية السليمة وألم بضع نفر من النساء بالأدب والفلسفة . أما أبناء الطبقة الأرستقراطية فقد تلقوا تعليما يختلف عما يلقن فى المدارس إذ كانوا حتى سن السابعة يدرسون على يد نساء البيت ثم يرسلون للعمل كوصفاء عند نبيل من الأقرباء أو الجيران وهناك بعيداً عن التأثر بالإفراط فى المحبة يتعلمون القراءة والكتابة والدين وقواعد السلوك من السيدات والقس المحلى وفى سن الرابعة عشر يصبحون تابعين أى خدما كبارا لسيدهم . وفى ذلك الوقت يكونون قد تعلموا ركوب الخيل والرماية والصيد والمقارعة والقتال . أما سعة الاطلاع فقد تركوها لأتباعهم .

وفى غضون ذلك كانت هذه تطور تراثا من أعظم ما ورثوه من العصور الوسطى وهو — الجامعات — وفى الوقت الذى خمد فيه أوار الحماسة

للعمارة الكنسية اشتدت حدة الحماسة لإنشاء الكليات وفى هذه الفترة شهدت أكسفورد إنشاء كليتى أكستر وأوريل وكلية الملك والكلية الجديدة وكليات لنكولن وأول سولز وماجدالين وبراسينوز وكليات الجسد الطاهر ومدرسة اللاهوت . ولم تكن عندئذ كليات بالمعنى الحديث للكلمة بل كانت قاعات ، أو أماكن يقيم فيها عدد مختار من الطلبة وكان يعيش فيها أو يكاد عشر الطلبة فى أكسفورد وكان رجال الدين يدرسون معظم المواد بالجامعة فى فصول دراسية أو فى قاعات للمحاضرات متناثرة فى أنحاء المدينة . وتمسك الرهبان البندكتيون والفرنشسكان والدومينيكان وغيرهم من طوائف الرهبان بكلياتهم المعهودة فى أكسفورد وتخرج من هذه الكليات الملحقة بالأديرة نفر من ألمع الرجال فى القرن الرابع عشر ، من بينهم دونز سكوتوس ووليام الأوكهامى وكلاهما ألحق بعض الضرر بدراسة اللاهوت الأرثوذكسى وكان الدارسون للقانون يتلقون تدريبهم فى لندن . فى خانات الحاكم وفى أكسفورد لم يكن هناك تعاطف بين سكان المدينة وبين الطلبة فى الكليات — أى بين المواطنين وطلاب العلم . فقد حدث فى عام ١٣٥٥ أن اندفع المعسكران المتعاديان إلى حرب مكشوفة وقتل كثير من الأبطال حتى عرف هـذا العام باسم عام « المذبحة الكبرى » .

وعلى الرغم من إدخال عقوبة الجلد بالسياط فى جامعات انجلترا (عام ١٣٥٠) فإن الطلبة كانوا فئة مشاغبة وإذا كان قد حرم عليهم ممارسة الألعاب الرياضية داخل جدران كلياتهم فإنهم عددوا نشاطهم فى المجون واحتساء الخمر والصيد والقنص وكانت الحانات والمواخير تلقى رواجا بفضل رعايتهم . وانخفض عدد الملتحقين باكسفورد من ذروته فى القرن الثالث عشر إلى نحو ألف وبعد طرد ويكليف تقلصت الحرية الأكاديمية بشدة الرقابة الأسقفية .

ولقد أفادت كمبردج من الخلاف مع ويكليف ومن الفزع من اللولارد

فمنع المحافظون المتزمتون أولادهم من الالتحاق باكسفورد وبعثوا بهم إلى الجامعة الصغرى ، وعلى هذا فإنه ما أن أشرف القرن الخامس عشر على الانتهاء حتى كان عدد الطلبة المقيدين بالجامعتين المتنافستين متساويا . وأنشئت قاعات جديدة فى كامبردج : مايكل هاوس ويونيفرسيتى أوكلير وجبروك وجونفيل وكايوس وترينيتى وكوربس كرستى وكمجز وكوينز وسانت كاترين وجيزوس وكريست وسانت جون . وقد أصبحت هذه كليات بالمعنى المفهوم عندنا — مثل قاعات الإقامة فى أكسفورد إبان القرن الخامس عشر لأن عدداً متزايداً من المعلمين آثروها ورأوا أنها أصلح الأماكن التى تجتذب محاضراتهم فيها أكبر عدد من المستمعين وكانت الفصول تبدأ فى الساعة السادسة صباحاً وتستمر حتى الساعة الخامسة بعد الظهر .

وفى غضون ذلك أنشأت اسكتلندا وأيرلندة بدافع من فقرهما جامعات سانت اندروز وجلاسجو وابردين وكلية ترينتى والمعاهد الأربعة فى دبلن التى شاءت الأقدار أن تصب العبقرية ، جيلا بعد جيل ، فى الحياة الفكرية فى الجزر البريطانية ، أما فى فرنسا فقد عانى التعليم — مثل أى شىء آخر — من حرب المائة عام ومع ذلك فإن الإقبال المتزايد على المحامين والأطباء بالإضافة إلى ما يحبب الناس فى الوظيفة الدينية قد شجع على إنشاء جامعات جديدة فى افنيون Avignon واورليانز وكاهور وجرينوبل وأورانج واكس آن بروفانس وبواتييه وكان وبوردو وفالنس نانت وبورج . وأصبحت جامعة باريس فى القرن الرابع عشر قوة وطنية تتحدى البرلمان وتزجى النصح للملك وتعمل كمحكمة استئناف فى شرح علم اللاهوت الفرنسى واعترف معظم المشتغلين بالتعليم فى القارة الأوروبية بأنها جامعـــة « كون الأكوان » Universitas universit atis ، ولعل هذا يرجع إلى أن الملكية كانت توشك على الانهيار . وأدى ارتفاع شأن الجامعات الإقليمية والأجنبية إلى قلة عدد الطلبة المقيدين فى جامعة باريس بل إن كلية الآداب وحدها اشتهرت بأنها

تضم ألف مدرس وعشرة آلاف طالب فى عام ١٤٠٦ ، وكان بالجامعة كلها عام ١٤٩٠ ما يقرب من عشرين ألفاً . عاونت على إيوائهم نحو خمسين كلية . وكان النظام هناك أقل صرامة عما هم عليه فى أكسفورد والأخلاق التى تمتدح فى الطلبة قد آثرت رجولتهم لا دينهم وأضيفت إلى المنهج الدراسى برامج فى اللغات الإغريقية والكلدية والعبرية .

وأنشأت أسبانيا جامعاتها الرائدة فى القرن الثالث عشر فى بالانسيا وسلمنقة ولاردة وارتفع شأن جامعات أخرى فى برايبجنان ووشقةوبلد الوليد وبرشلونة وسرقسطة وبالما وسيجونرا وبلنسية والقلعة وإشبيلية . وخضعت هذه المعاهد لرقابة دينية صارمة وكان لعلم اللاهوت المقام الأول فيها . ومهما يكن من أمر ، فقد خصص فى جامعة القلعة أربعة عشر كرسيا (أستاذية) لعلم النحو والصرف والأدب والبلاغة واثنا عشر كرسيا للاهوت والقانون الكنسى ، وظلت جامعة القلعة فترة ما أعظم مركز تعليمى فى أسبانيا ، وفى عام ١٥٢٥ كان عدد الطلبة المقيدين بها سبعة آلاف . وقدمت المنح للطلبة المعوزين وكان ويتحكم فى مرتب الأستاذ عدد طلابه . وكان يطلب من كل أستاذ أن يستقيل كل أربع سنوات ولا يكون صالحاً للتعيين من جديد إلا إذا كان عمله مرضياً . وفى لشبونة وفى عام ١٣٠٠ أنشأ الملك دينيز جامعة ولكن شغب الطلبة جعله ينقلها إلى كويمبرا ولا تزال هذه الجامعة من مفاخرها حتى اليوم .

وكانت الحركة الفكرية فى هذه الفترة بأوروبا الوسطى أقوى منها فى فرنسا أو أسبانيا ، فقد أنشأ شارل الرابع عام ١٣٤٧ جامعة براغ التى سرعان ما تزعمت الحركة الفكرية لشعب بوهيميا وغدت لسانها الناطق . وظهرت جامعات أخرى فى كراكو وفيينا وبيكس وجنيف وارفورت وهايدلبرج وكولونيا وبودا ، وفورتسبرج وليبتسيج وروستوكولوفين وترير وفرايبورج — أم — برايسجاو وجريفسفالد وبازيل وانجولشتادت وبرسبورج ومايتز

وتوبنجن وكوبنهاجن وأوبسالا وفرانكفورت — آن — أودر وفيتنبرج .
وفى النصف الثانى من القرن الخامس عشر كانت هذه المعاهد تعج بأفواج الطلاب والمناظرات . وكان فى كراكو وحدها ١٨٣٣٨ تلميذاً فى آن واحد
وكانت الكنيسة تقدم معظم المال ومن الطبيعى أن يطلق عليها لحن الفكر ،
ولكن الأمراء والنبلاء والمدن ورجال الأعمال أسهموا فى التبرع للكليات
وتقديم المنح الدراسية . فقد زود الأمير فريدريك صاحب ساكسونيا
جامعة فيتنبرج جزئياً بالمال المحصل من بيع صكوك الغفران والذى رفض
أن يرسله إلى روما . وأنشئت لفلسفة الكلام كراسى أستاذية فى الفلسفة
بينما ارتقى شأن العلوم الإنسانية خارج أسوار الجامعة ولذلك انضمت معظم
جامعات ألمـانيا إلى الكنيسة إبان عهد الإصلاح الدينى باستثناء جامعتين
مهمتين : ارفورت التى درس فيها لوثر وفيتنبرج التى كان يدرس بها .

العلمـــاء

كان المزاج العلمى لا يكاد يشيع بين جهابذة العلماء أكثر مما يشيع
بين عامة الناس . وكانت روح العصر تميل إلى « الإنسانيات » بل إن
حركة إحياء الدراسات الإغريقية تجاهلت علم الإغريق . وفى مجال الرياضيات
وقفت الأرقام الرومانية حجر عثرة فى سبيل التقدم ، وبدا أنها لا تنفصل
عن الثقافة اللاتينية ثم إن الأرقام الهندية العربية ظهرت وكأنها بدعة إسلامية
وقوبلت بعدم اكتراث وبخاصة شمال الألب . وقد استخدم ديوان المحاسبة
وإدارة حسابات الحكومة الفرنسية الأرقام الرومانية السمجة حتى القرن
الثامن عشر . ومع ذلك فإن توماس برادواردين الذى مات بوباء الطاعون عام
١٣٤٩ بعد مرور شهر من تكريسه كبيراً لأساقفة كنتربرى — أدخل إلى
انجلترا عـــدة نظريات عربية فى حساب المثلثات وكان تلميذه ريتشارد
والنجفورد رئيس دير سانت ألبان عالما رائداً من علماء الرياضيات فى القرن
الرابع عشر . وكتابه « الجزء الرابع من شرح الجيب » أول مؤلف كبير فى

حساب المثلثات فى أوربا الغربية ، وقد مات بالجذام فى الثالثة والأربعين وهو يأسف على الوقت الذى اختلسه من اللاهوت للعلم .

وكان نيكول أريزم من أنشط رجال الدين ومع ذلك فإنه اقتحم بنجاح مجال اثنى عشر علما ومهد الطريق إلى الهندسة التحليلية بتطوير الاستخدام المنهجى للأحداثيات وباستعمال الخطوط البيانية لإيضاح زيادة الدالة . وقد لعب بفكرة البعد الرابع ولكنه نبذها . وهو مثل الكثيرين من معاصريه أشار إلى قانون جاليليو الذى يقول إن سرعة الجسم الساقط تتزايد بانتظام طوال الفترة التى يستغرقها فى سقوطه ، وفى تعليق على كتاب أرسطو ، كتب يقول : إننا لا نستطيع أن نثبت بأى تجربة أن السماء تتعرض لحركة يومية وأن الأرض لا تتعرض لها فثمة أسباب وجيهة تدل على أن الأرض وليست السماء تتعرض لحركة يومية . وقد لجأ أورزم إلى النظام البطليموسى وإن كان قد أعان على الإعداد لنظرية كوبرنيكوس .

وعندما نذكر أنه فى ذلك الوقت لم يكن يوجد منظار مقرب ولا آلة تصوير ليرصد المرء بهما السماء أو يسجل ما يحدث فيها فإنه من الأمور المشجعة أن نسجل مقدرة وذكاء الفلكيين من المسلمين واليهود والمسيحيين فى العصور الوسطى . وقد وصف جان دى لينيه ، بعد سنوات من مشاهداته الشخصية ، أوضاع ثمان وأربعين نجما بدقة لا يضارعه فيها سوى المسلمين وحسب ميل دائرة البروج فى حدود سبع ثوان عن أحدث تقدير . وعرض جان دى مير وفيرين دى بوفال (١٣٤٤) إصلاح التقويم اليوليانى الذى كان يسبق الشمس — بحذف اليوم التاسع والعشرين من فبراير كل أربعة أعوام خلال الأربعين سنة التالية (التى كان يمكن أن تخطئ بالزيادة) . وقدر لهذا الإصلاح أن ينتظر حتى عام ١٥٨٢ ولا يزال فى انتظار تفاهم دولى وإخلاص متبادل .

ولقد خلص ويليام ميرل علم الرصد الجوى من علم الفلك بتسجيل الطقس خلال ٢٥٥٦ يوما . واكتشف راصدون وملاحون مجهولون خلال القرن الخامس عشر انحراف الإبرة المغناطيسية : فهى لا تشير إلى الشمال تماما بل تميل نحو خط الزوال الفلكى بزاوية صغيرة وإن كانت مهمة وهى كما لاحظ كولمبس تختلف من مكان إلى مكان . وأعظم شخصية بين علماء الرياضيات والفلك فى هذا العهد جوهان مولر المعروف فى التاريخ باسم رجيو مونتانوس منذ مولده عام ١٤٣٩ قرب كنيجزبرج فى فرانكونيا السفلى . وقد التحق فى الرابعة عشر بجامعة فيينا حيث كان جورج فون بورباخ يتقدم الإنسانيات وآخر ما وصل إليه الإيطاليون فى الرياضة والفلك وكلا الرجلين بلغ سن النضوج مبكراً ومات فى سن غضة : فقد مات بورباخ فى الثامنة والثلاثين ومولر فى الأربعين . وصمم مولر على أن يتعلم اليونانية لكى يقرأ كتاب : « المجسطى » فى الفلك لبطليموس بلغته الأصلية فذهب إلى إيطاليا ودرس اليونانية على يد جوارينو دى فيرونا والتهم كل النصوص التى وقعت فى يده سواء كانت باليونانية أو باللاتينية عن الفلك والرياضيات ثم عاد إلى فيينا وهناك قام بتدريس هذه العلوم بنجاح حتى لقد استدعاه ماتياس كورفينوس إلى بودا ثم انطلق إلى نورمبرج حيث بنى له أحد أغنياء الطبقة المتوسطة أول مرصد أوروبى وجهزه مولر بآلات أقامها أو حسنها بنفسه . وإنا لنحس بنسيم العلم النقى فى خطاب كتبه إلى زميل له من علماء الرياضة عام ١٤٦٤ : « لست أدرى متى يتوقف قلمى . إنه سوف يستهلك كل أوراقى إذا لم أتوقف عن الكتابة . إن المسائل تخطر لى واحدة إثر الأخرى وكثير منها جميل بحيث أتردد أيها أضع بين يديك » . وفى سنة ١٤٧٥ استدعاه سكستوس الرابع إلى روما لإصلاح التقويم وهناك مات جيو مونتانوس بعد عام .

وقد حدت حياته القصيرة من منجزاته . ووضع تخطيطا لمؤلفات فى الرياضيات والطبيعة والتنجيم والفلك، وكان يأمل أن يشرف على نشر القديم

من تلك العلوم . ولم تجد طريقها للوجود والبقاء إلا شذرات من هذه الأعمال وقد أكمل خلاصة « المجسطية » لبورباخ وألف مقالا بعنوان « فى المثلثات » De triangulis ، وهو أول كتاب خصص لحساب المثلثات وحده . ويبدو أنه كان أول من رأى استخدام الماسات فى الحسابات الفلكية وسهلت جداوله عن جيوب الزوايا وظلالها الحسابات الفلكية لكوبر نيكوس . ووضع جداول فلكية تمتاز بدقة لا نظير لها فى الجداول التى وضعت من قبل . وأثبتت طريقته فى حساب درجات الطول والعرض أنها نعمة وبركة للملاحين .

وأصدر عام ١٤٧٤ تقويماً بعنوان : « اليوميات » Ephemerides أوضح فيه الوضع اليومى للكواكب السيارة خلال الأعوام الاثنتين والثلاثين القادمة ومن هذا الكتاب تنبأ كولمبس بخسوف القمر الذى سيملأ بطون رجاله الجياع فى اليوم التاسع والعشرين من شهر فبراير عام ١٥٠٤ .

وقد وضعت الملاحظات التى أبداها رجيومونتانوس ، عن مذنب هالى أسس علم الفلك الحديث الخاص بالمذنبات . ولكن تأثيره الشخصى فى حياته كان أعظم من تأثير كتبه فقد ساعدت محاضراته المشهورة على إحـــداث إشراقة ذهنية فى نورمبرج فى شباب دورر وإليه يرجع الفضل فى شهرة المدينة بآلاتها وخرائطها الملاحية . ولقد رسم أحد تلاميذه ، مارتن بهايم بالألوان على الرق أقدم كرة أرضية معروفة عام ١٤٩٢ وهى لا تزال محفوظة فى المتحف الألمانى لنورمبرج .

ولا تدين الجغرافية الحديثة بوجودها للمتخصصين فى هذا العلم بقدر ما تدين للبحارة والتجار والمبشرين والمبعوثين والجنود والحجاج . وقد استخدم ربابنة السفن الاسبان من قطالونيا خرائط ممتازة وكان دليل الربان لموانى البحر الأبيض المتوسط الذى كانوا يستخدمونه فى القرن الرابع عشر لا يقل دقة عن خرائط الملاحة فى عصرنا . ولما كانت الطرق التجارية للشرق قد

سقطت فى أيدى الترك فقد طور المستوردون الأوربيون طرقاً برية جديدة تخترق أراضى المغول وبعـــد أن قضى أوديريك أف بوردنون الراهب الفرنشيسكانى ثلاث سنوات فى بكين (١٣٢٣ — ١٣٢٦ م) كتب تقريراً إيضاحياً عن رحلته إلى الصين عبر الهند وسومطره وعن رحلة عودته عبر التبت وإيران . وروى كلافيجو — كما سنرى — قصة خلابة عن بعثته إلى تيمور . وأما جوهان شنيتبرجر البافارى الذى أسره الأتراك فى نيكوبوليس عام ١٣٩٦ فقد قام بجولة اســـتغرقت ثلاثين عاماً فى تركيا وأرمينيا وجورجيا وروسيا وسيبيريا وكتب فى مؤلفه « كتاب النهضة » Reisebuch أول وصف لسيبيريا لكاتب من غرب أوربا . وفى سنة ١٥٠٠ نشر جوان دى لاكوزا أحد ربابنة سفن كولمبس خريطة متسعة للعالم توضح لأول مرة بالرسوم الجغرافية استكشافات سيده وفاسكو دى جاما وآخرين . كانت الجغرافية دراما متحركة فى القرن الخامس عشر ومن أعظم الرسائل أثراً فى الجغرافية بصفة خاصة « صـــورة العالم » che Imago mundi (١٤١٠) للكاردينال بيير دايلى وهى التى شجعت كولمبس على القيام برحلته بوصفها المحيط الأطلسى بأنه يمكن عبوره فى بضعة أيام إذا كانت الريح مواتية . وكان هذا الكتاب واحداً من ست مؤلفات كتبها هـــذا القسيس المجتهد فى الفلك والجغرافية والأرصاد الجوية والرياضيات والمنطق وما وراء الطبيعة وعلم النفس وإصلاح التقويم والكنيسة . وعند ما وجه إليه اللوم لتخصيصه وقتاً طويلا كهذا للدراسات الدنيوية أجاب بأن على رجل الدين أن يطلع دائماً على العلم بل إنه كان يرى أن فى التنجيم شيئاً من العلم وعلى أسس من التنجيم تنبأ بأن المسيحية سوف تتعرض لتغيير كبير فى خلال مائة عام كما تنبأ بأحداث تهز العالم فى عام ١٧٨٩ .

وخير فكرة علمية فى القرن الرابع عشر كانت فى علم الطبيعة ويرجع الفضل إلى دبتريش أوف فرايبورج فى أنه قدم لنا بالذات تفسيرنا الحديث

لقوس فزح وأنه يتكون نتيجة انكسارين وانعكاس واحد لأشعة الشمس من قطرات الماء . . ولجان بوريدان مؤلف رائع فى الطبيعة النظرية ومما يؤسف له أنه اشتهر بفضل حماره فحسب ولعله لم يكن صاحبه[1] . وقد ولد بوريدان قرب آراس قبل عام ١٣٠٠ وتلقى علومه ثم درس فى جامعة باريس . وهو لم يعلل دوران الأرض اليومى حول الشمس فحسب بل إنه أسقط من علم الفلك المعارف الملائكية التى نسب إليها أرسطو وأكوناس مسار الأجرام السماوية وحركاتها وقال بوريدان : « لا حاجة بنا بعد اليوم إلى تفسير حركاتها أكثر من أنها بدأت تتحرك أصلا بإذن الله وبقانون قوة الدفع — أن أى جسم يتحرك يستمر فى الحركة ما لم تمنعه قوة موجودة » . وهنا كان لبوريدان فضل السبق على جاليليو وديكارت ونيوتون . واستطرد قائلا إن حركة النجوم تحكمها نفس القوانين الآلية التى تتحكم فى الأرض . وهذه الآراء التى تعد الآن رثة بالية كان لها أثر عظيم فى هدم آراء الناس فى العصور الوسطى . وهى تكاد تؤرخ لبداية الطبيعة الفلكية .

ونقل تلاميذ بوريدان آراءه إلى ألمانيا وإيطاليا وتأثر بها ليونارد وكوبرنيكوس وبرونو وجاليليو ثم حملها ألبرت أمير ساكسونيا إلى الجامعة التى أنشأها فى فيينا عام ١٣٦٤ ونقلها مارسيليوس فون انجهن إلى الجامعة التى أسسها فى هيدلبرج عام ١٣٨٦ وكان ألبرت أول من نبذ رأى أرسطو القائل أن الفراغ مستحيل ، وطور فكرة وجود مركز الجاذبية فى

(١) لا توجد حكاية « حمار بوريدان » فى أعماله الباقية ومع ذلك فهى رواية مأثورة عن عصر خليق بالاحترام : ولعلها وردت فى إحدى محاضراته . وقد أثبت جان أن الارادة عند ما تواجه الاختيار بين أمرين تجد لزاما عليها أن تختار ما يرى العقل أنه أكثر نفعا . وعلى ذلك انتهى أحد الأذكياء إلى القول إنه لو وضع حمار جائع على بعدين متساويين من حزمتين من العلف ، شهيتين ومتساويتين فإنه لن يجد سببا يدعوه إلى تفضيل إحداهما على الأخرى ، وإذا لم تكن هناك طعام آخر فإنه قد يهلك جوعا .

كل جسم وسبق مبادئ جاليليو عن التوازن فى حالة السكون والعجلة المنتظمة للأجسام الساقطة وتمسك بأن تعرية الجبال بسبب الماء وارتفاع الأرض التدريجى أو بعوامل بركانية تعد قوى معوضة فى الجيولوجيا — وهى فكرة خلبت لب ليوناردو .

وأحرز علم الميكانيكا العملية بعض التقدم المتواضع واستخدمت الطواحين الهوائية المعقدة لضخ الماء وصرفه من الأرض وطحن الغلال وللقيام بأعمال ومية أخرى . واستخدمت القوة المائية فى الصهر والنشر وفى تشغيل منفاخ الفرن والمطرقة الميكانيكية وآلات غزل الحرير وكان المدفع يسبك ويثقب وكان الصلب يصنع بكميات كبيرة الحجم وأقيمت أفران الصهر العالية فى أوروبا الشمالية إبان القرن الرابع عشر ونذكر الثاقب الجيد فى سنة ١٣٧٣ وكان سحب الأسلاك يمارس فى نورمبرج فى القرن الخامس عشر ووردت صورة مضخة تتكون من دلاء مركبة على سلسلة لا نهاية لها فى مخطوط عام ١٤٣٨ . وفى رسم للمهندس كونراد كيزر وهو من أتباع هس(١٤٠٥) توجد أقدم صورة معروفة للحركة المترددة التى تتحول إلى حركة دوارة : ذراعان يتحركان على التعاقب ويديران فى دقة اسطوانة بانها تدير المكابس عمود المحور لسيارة .

وكانت الحاجة ماسـة إلى ميكانيكية أفضل لقياس الوقت لنمو حجم التجارة والصناعة ؛ وقسم الرهبان والفلاحون النهار إلى عدد بعينه من الفترات فى كل الفصول وجعلوا الفترات فى فصل الصيف أطول منها فى فصل الشتاء . وتطلبت الحياة فى المدينة تقسيمات للوقت أكثر تجانسا فصنعت إبان القرنين الثالث عشر والرابع عشر ساعات حائط وساعات معصم يقسم فيها اليوم إلى أجزاء متساوية طوال العام . وفى بعض الأماكن كانت الساعات ترقم من واحد إلى أربع وعشرين كما يجرى عليه العمل لضبط الوقت عند العسكريين فى عصرنا . وفى أواخر عام ١٣٧٠ كانت

بعض الساعات الكبيرة مثل التى صنعت فى سان جوتارد وفى ميلان تدق الرقم بأكمله . وقد ثبت أن هـــذا إسراف فى الضجيج . وما أن حل عام ١٣٧٥ حتى كان اليوم مقسما بانتظام إلى نصفين كا منهما به اثنتا عشرة ساعة .

وكانت القاعدة الأساسية فى الساعة الآلية ثقلا يدير عجلة ببطء ويتحكم فى دورانها ترس له أسنان مقاومته كافية بحيث تسمح للعجلة بأن تدور بمقدار سن واحدة فى فترة معينة من الزمن . ولقد وضعت هذه الساعة التى تقيس الوقت حوالى عام ١٢٧١ . وأقيمت أول ساعات آلية كبيرة فى أبراج للكنائس أو قباب يمكن رؤيتها من مساحات بعيدة فى أى مدينة . ومن أوائل هذه الساعات ما ركب فى دير سانت ألبانز على يد ريتشارد والنجفورد وكانت لاتبين الساعات والدقائق فى اليوم فحسب بل كانت تبين أيضا الجزر والمد وحركات الشمس والقمر ، وأما الساعات التى صنعت فيما بعد فقد أضيف إليها مزيج من الأجهزة المبتكرة فى الساعة الكبيرة فى كاتدرائية ستراسبورج (١٣٥٢) وكان يظهر فيها ديك يصيح وثلاثة من المجوس وتمثال شخص موضح عليه الوقت المناسب لحجامة كل عضو من أعضاء الجسم ، وكانت ساعة الكاتدرائية فى ولز تستخدم صورة متحركة للشمس تشير إلى الساعة ونجما صغيرا يتحرك على دائرة داخلية ليبين الدقيقة ودائرة ثالثة تبين أى يوم فى الشهر وعلى منصة فوق المزولة أربعة من الفرسان يبرزون ويهاجمون كلما دقت الساعة وفى إحدى الساعات التى صنعت فى القرن الخامس عشر فى فيينا كانت هناك رأس مهرج يفتح فمه الهائل ليلتهم تفاحة ذهبية من أحد الحجاج ولكنه لا يكاد يطبق عليها فمه حتى تختطف منه وكانت هذه الملهاة تمثل كل ساعة من ساعات اليوم خلال مئات الأعوام ولا تزال هذه الساعة موجودة . وقد أقيمت عام ١٥٠٦

ساعة مماثلة فى نورمبرج وأوقفتها الحرب العالمية الثانية بجفاء عن العمل ثم استأنفت عروضها المسرحية فى سنة ١٩٥٣ .

ولصنع الساعات الصغيرة استبدل بالثقل المعلق زنبرك حلزونى عام ١٤٥٠ شريط من الصلب الرقيق يلف على شكل حلقة صغيرة أو طارة وتحدث بفكها تدريجيا الأثر الذى يحدثه الثقل على العجلة البطيئة : وما أن أشرف القرن الخامس عشر على نهايته حتى أصبحت الساعات الصغيرة متوفرة بعضها كبير فى حجم الكف والبعض الآخر صغير فى حجم اللوزة وكثير منها كان بيضى الشكل مثل « بيض نورمبرج » التى صنعها بيتر هيل (١٥١٠) وطبقت قاعدة الثقل والترس والعجلة لأغراض أخرى بحيث أصبحت الساعة الآلية سببا فى صنع عشرات الآلاف من الآلات المتعددة .

وبينما كان علم الطبيعة بشيرا بالثورة الصناعة كانت الكيميا القديمة تنمو ببطء فى علم الكيمياء وفى نهاية هذا العصر كان الكيميائيون قد اكتشفوا ووصفوا الزنك والبزموت والكبريت الحى وحجر الأثمد (الأنتيمون) والفورين القلوى الطيار ومواد أخرى كثيرة وقطروا الكحول وبخروا الزئبق وصنعوا حامض الكبريتيك بتسخين الكبريت وأعدوا الأثير والماء الملكى وصبغة قرمزية تفوق الصبغات التى تستعمل الآن وأورثوا علم الكيمياء الطريقة التجريبية التى أثبتت أنها أعظم ما وهبه علم العصور الوسطى للعقل الحديث .

وكان علم النبات لا يزال فى الأغلب مقصورا على كتيبات فى الفلاحة أولا يعدو كتابا يصف أعشابا ونباتات طيبة . وكان من رأى هنرى أوف هيس (١٣٢٥ — ١٣٩٧) أن أنواعا جديدة . بخاصة بين النباتات . يمكن أن تتطور طبيعيا عن أنواع قديمة وكان هذا رأيه قبل داروين بخمسمائة عام . وليس من شك فى أن إقامة معارض ملكية أو بابوية للوحوش

وتربية الحيوانات والطب البيطرى وعجالات فى القنص أو صيد السمك أو تربية النحل أو دود القز وحكايات خرافية أبطالها من الحيوانات تروى نصصا منها ما له مغزى أخلاقى وكتبا فى فن رياضة الصقور مثل كتاب مرآة فيبوس (١٣٨٧) من تأليف جاستون الثالث كونت أوف فو ، قد جمعت بلا قصد مادة لعلم الحيوان .

وكان لا بد للتشريح والفسيولوجيا (علم وظائف الأعضاء) من الاعتماد على تشريح الحشرات وعلى إصابات الجنود والحالات العرضية التى يحتم فيها القانون إجراء تشريح لمعرفة سبب الوفاة . وكان المسيحيون المؤمنون يحسون بأنهم على حق فى الاعتراض على تشريح جثث الآدميين فالمفروض أنهم على الرغم من وفاتهم سيبعثون من القبور وأبدانهم سليمة يوم الحساب ، وكان من الصعب الحصول على جثث لدراسة التشريح خلال القرن الرابع عشر وأتيح لعدد قليل جداً من الأطباء شمال الألب قبل عام ١٤٥٠ رؤية جثة بشرية بعد تشريحها ومع ذلك فإن جى دى شولياك أقنع السلطات فى أفنيون عام ١٣٦٠ بأن تحول لمدارس الطب جثث المجرمين الذين ينفذ فيهم حكم الإعدام لإجراء تشريح لها . وكانت عمليات التشريح تتم أمام طلبة الطب فى البندقية عام ١٣٦٨ وفى مونبلييه عام ١٣٧٧ وفى فلورنسا عام ١٣٨٨ و لاردة عام ١٣٩١ وفى فيينا عام ١٤٠٤ . وشيدت جامعة بادوا عام ١٤٤٥ أول مشرحة معروفة وكانت النتائج لا نهاية لها فى عالم الطب .

٤ — المعالجون

كانت أوروبا الشمالية متخلفة بنصف قرن أو أكثر عن إيطاليا فى علم الطب وممارسته شأنها فى ذلك شأن الأدب والفن بل إن إيطاليا لما تصل ثانية عام ١٣٠٠ إلى ما صل إليه جالينوس وسورانوس فى الطب قبل ذلك بألف

عام ، ولكن مدارس الطب فى مونبلييه وباريس وا دسموورد أحرزت تقدماً لا بأس به ، وكان أعظم الجراحين فى هذا العصر من الفرنسيين . وكانت المهنة وقتئذ منظمة تماماً وتدافع بشدة عن امتيازاتها ولكن لما كان الطلب على العلاج يزيد كثيرا عن عدد الأطباء فإن تجار الأعشاب الطبية وبائعى العقاقير والقابلات والأطباء المتجولين والحلاقين والجراحين — ولا ضرورة لذكر أدعياء الطب — نافسوا فى كل مكان الأطباء المتمرسين . وأما الجمهور الذى كان يصاب بالمرض بسبب المعيشة الخاطئة ثم يبحث عن تشخيص لا يخطئ وعلاج رخيص يتم به الشفاء فى ليلة واحدة فقد كان يجأر بالشكاوى المعتادة من الأطباء المرتزقة والسفاحين ورأى فرواسار أن « هدف كل رجال الطب أن يحصلوا على مرتبات كبيرة » وكأن هذا لم يكن مرضاً متوطنا بالنسبة لكل الحضارات .

وكان أهم رجال الطب إبان هذا العصر الجراحين ولم يكونوا قد أقنعوا بعد الأطباء بالاعتراف بهم على قدم المساواة ، والحق أن جامعة باريس كانت لا تقبل طالبا فى مدرسة الطب فى القرن الرابع عشر إلا بعد أن يقسم أنه لن يجرى أية عملية جراحية . بل إن الحجامة التى أصبحت علاجا لكل الأمراض حرمت على الأطباء وكانت تترك لتابعيهم . ولجأ الناس إلى الحلاقين لإجراء عمليات كثيرة إلا أن الحلاقين الجراحين كانوا إبان ذلك الوقت يهجرون ممارسة الحلاقة ويتخصصون فى الجراحة ، وكان هناك أربعون من هؤلاء الحلاقين فى باريس عام ١٣٦٥ ، وفى إنجلترا استمروا يزاولون المهنة حتى عام ١٥٤٠ . وصدر عام ١٣٧٢ قانون قصر عملهم فى فرنسا على علاج « الجروح التى ليس من شأنها أن تسبب الوفاة » ولذلك فإن العمليات الكبيرة لا يمكن أن يجريها قانونا إلا « أساتذة الجراحة » الإخصائيون ، وصدر عام ١٥٠٥ مرسوم بإنشاء كلية ملكية للجراحين فى ادنبرة .

وأعظم المتخصصين فى الجراحة فى النصف الأول من القرن الرابع عشر هم هنرى دى موند فيل وجى دى شولياك ولعل فرواسار سجل أن موندفيل ظل فقيرا حتى آخر يوم فى حياته على الرغم من أن أعماله كانت دائما فى رواج وأنه قام بعمله على الزغم من إصابته بالربو والسل . وقد استوعب كتابه « الجراحة » Chirurgia (١٣٠٦ — ٢٠) وهو أول مؤلف فى الجراحة لفرنسى ، الميدان كله بإتقان وجدارة تبوأ بهما — الجراحون مكانا مرموقاً وكان أعظم ما أسهم به تطبيق وتطوير طريقة تعلمها من تيودوريك بورجونيونى فى بولونيا لعلاج الجروح بالتطهير الكامل ومنع التقيح وتسرب الهواء وعمل الضمادات بالنبيذ ، وقد دافع عن الطريقة التى ابتدعها بأن حذر من قبـــول رأى جالينوس أو غيره من الثقات القدامى بلا مناقشة ، وكتب يقول مستخدما صفة محببة فى العصور الوسطى : « إن المؤلفين المعاصرين بالنسبة للقدامى منهم يشبهون قزما يركب فوق كتف عملاق فهو يرى كل ما يراه العملاق بل ويرى أبعد منه » .

وقد أنجب الجيل الذى جاء بعده أشهر الجراحين فى العصور الوسطى وهو جى دى شولياك وهو من أصل ريفى وولد فى قرية ريفية أخذ منها اسمه ، وقد أثر فى سادة القصر فجعلهم يتكفلون بنفقات تعليمه فى تولوز ومونبلييه وبولونيا وباريس ، وفى عام ١٣٤٢ أصبح طبيبا خاصا للبابا فى أفنيون . واحتفظ بهذا المنصب الصعب ثمانية وعشرين عاماً وعندما اجتاح وباء الطاعون أفنيون لم يغادر موقعه ومد يد العون للضحايا وأصيب بالوباء ولم ينج من الموت إلا بمعجزة ، وقد ارتكب أخطاء جسيمة مثل أى إنسان إذ كان تارة يعزو انتشار الوباء إلى اقتران بين الكواكب فى ساعة نحس وتارة يتهم اليهود بأنهم يهدفون إلى تسميم أبناء العالم المسيحى وأخر التئام الجروح بنبذه طريقة موندفيل فى اللصقات والمراهم ولكنه عاش معظم حياته وفيا لأرفع تقاليد مهنته العظيمة . ويعد مؤلفه Chirurgia magna (١٣٦٣)

الجامع فى فن الجراحة » أكمل بحث فى الجراحة وأكثر تنسيقا وأغزر ادة من الرسائل التى ألفت قبل القرن السادس عشر .

وواكبت الصحة الجماعية والفردية بصعوبة تقدم الطب فلم تكن النظافة الشخصية شيئا مقدسا بل إن ملك إنجلترا كان لا يستحم إلا مرة واحدة كل أسبوع وكان يغفل الاستحمام أحيانا . . . وكان الألمان يستخدمون مامات عامة — أحواضا واسعة يقف فيها المستحمون أو يجلسون عراة الأجسام وأحيانا يستحم فيها الجنسان معا . وكان فى أولم وحدها ١٦٨ حماما عاما ١٤٨٩ وفى كل أنحاء أوربا — دون استثناء للطبقة الأرستقراطية دائماً — كانت نفس القطعة من الملابس ترتدى شهورا أو سنوات أو أجيالا .

وكان فى كثير من المدن ما يكفيها من الماء ولكنه كان لا يصل إلا إلى بضع منازل وكان على معظم الأسر أن يجلبوا الماء من أقرب نافورة أو بئر أو ينبوع . وظل هواء لندن ملوثا برائحة الماشية المذبوحة إلى أن حرمت هذه المذبحة عام ١٣٧١ وكانت المراحيض تنغص حياة الناس السهلة فى الريف . ولم يكن فى منازل لندن إلا مرحاض واحد لكل السكان وخلا كثير من أى مرحاض وكانت تفرغ ما فيها من براز فى الأفنية أو الطرقات . وكانت لاف الفضلات تلقى فى نهر التيمز وقد صدر عام ١٣٥٧ قانون يحرم ذلك وإن استمر الحال على ما هو عليه وفى سنة ١٣٨٨ أقر البرلمان أول قانون للصحة العامة يسرى فى جميع أنحاء إنجلترا وقد دفعه إلى هذا انتشار الوباء أكثر من مرة « نظراً لأن كثيراً من الغائط والنفايات القذرة والأمعاء والذبائح والمواد المتعفنة الأخرى تلقى وتوضع فى الحفر والأنهار والمياه الأخرى . . . ونظراً لأن الهواء يتلوث ويفسد إلى حد كبير فتنتشر كل يوم أمراض كثيرة وأسقام أخرى لا تطاق بين السكان وبين الآخرين ممن يترددون أو يسافرون إلى هناك فقد تم الاتفاق والرضى على نشر

هذا الاعلان — فى أنحاء مملكة إنجلترا . . . إن جميع من يلقون ويضعون مثل هذه الأشياء المقلقة للراحة سيجبرون على إزالتها تماماً ... وإلا تعرضوا لعقوبة الغرامة من مولانا الملك » .

وقد صدرت قوانين مماثلة فى فرنسا فى مثل هذا الوقت وفى سنة ١٣٨٣ أمرت السلطات فى مارسيليا ، مقتفية أثر سلطات راجوزا (١٣٧٧) بعزل الأشخاص المصابين بالوباء لمدة أربعين يوماً — بالحجر الصحى . واستمرت الأوبئة فى الانتشار — الحمى الدخنية فى إنجلترا (١٤٨٦—١٥٠٨) ومرض الخناق والجدرى فى ألمانيا (١٤٩٢) — إلا أن العدوى بها قد تضاءلت وقلت الوفيات . وعلى الرغم من التهاون فى الرعاية الصحية فإن المستشفيات كانت كثيرة نسبيا فقد كان فى إنجلترا ٤٦٠ مستشفى عام ١٥٠٠ وكان فى يورك وحدها ستة عشر مستشفى .

وتجاوز علاج المجانين شيئاً فشيئاً مرحلة احترام الخرافات والأوهام والقسوة الهمجية إلى مرحلة العلاج العلمى ، فقد حدث عام ١٣٠٠ أن نبشت جثة فتاة ادعت أنها الشبح المقدس وأحرقت بأمر من رجال الدين ، والقيت فتاتان عبرتا عن إيمانهما بما ادعته ، مصرعهما بالجلوس على الخوازيق وفى سنة ١٣٥٩ فوض كبير أساقفة طليطلة السلطات المدنية فى إحراق إسبانى حياً وكان قد ادعى أنه أخ ميكائيل كبير الملائكة وأنه يتردد على السماء والجحيم كل يوم .

وتحسنت الأمور فى القرن الخامس عشر إذ أن راهبا يدعى جان جوفر ، امتلأ قلبه عطفا على المجانين الذين كانت الغوغاء تتابعهم فى الشوارع بصفير الاستهزاء أنشأ مستشفى للمجانين (١٤٠٩) وحذت السلطات حذوه فى مدن أخرى وتحولت مستشفى سانت مارى أوف بيت لحم التى أسست فى لندن عام ١٢٤٧ ، إلى مستشفى للمجانين عام ١٤٩٢ وأصبحت

كلمة « بيت لحم » التى حرفت إلى كلمة « بدلام » — مرادفة لمستشفى المجانين .

وكان الذين يثبت إصابتهم بالجذام منبوذين من المجتمع وإن كان الجذام قد اختفى أو كاد من أوروبا الغربية فى القرن الخامس عشر وحل محله مرض الزهرى ، ولعله مرحلة متطورة لمرض الزهرى المعروف من قبل فى فرنسا وربما كان مرضا وافدا من أمريكا وظهر أخيرا فى إسبانيا عام ١٤٩٣ وفى إيطاليا عام ١٤٩٥ ثم انتشر انتشارا واسعاً فى فرنسا حتى أطلق عليه اسم الوباء الغالى(١) .

وقد اجتاح بعض المدن فى ألمانيا فالتمست إعفاءها من الضرائب — وما أن أشرف القرن الخامس عشر على نهايته حتى سمعنا عن استخدام الزئبق فى علاجه . وأخذ تقدم الطب فى ذلك الوقت كما هو الآن يسابق بشجاعة كل مستحدث فى المرض .

٥ — الفلاسفة

على الرغم من أن عصر واضعى النسق قد انقضى فإن الفلسفة كانت لا تزال فى أوج قوتها والحق أنها زعزعت أركان العقيدة المسيحية فى القرن الرابع عشر . وانتهى تذبذب علماء اللاهوت فى الفلسفة بفضل تحول فى الرأى : فقد اهتم قادة الفكر مثل بوريدان بالعلم اهتماما كبيرا وبالاقتصاديات مثل أريزم وبالنظام الكنسى مثل نيكولاس الكوزى وبالسياسية مثل بيير ديبوا ومارسيليوس البادوى . وكان هؤلاء الرجال أندادا فى الفكر لالبرتوس ماجينوس وتوما الأكوينى وسيجيردى باربان ودونس سكوتوس وظلت فلسفة الكلام — كمنهج للجدل والعرض وكمحاولة لاظهار ارتباط العقل بالإيمان — تسود الجامعات فى الشمال واعتبر الأكوينى قديسا عام ١٣٢٣ وبعد ذلك أحس أتباعه من الدومينيكان وبخاصة فى لوفين وكولونيا أن من دواعى الشرف أن يتمسكوا بعقيدة فى مواجهة كل التحديات .

---

(١) نسبة إلى بلاد الغال .

أما معارضوه من الفرنشسكان الثابتين على العهـــد فقد آثروا أن يتبعوا أوجستين ودونس سكوتوس . وصدم ويليام ديراند من سان بورسان ، وهو أحد الرهبان الدومينيكان المتحررين ، طائفته عندما انخرط بين أتباع سكوتوس وعند ما بلغ الثامنة والثلاثين (عام ١٣٠٨) بدأ فى كتابة حاشية مفصلة وفرغ منها فى سن متقدمة . ولقد نبذ أثناء تقدمه آراء أرسطو والأكوينى ورأى أن يغلب العقل على حجة كل عالم مهما كان حظه من الشهرة أو الخطر « وهنا كان فيلسوفا له نصيب من حاسة الفكاهة . وبينما ظل صراحة وفيا لآراء علماء اللاهوت فإنه مهد السبيل لأسمية أوكهام المتشددة وذلك باستعادة المذهب التصورى لأبيلار : الأشياء الفردية فقط التى تبقى وكل الأفكار المجردة أو العامة ليست إلا أقرب التصورات للعقل . وأطلق أصدقاء وليام عليه اسم دكتور ريزولوتيسيموس أما خصومه فأطلقو عليه اسم دوروس دوراندوس — ديران الصاب — وكانوا يعللون أنفسهم بأن نيران جهنم سوف تلين قناته فى النهاية .

وكان ويليام الاوكهامى أشد صلابة ولكنه لم ينتظر حتى يلقى حتفه حرقا ، وقضى حياته بأسرها فى جدل حاد ولم تخف حدته إلا بالسجن من آن لآخر وتحت ضغط الأيام ليعبر عن حرارته فى صيغة الفلسفة الكلامية ولم يسلم فى الفلسفة إلا بسلطان التجربة والعقل . وكان يتحمس لنظرياته ويمسك بخناق نصف أوربا دفاعا عن آرائه . وهو بحياته ومغامراته وأهدافه يسبق إلى تمثيل فولتير ومغامراته وأهدافه . ولعله كان أعظم منه أثرا .

ولا نستطيع أن نقول أين أو متى ولد على وجه التحديد ، ولعله ولد فى أوكهام بمقاطعة سورى حوالى نهاية القرن الثالث عشر . واندرج فى سلك طائفة الفرنشسكان وهو بعد صبى صغير وعند ما بلغ الثانية عشرة من عمره أرسل إلى جامعة اكسفورد باعتباره صبيا ذكيا سيكون ولا ريب ضوء

مشرفا فى الكنيسة . وفى اكسفورد وربما فى باريس ، أحس بتأثير راهب فرنشسكانى آخر داهية هو دونس سكوتوس لأنه على الرغم من أنه عارض « واقعية » سكوتوس فإنه دفع بنقد سلفه التعقلى للفلسفة واللاهوت بضع خطوات نحو مذهب الشك الذى يذيب الفوارق بين العقائد الدينية والقوانين العلمية . وقام بالتدريس ست سنوات فى اكسفورد وربما يكون قد درس فى باريس . ويبدو أنه كتب تعليقات على فلسفة أرسطو وبيتر لومبارد قبل عام ١٣٢٤ — وهو لا يزال حدثا فى العشرين وأعظم أثر له هو كتاب « الجامع لكل علم المنطق Summa totius logicae » وهو موجز لكل قواعد المنطق .

ويبدو الأمر لأول وهلة صورة من صحراء جرداء فى تقطيع أوصال المنطق والمصطلحات اللغوية التكنولوجية ، موكب لا حياة فيه من التعريفات والتقسيمات والتفريعات والصفات المميزة والتصنيفات والمهارات . وعرف أوكهام كل شىء عن « علم المعانى » وأسف لعدم دقة الاصطلاحات المستعملة فى الفلسفة وقضى نصف الوقت فى محاولة توخى الدقة فيها أكثر من قبل . واستاء من الصرح القوطى للتجريدات يركب أحدها الآخر كالعنقود فى الطبقات الموضوعة إحداها فوق الأخرى ، والتى أثارها الفكر فى القرون الوسطى . ولا نستطيع أن نجد فى أعماله الباقية بالدقة الصيغة المشهورة التى سميت فى التراث باسم « مبضع أوكهام » الذاتيات لا تتضاعف بحيث تتجاوز الحاجة . ولكنه عبر عن المبدأ بمصطلحات أخرى مرارا وتكرارا — التعددية (فى الذاتيات أو العلل أو العوامل) لا تثبت (أو تفترض) إلا لضرورة » و « من العبث أن نبحث عن إنجاز أو شرح بافتراض أو علل يمكن تفسيرها بأقل منها » ، ولم يكن المبدأ جديدا فقد قبله الأكوينى واستخدمه سكوتوس ولكنه بين يدى أوكهام أصبح سلاحا قاتلا يقطع به مئات من الأوهام الغامضة والتجريدات العظيمة .

وبتطبيق المبدأ على نظرية المعرفة رأى أوكهام أنه لا داعي لأن يفترض كمصدر ومادة للمعرفة ، أى شيء أكثر من الإحساسات ومن هذه تنشأ الذاكرة (إحساس ينعش) والإدراك (إحساس يفسر من خلال الذاكرة) والخيال (ذاكرات متحدة) والتوقع (ذاكرة تنعكس) والفكرة (ذاكرات تقارن) والتجربة (ذاكرات تفسر من خلال الفكرة) . « لا شيء يمكن أن يكون موضوعاً للحس الداخلي (الفكرة) إلا إذا كان موضوعاً للحس الخارجي (الشعور) » . وها هو المذهب التجريبي للوك قبل ظهوره بثلاثمائة عام .

وكل ما ندركه خارج نفوسنا هو ذاتيات فردية — أشخاص معينين وأشياء وأفعال وأشكال وألوان وأذواق وروائح وضغوط ودرجات حرارة وأصوات ، والكلمات التي تعبر بها عن هذه هي «كلمات أول قصد» أو المراد الأولى وتشير مباشرة إلى ما ننشرها على أنها حقائق خارجية ، وبتدوين وتجريد الملامح العامة للذاتيات المماثلة التي أدركت على هذا النحو يمكننا أن نصل إلى أفكار عامة أو مجردة — رجل ، فضيلة ، ارتفاع ، حلاوة ، حرارة ، فصاحة . والكلمات التي نعبر بها عن مثل هذه التجريدات هي كلمات « القصد الثاني » وتشير إلى المفاهيم المستخلصة من المدركات . وهــذه « العموميات » لا تختبر في الإحساس فهي تعبيرات ودلالات وأسماء لتعميمات نافعة للغاية (وخطرة) في الفكر أو العقل وفي العلم والفلسفة واللاهوت ، وهي ليست أشياء توجد خارج العقل . وأن كل شيء خارج العقل مفرد ويساوي عددياً واحداً .

والعقل شيء رائع ولكن استنتاجاته لا تكون لها معنى إلا إذا كانت تشير إلى التجربة — أي إلى إدراك الذاتيات الفردية ، أو إلى أداء الأفعال الفردية وإلا فإن استنتاجاته تكون من قبيل العبث وقد تكون تجريدات خادعة وما أكثر اللغو قولا وكتابة بإساءة فهم الأفكار على أنها أشياء

والتجريدات على أنها حقائق . إن الفكرة المجردة لا تقوم بوظيفتها إلا عندما تؤدى إلى بيانات معينة عن أشياء معينة .

ومن هذا المذهب الاسمى طرق أوكهام فى تهور لا يبقى ولا يذر كل ميدان فى الفلسفة واللاهوت . وأعلن أن كلا من الميتافيزيقيا والعلم تعميات متلقة لأن تجربتنا ليست إلا عن ذاتيات متعينة فى مساحة وزمن محصورين فى نطاق ضـــيق ولذلك فإنه من الغرور أن نفترض على وجه الشمول والدوام صحة القضايا والقوانين الطبيعية التى نستمدها من هذا القطاع الصغير من الحقيقة فتصاغ معرفتنا وتحدد بوسائلنا وطرقنا فى إدراك الأمور (وهذا هو رأى كانت قبل ظهور كانت) وهى تبقى حبيسة فى سجن عقولنا ويجب ألا يدعى أنها الحقيقة الموضوعية أو النهائية عن أى شىء .

أما بالنسبة للروح فإنها تجريد أيضاً وهى لا تظهر أبداً فى إحساساتنا أو مدركاتنا سواء أكانت خارجية أم داخلية وكل ما ندركه هو الإرادة والذات (الأنا) التى تؤكد نفسها فى كل فعل وكل فكرة . والعقل نفسه وكل مجد ينسب للذهن آلات للإرادة ، والذهن ليس الإرادة التفكير تبحث عن غاياتها بالفكر « وهذا هو رأى شوبنهاور » .

ويبدو أن الله نفسه لا يصمد أمام هذه الفلسفة الحادة . ولم يجد أوكهام (مثل كانت) أية قوة باقية فى أى من المناظرات التى دارت لإثبات وجود الله . ورفض الأخذ برأى أرسطو القائل أن سلسلة الحركات أو العلل تجبرنا على أن نفترض الحركة الأولى أو العلة الأولى . ولم يَعِدْ غير مدرك ردة لا نهائية للحركات والأسباب أكثر من المحرك الثابت أو العلة التى لا سبب لها فى لاهوت أرسطو ، ونظراً لأنه لا يمكن أن يعرف شىء إلا بطريق الإدراك المباشر فإنه لن يتيسر لنا الحصـــول على معرفة واضحة بأن الله موجود .

ولا يمكن للعقل أن يرى أن الله قادر على كل شيء أو لا حد لقدرته، وعالم بكل شيء أو لطيف أو واحد، كما أن العقل لا يستطيع أن يثبت أن الله ثالث ثلاثة، أو أن الله تجسد إنساناً ليكفر عن خطيئة آدم وحواء بعصيانهما أو أن ابن الله حاضر فى القربان المقدس، ثم إن التوحيد ليس مطابقاً للعقل أكثر من الشرك، وربما يكون هناك أكثر من عالم يحكمها أكثر من إله.

إذن ماذا يبقى من البناء البهى للعقيدة المسيحية ؟ أساطيرها الجميلة وأناشيدها وفنها، ما نصت عليه من أخلاق من وحى الله أم أملها الحصين ؟ وقد تراجع أوكهام أمام هدم العقل للاهوت وفى محاولة يائسة لإنقاذ نظام اجتماعى قائم على شريعة أخلاقية تقوم على عقيدة دفينة رأى التضحية بالعقل على مذبح الإيمان، وربما يكون الله موجوداً على الرغم من أنه لا يمكن إثبات هذا وأنه وهب كلا منا روحا خالدة. ويجب أن نميز، كما أشار ابن رشد ودنس سكوتوس، بين الحقيقة اللاهوتية وبين الحقيقة الفلسفية، وأن نقبل متواضعين فى مجال الإيمان ما يرتاب فيه العقل الفخور بنفسه.

وكان من قبيل المبالغة أن تقبل الكنيسة هذه الحاشية الذنبية التى تكرم العقل العملى كفارة لذنب أوكهام لقيامه بنقد العقل المحض. فأمر البابا جون الثانى والعشرين بتكوين مجلس تحقيق من رجال الدين للنظر فى « الهرطقات البغيضة » التى اقترفها الراهب الشاب واستدعاه ليمثل أمام المحكمة البابوية فى أفنيون، وجاء أوكهام، لأننا نجده عام ١٣٢٨ فى سجن بابوى هناك، مع راهبين من الفرنشسكان وفر الثلاثة وهربوا إلى إيجسمورتس واستقلوا قاربا صغيرا والتقطتهم سفينة أخذتهم إلى لويس ملك باقاريا فى بيزا. وحرمهم البابا من غفران الكنيسة بينما أسبغ عليهم الإمبراطور حمايته. واصطحب ويليام لويس إلى ميونخ وانضم هناك إلى مارسيليوس من بادوا وعاش فى دير فرنشسكانى مناهض للبابا وأصدر منه سيلا من الكتب والنشرات ضد سلطان وهرطقة البابوات بعامة وجون الثانى والعشرين بخاصة.

وكما فاق أوكهام فى ميتافيزيقياته الشكية عند سكوتس فإنه فى نظريته العملية دفع مهاجمة مارسيليوس البادوى للإكليروس نتائج جريئة . وأعمل مبضعه فى العقائد والشعائر التى أضافتها الكنيسة إلى المسيحية الأولى وطلب العودة إلى عقيدة أبسط وعبادة « العهد الجديد » .

وفى لجاجة عنيدة نشر كتابه « مائة لسان » Centiloqium theologicum فى علم اللاهوت واحتكم إلى مائة عقيدة للكنيسة ورأى أن كثيراً منها يؤدى منطقياً إلى نتائج سخيفة لا تحتمل ؛ فمثلا إذا كانت مريم أم الله وكان الله والدنا جميعاً فإن مريم تكون أما لوالدها . وناقش أوكهام الخلافة الرسـولية للبابوات وعصمتهم من الخطأ ، وعلى النقيض من ذلك أكد أن كثيرا منهم كانوا هراطقة وأن بعضهم كانوا مجرمين وطالب بمعاملة رقيقة للهرطقة ورأى أن التعبير عن الرأى يجب أن يترك حرا إلا بالنسبة لنشر الزيف المتعمد . ورأى أن المسيحية فى حاجة إلى العودة من الكنيسة إلى المسيح ومن الثروة والسلطان إلى البساطة فى الحياة والخضوع لحكم الشريعة ويجب ألا تكون الكنيسة مقصورة على رجال الدين وحدهم بل يجب أن تضم المجتمع المسيحى بأسره . وهذه الزمالة الكاملة بما فيها النساء يجب أن تختار ممثلين لها يكون من بينهم نساء وتدعوهم إلى عقد مجلس عام وهذا المجلس يجب أن يختار البابا ويرأسه ويجب أن يكون على رأس الكنيسة والدولة شخص واحد .

ويجب أن تكون الحكومة نفسها خاضعة لإرادة الشعب لأنه يملك كل السلطة النهائية على وجه الأرض . وهو يفوض حقه فى التشريع والإدارة إلى ملك أو امبراطور على أساس أنه سوف يصدر القوانين لصـالح الجميع . وإذا كان الصالح العام يقتضى هذا فإن الملكية الخاصة يمكن أن تلغى .وإذا ارتكب الحاكم خطأ جسيما فإن حقيقة العقيدة الدينية تقضى عليه

بالصيام . وقد مات متأثراً بالطاعون عام ١٣٤٩ أو عام ١٣٥٠ وهو لا يزال فى زهرة العمر .

ونحن لا نعرف إلا القليل عن مصير أوكهام فهو لم يجد فى جمعة ميونيخ عزاءله عن نبيذ باريس الذى افتقده ، وقد قارن نفسه بجون الإنجيلى فى باتموس وإن كانت لم تواته الجرأة على التخلى عن حماية الإمبراطور . وطبقاً لرواية أحد الفرنشسكان المعاصرين وقع الراهب المتمرد فى آخر سنى عمره إقرارا ينكر فيه هرطقاته ، ولعل تصالح لويس مع الكنيسة جعلت هذا أمراً يمليه العقل والرشد ، وربما يكون وليام قد أحس بأن التساؤل عن حقيقة عقيدة دينية أمر سخيف . ومات متأثراً بالطاعون عام ١٣٤٩ أو عام ١٣٥٠ وهو لا يزال فى مقتبل العمر .

وقبل وفاته بزمن طويل اعترف به كأقوى مفكر فى عصره وارتجت الجامعات بالجدل حول فلسفته . وقبل كثير من علماء اللاهوت وجهة نظره فى أن العقائد الأساسية للدين المسيحى لا يمكن إثباتها بالعقل وأنه التمييز بين الحقيقة الفلسفية والحقيقة الدينية كان واسع الانتشار فى القرن الرابع عشر كما تنتشر اليوم المهادنة المفهومة ضمنا بين التحقيق العلمى والخدمة الكهنوتية الدينية . وفى أكسفورد تكونت مدرسة من أتباع أوكهام أطلقت على نفسها اسم « الحياة العصرية » (كما سمى أبيلارد مذهبه التصورى قبل ذلك بثلاثمائة عام) وسخرت من الواقعية الميتافيزيقية لسكوتوس أكويناس . وكان انتصار العصريين بخاصة ساحقا فى جامعات أوروبا الوسطى فإن هس فى براغ ولوثر فى أرفورت كانا يتلقيان المذهب الاسمى وربما يعزى تمردهما إليه . وفى باريس منعت سلطات الجامعة (١١٣٩ — ٤٠) تدريس آراء أوكهام ولكن كثيراً من تلاميذه وبعض الأساتذة هللوا له باعتباره حاملا للواء الفكر الحر وحدث أكثر من مرة أن تقاتلت الأحزا

المعارضة كما يحدث الآن ، بالكلمات واللطمات فى المقاهى أو فى الشوارع . ولعل توماس أكمبس Thomas a Kemps أدان الفاسفة فى كتاب « محاكاة المسيح » كرد فعل ضد آراء أوكهام وقد لعب أوكهام دوراً ، وإن اقتصر على صوت ، فى تأليب الحكومة الوطنية ضد الكنيسة العالمية وقد أثرت دعوته إلى أن يكون رجال الدين فقراء فى ويكليف كما أن هجماته على البابوية واستنصاره الدائم للإنجيل والمسيحية الأولى بدلا من الكنيسة مهدت لظهور لوثر الذى عده أوكهام من أعظم أساتذة فلسفة الكلام وأكثرهم عبقرية إذ عبر سلفا فى مذهبه فى الاختيار ومذهبه فى الفردية عن الروح القومية لعصر النهضة ثم إن مذهبه فى الشك انتقل إلى راموس ومونتينى وربما إلى أرازموس ، ومذهبه وتحديده الذاتى للمعرفة بالأفكار رمز إلى بركلى كما أنه سبق « كانت » بمحاولته إنقاذ الإيمان عن طريق « العقـــل العملى » وعلى الرغم من أنه مثالى من الناحية الفلسفية فإن تأكيده أن الإحساس هو المصـــدر الوحيد للمعرفة جعله يتبوأ مكاناً مرموقا فى موكب الفلسفة الإنجليزية التجريبية من روجر وفرانسيس بيكون من خلال هوبز ولوك وهيوم وميل ومن سبنسر إلى برتراند راسل . واقتحامه الطارئ لميدان العلم الطبيعى — وإدراكه لقانون القصور الذاتى ورأيه فى العمل على بعد — حث المفكرين من جان بوريدان إلى إسحق نيوتن والنتيجة العامة لعمله شأنه فى هذا شأن دونس سكوتوس ، هو تقويض الغرض الأساسى لفلسفة الكلام — وأن العقيدة المسيحية فى القرون الوسطى يمكن إثباتها بالعقل وقد حافظت فلسفة الكلام حتى القرن السابع عشر ، على وجود باهت بعد الموت ولكنها لم تسترد قوتها بعد هذه الصفعات .

٦ — المصلحون

بينما كان ابن خلدون يضع قواعد علم الاجتماع فى العالم الإسلامى كان

بيير ديبوا ونيكول أورزم ومارسيليوس البادوى ونيكولاس الكوزاوى يطورون فى العالم المسيحى الدراسات التى تبحث العلاقة بين الأقارب وإن كانت أقل تنسيقا . وقد خدم ديبوا ملك فرنسا فيليب الرابع كما خدم أوكهام ومارسيليوس الملك لويس البافارى بتوجيه حملات فكرية ضد البابوية . وفى ابتهال لشعب فرنسا للملك ضد البابا بونيفاس (١٣٠٨) وفى رسالة عن استرداد الأرض المقدسة أوصى المدره الغيور على هذا المبدأ بأن تجرد البـــابوية من كل أملاكها الدنيوية وسلطانها الزمنى ، وأن يرفض حكام أوربا الخضوع لسلطات البابا فى محاكمهم وأن تنفصل الكنيسة الفرنسية عن روما وتخضع للسلطة الزمنية والقانون . وفضلا عن هذا فإن ديبوا مضى قدماً يقول إن كل أوروبا يجب أن تتحد تحت لواء ملك فرنسا باعتباره إمبراطورا يتخذ عاصمته فى القسطنطينية وأن تكون هذه قلعة تناهض الإسلام وأنه يجب إنشاء محكمة دولية تفصل فى المنازعات بين الأمم وأن تعلن مقاطعة اقتصادية لكل أمة مسيحية تبدأ الحرب ضد أمة مسيحية أخرى وأن تتاح للنساء الفرص التعليمية نفسها وأن تكون لهن نفس الحقوق السياسية كالرجال .

ويبدو أن أحدا لم يعر هذه الآراء التفاتا ولكنها اقتحمت التيارات الفكرية التى قوضت صرح البابوية . وبعد مرور قرنين على وفاة ديبوا اتبع هنرى الثامن ، الذى لم يسمع عنه ولا ريب ، برنامجه هو ويكليف فى الدين وفى مطلع القرن التاسع عشر أقام نابليون إلى حين أوربا المتحدة تحت الزعامة الفرنسية وجعل من البابا أسيرا للدولة . وليس من شك فى أن ديبرا من زمرة المشتغلين بالشريعة الناهضين الذين كانوا يطمحون إلى ألا يقوم رجال الدين بتوجيه سياسة الحكومة . وقد فاز فى معركته ونحن نجنى اليوم ثمار انتصاره .

وقد كتب أورزم الذى أثار كثيرا من المناقشات الحامية حوالى ســنة

١٣٥٥ مقالات صريحة واضحة فى الأدب الاقتصادى ، عن الأصل والطبيعة والشريعة وتغيير العملة وقال إن عملة البلد ملك للجماعة لا للملك فهى منفعة اجتماعية وليست عائدا ملكياً وللحاكم أو الحكومة تنظيم إصدارها ولكن يجب أن يحافظ على قيمتها المعدنية ولا يخفضها وأى ملك يخفض قيمة العملة لص . وفضلا عن هذا فإن العملة الرديئة (وفقا لقانون جريشـــام) تطرد العملة الجيدة من التداول والناس يخفون أو يصدرون العملة الجيدة والحكومة غير الأمينة لن تتلقى فى دخولها سوى العملة البخسة . ولم تكن الآراء التى رددها أورزم مثلا عليا فحسب بل إنه درسها بصفته مربيا ، لابن جون الثانى . وعندما أصبح هذا الطالب شارل الخامس استفاد الملك الشاب ، بعد تدهور للعملة ، من تعليمات أستاذه واستعاد شتات أموال فرنسا بعد أن تخلصت من الحرب على أساس سليم شريف .

كان مرسيليوس البادوى ذا مزاج أكثر تقلبا من أورزم : كان فيلسوفاً لا يلين ينادى بالفردية فخورا بفكره وشجاعته وكان يجعل فلسفته السياسية جزءا لا ينفصل من حياته القلقة . وكان ابنا لموثق عقود فى بادوا ودرس الطب فى الجامعة ولعله يدين ببعض تطرفه المناهض للأكليروسية إلى جو من مذهب الشك الذى يرجع إلى ابن رشد الذى وجده بترارك وفضحه فى الجيل نفسه . وعندما انتقل إلى باريس أصبح مديرا للجامعة وشغل هذا المنصب عاما . ثم ألف عام ١٣٢٤ بشىء من التعاون مع جون الجندوانى أعظم رسالة أثرت على السياسة بالعصور الوسطى وهى « المدافع عن السلام » .

ولما كان المؤلفان يعلمان أن الكنيسة سوف تستنكر كتابهما فقد فرا إلى نورمبرج ووضعا نفسيهما تحت جناح الإمبراطور لويس البافارى ثم حاربا البابا . ولم يتوقعا من محارب شديد المراس مثل جون الثانى والعشرين أن يقابل بالهدوء دفاعهما الشديد عن السلام . وقد برهن هذا الكتاب على أن

السلام فى أوروبا يقوضه النزاع بين الدولة وبين الكنيسة وأنه يمكن استعادة السلام والحفاظ عليه بوضع الكنيسة بكل ممتلكاتها والعاملين بها تحت نفس السلطة الإمبراطوية أو الملكية مثل باقى الجماعات والأموال، ومن الخطأ (كما جاء فى البحث) أن تقتنى الكنيسة ممتلكات، فليس فى الكتاب المقدس ما يبرر هذا الاقتناء.

وعرف المؤلفان الكنيسة كما فعل أوكهام بأنها طائفة المسيحيين بأكملها. وكما كان الشعب الرومانى، صاحب السيادة الحقيقى فى القانون الرومانى، وكان هذا الشعب هو الذى يفوض فى سلطته القناصل أو الشيوخ أو الأباطرة فإن على الجماعة المسيحية أن تفوض فى سلطاتها، ممثليها من رجال الإكليروس وان كان لا يجب أن تسلم لهم قيادها، ويجب أن يكون هؤلاء مسئولين أمام الشعب الذى يمثلونه وادعاء البابا أنه يستمد سلطته من بطرس الرسول خطأ تاريخى فى نظر مارسيليوس إذ لم يكن بطرس أقوى سلطة من باقى الرسل ولم يكن لأساقفة روما فى أوائل عهدهم فى القرون الثلاثة الأولى سلطة تزيد عن سلطة الأساقفة فى كثير من العواصم القديمة الأخرى وكان يرأس المجالس العامة الأولى الإمبراطور أو نوابه وليس البابا. وأى مجلس عام ينتخبه شعب العالم المسيحى يجب أن يفسر الكتب المقدسة ويعرف العقيدة الكاثوليكية ويختار الكرادلة وهؤلاء يجب عليهم أن يختاروا البابا. ويجب على رجال الإكليروس بما فيهم البابا أن يخضعوا للقضاء المدنى والقانون فى جميع الأمور الدنيوية، ويجب أن تعين الدولة رجال الاكليروس وتمنحهم مرتبات وتحدد عدد الكنائس والقسس وتستغنى عن القسس كلما رأت أنهم غير جديرين بمناصبهم وتراقب الهبات الكنسية والمدارس التابعة للكنيسة ودخلها وترفه عن الفقراء من فائض دخول الكنيسة.

ها هو صوت الدولة الوطنية الطاغية يرتفع مرة أخرى. وما إن أخضع الملوك البارونات والكومونات بفضل مؤازرة الطبقات الوسطى الناهضة

حتى أحسوا بأنهم بلغوا من القوة حدا جعلهم يرفضون ادعاء الكنيسة بأن لها السيادة على السلطة المدنية . وانتهز الحكام الزمنيون الفرصة التى أتاحها لهم انحطاط السلطة الدولية والأدبية للكنيسة وأخذوا يحلمون بالسيطرة على كل وجوه الحياة فى ممالكهم بما فيها الدين والكنيسة وكانت هذه النتيجة تستحق الكفاح فى الإصلاح الدينى . ويعد انتصار الدولة على الكنيسة مرحلة نهائية فى العصور الوسطى .

(فى سنة ١٥٣٥ أمر هنرى الثامن ، وهو فى أوج تمرده على الكنيسة ، بترجمة كتاب المدافع عن السلام ونشره على نفقة الحكومة) وبعد أن اقترح مارسيليوس ، مثل أوكهام ولوثر ، أن يستبدل بسلطة الكنيسة سلطة الشعب ، اضطر ، بسبب النظام الاجتماعى ومن أجل سلامته الشخصية أن يستبدل بها سلطة الحكومة . ولكنه لم يرفع من شأن الملوك حتى يصبحوا غيلانا قادرين على كل شىء فقد كان يتطلع من وراء انتصار الدولة إلى اليوم الذى يمارس فيه الشعب فعلا سيادته التى طالما ود فقهاء القانون أن يقلدوها له . ودافع عن الديمقراطية فى مجال الإصلاح بين رجال الكنيسة ، فعلى كل طائفة مسيحية أن تختار ممثلا لها فى مجالس الكنيسة وعلى كل أبرشية أن تختار قساوستها وتراقبهم وتطردهم إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، ويجب ألا يحرم عضو فى الأبرشية دون موافقتها ، وطبق مارسيليوس مبادئ مماثلة على الحكومة المدنية وإن كان قد أدخل عليها بعض التعديل على استحياء :

طبقاً لحقيقة ورأى أرسطو ، نعلن أن المشرع — الدافع الأول والصحيح لسن القانون — يجب أن يكون هو الشعب — طائفة المواطنين بأكملها أو قسمها الأثقل وزنا ، تأمر وتقرر بمحض اختيارها أو إرادتها ، وتعبر عن رأيها شفوياً فى جمعية عمومية للمواطنين . . . وأقول قسمها الأثقل وزنا ، آخذا فى الاعتبار عدد الأشخاص وصفاتهم معا فى الجماعة التى يسن من أجلها القانون . وطائفة المواطنين بأسرها أو قسمها الأثقل وزنا إما أن تسن

القانون مباشرة أو تعهد بهذه المهمة إلى البعض أو إلى فئة قليلة ، ولكن هذه الأخيرة لا تكون، أو لا تستطيع أن تكون، المشرع بالمعنى الحرفى لهذه الكلمة، فهى تعمل فقط فى مجال هذه الأمور — ولهذه الفترات التى تخول لها من المشرع الأول . . . وفى رأيى أن المواطن هو كل من يشارك فى الجماعة المدنية بسلطة مداولة أو سلطة قضائية على حسب رتبته ، وعلى أساس هذه التعريفات يفرق القصر والعبيد والأجانب والنساء عن المواطنين ... وخير قانون يصدر هو الذى يكون نتيجة مداولة وثمرة إرادة الجماعة بأسرها . . . ويمكن لأغلبية منها ، بسرعة أكثر من سرعة أية أقسام منها ، إصدار أى قانون يقترح سنه لأن أى طائفة بأكملها أعظم سلطانا وثروة من أية أقسام منفصلة .

وهذا بيان عظيم بالنسبة لعصره (١٣٢٤) ولا شك أن ظروف العصر تبرر ما صاحبه من تردد . بل إن مارسيليوس لم يكن بوسعه أن يدافع عن المساواة فى التصويت بين جميع البالغين فى أوروبا حيث كان من العسير أن تجد واحداً يستطيع القراءة بين كل عشرة وحيث كانت المواصلات صعبة والانقسامات الطبيعية راسخة لا تتزعزع بمرور الزمن . والحق أنه رفض الديمقراطية الكاملة التى تتحدد فيها السياسة والتشريع بعدد الأنوف (مجموعة من الناس المعوزين) ولتصحيح هذا الفساد فى جمهورية كان يريد من الأفراد أن تكون لهم سلطة سياسية مناسبة لمكانتهم فى المجتمع ، وإن لم يقل كيف ومن يحكم على هذا . وأفسح مكانا للملكية ولكنه أضاف أن « الحاكم الذى ينتخب أفضل بكثير من الحكام الذين يتبوأون مناصبهم بالوراثة » فالملك يجب أن يكون نائباً وخادماً للجمهور وإذا أساء السلوك فإن من حق الجمهور أن يخلعه .

ولهذه الآراء أصل يرجع للقرون الوسطى بل إن لها أصلا قديماً ، فقد منح المحامون الرومان والفلاسفة الكلاميون بانتظام الشعب سيادة نظرية

وكانت البابوية نفسها ملكية انتخابية إذ كان البابا يطلق على نفسه اسم « خادم أجراء الله » وقد وافق توما الأكوينى على رأى جون أف سالسبورى القائل بحق الشعب فى خلع أى ملك يخالف القانون . ولكن قلما بلغت هذه الآراء فى العالم المسيحى درجة تصل إلى صيغة واضحة لحكومة برلمانية ، وها هو رجل فى القرن الرابع عشر جمع بين آراء أنصار الإصلاح الدينى من البروتستانت والمؤيدين للثورة الفرنسية .

وكان مارسيليوس سابقا جدا لعصره فلم يهدأ لحظة واحدة إذ ارتفع شأنه بسرعة بارتفاع شأن لويس البافارى وسقط كذلك بسقوطه . وعندما عادى لويس الباباوات طلب منه أن يطرد مارسيليوس باعتباره هرطيقا ولا ندرى شيئاً عن النتيجة ، ويبدو أن مارسيليوس مات عام ١٣٤٣ وهو منبوذ من الكنيسة التى حاربها ومن الدولة التى عمل على رفع شأنها .

ولعل نجاحه المؤقت ماكان ليتحقق لو لم تخول مهنة القانون الناهضة للدولة سلطة تنافس سلطة الكنيسة . فقد رفع المحامون « القانون الوضعى » للدولة إلى جانب ، وغالباً ضد ، القانون الكنسى ، وعلى أطلال القانون الإقطاعى والشيوعى ، وانتشر هذا القانون الملكى أو الدنيوى على الأيام وتغلغل فى أمور الناس . وأخرجت مدارس القانون فى مونبلييه وأورليانز وباريس قانونيين يتصفون بالجرأة والدهاء ، وقد استخدموا القانون الرومانى لتكوين نظرية الحق الإلهى والسلطة المطلقة لسادتهم من الملوك وذلك مقابل الادعاءات البابوية . وكانت هذه الآراء أقوى فى فرنسا منها فى أى مكان آخر إذ انتشرت هناك فى صورة شعارات مثل « أنا الدولة » و « الملك الشمس » كما سادت فى اسبانيا ومهدت بذلك إلى الحكم المطلق لفرديناند وشارل الخامس وفيليب الثانى بل إن ويكليف فى انجلترا البرلمانية قال بسلطة غير محدودة للملك المقدس . وعارض النظرية أعضاء مجلس اللوردات والعموم وأصر سيرجون

فورتيسكو على أن الملك الإنجليزى لا يستطيع أن يصدر قوانين دون موافقة البرلمان وأن القضاة الإنجليز ملزمون بمقتضى قسمهم أن يحكموا وفقاً لقانون البـلاد مهما كانت رغبة الملك ولكن انجلترا ركعت بدورها أمام حكام مستبدين فى عهد هنرى السابع وهنرى الثامن واليزابث . وبين استبدادى البابوات وأندادهم من الملوك اعتصمت بعض النفوس المثالية بفكرة « القانون الطبيعى » وهو يقوم على عدالة إلهية متغلغلة فى الضمير الإنسانى ومنصوص عليها فى الأناجيل وهو قانون أعلى من أى قانون من صنع الإنسان . ولم تعبأ الدولة أو الكنيسة بهذا المفهوم وظل فى المهاد معترفاً به ومتجاهلا فى الوقت نفسه وإن ظل هذا المفهوم حياً واهياً . وقد تبنى فى القرن الثامن عشر إعلان الاستقلال الأمريكى والإعلان الفرنسى لحقوق الإنسان ولعب دوراً صغيراً وإن كان بليغاً فى ثورة قوضت لبعض الوقت عروش الحكام المستبدين الذين حكموا العالم وحارب نيكولاس الكوزاوى استبداد البابوية ثم استسلم لها .

وفى خلال حياته المتقلبة أظهر أفضل وجه للمسيحية المنظمة بالنسبة لألمانيا التى لم تكن تطمئن إلى الكنيسة . وقد جمع فى إهاب شخصيته القوية خير عناصر العصور الوسطى التى تلائم حياته وذلك باعتباره فيلسوفاً وإدارياً وعالماً باللاهوت وقانونياً . وقد ولد فى كولس قرب ترير (١٤٠١) وجمع بين التضلع فى القانون والتخصص فى الدين فى مدرسة « إخوان الحياة المشتركة فى ديفنتر » وفى عام قضاه بهيدلبرج تأثر بمذهب أوكهام الاسمى فى بادوا تأثر بمذهب الشـك عن ابن رشد بعض الوقت وفى كولونيا تشرب التراث الأورثوذكسى لألبرتوس ماجنوس وتوما الأكوينى. لقد كانت فيه كل العناصر التى تجعل منه أكمل مسيحى فى عصره .

ولم يتخل قط عن نزعته الصوفية التى انتقلت إليه من ما يستر اكهارت

فكتب مؤلفا كلاسيا فى التصوف عنوانه : « رؤية الله » وفى دفاع فلسفى عن مثل هذه الرؤى « دفاع عن الجهل العليم» APologia doctae ignorantiae صاغ عبارة مشهورة هى « الجهل العليم » ورفض المذهب العقلى الكلامى الذى يبحث فى إثبات علم اللاهوت بالعقل وذهب إلى أن كل المعارف الإنسانية نسبية وغير ثابتة فالحقيقة خفية فى الله . وأعرض بوجه عام عن التنجيم وإن كان قد انهمك فى بعض الحسابات الفلكية مستسلماً فى ذلك للأوهام الشائعة فى عهده وظن أن نهاية العالم ستكون عام ١٧٣٤ . وفى وسط حياة تزخر بالنشاط الكنسى حافظ أولا وقبل كل شىء على الفكرة العلمية وحث على القيام بمزيد من التجربة ومزيد من المقاييس الدقيقة وأشار إلى زمن سقوط الأجسام المختلفة من شتى الارتفاعات ودرس أن الأرض « لا يمكن أن تكون ثابتة ولكنها تتحرك مثل غيرها من النجوم فكل نجم يتحرك مهما بدا لنا ثابتاً ، وكل مدار فلكى دائرى والأرض ليست مركز العالم إلا كما تعد أى نقطة مركزا لعالم لانهائى . وكانت هذه الآراء استعارات حكيمة حينا ولمحات ذكية حيناً آخر .

وذهب نيكولاس عام ١٤٣٣ إلى بازيل ليقدم للمجلس الكنسى هناك مطالب صديق إلى كبير أساقفة كولونيا . وسقطت حجته ولكنه انتهز الفرصة ليقدم للمجلس على خلاف من البابا — عملا هو ثمرة لخطة مشهورة فى تاريخ الفلسفة . وأطلق عليه اسم : De concordontia Catholica « الائتلاف الكاثوليكى » وكان الهدف العام الذى يرمى إليه هو أن يتوصل إلى اتفاق بين المجالس وبين البابوات وقد صور الكنيسة وحدة عضوية لا تستطيع أن تؤدى وظيفتها بنجاح إلا من خلال التعاون الوثيق بين أجزائها وذلك فى قياس محكم وتركيب متقن. وبدلا من أن يستنتج نيكولاس ، كما فعل البابوات ، أن الأجزاء يجب أن تسترشد بالرأى فإنه رأى أن مجلساً عاماً فحسب هو الذى يمكن أن يمثل ويعبر عن ويوحد عناصر الكنيسة التى يعتمد بعضها على البعض

الآخر . وردد آراء الأكوينى ومارسيليوس بل وسبق آراء روسو وجيفرسون فى فقرة مثالية : «كل قانون يعتمد على قانون طبيعى وإذا تناقض معه فإنه لا يمكن أن يكون قانوناً صحيحاً » . . . وبما أن الناس قد خلقوا أحراراً فإن أية حكومة توجد فقط بموافقة رعاياها ورضاهم فحسب . . . والقوة الملزمة لأى قانون يتضمنها هذا الاتفاق وهذا الرضا صراحة أو ضمنا فالشعب صاحب السيادة يفوض فى سلطانه بعض الجماعات الصغيرة المزودة بالتعليم أو الخبرة لسن القوانين أو تطبيقها غير أن هذه الجماعات تستمد سلطاتها العادلة من رضا المحكومين وعنـــدما تفوض الجماعة المسيحية فى سلطاتها مجلساً عاماً للكنيسة فإن هذا المجلس وليس البابا هو الذى يمثل السلطة العليا فى الدين . وفضلا عن هذا فإن البابا لا يستطيع أن يستند فيما يدعيه من حق شرعى مطلق، إلى هبة قسطنطين المفترضة لأن هذه الهبة اختلاق وأسطورة . إن للبابا الحق فى عقد مجلس عام ولكن مثل هذا المجلس يمكنه أن يخلعه إذا رآه غير لائق بمنصبه . ونفس المبادئ يمكن أن تطبق على الأمراء الزمنيين: وربما تكون الملكية الانتخابية خير حكومة تتاح للناس فى حالتها الفاسدة الحالية ولكن يجب على الحاكم الدنيوى ، كما يجب على البابا ، أن يعقد بانتظام مجلساً نيابياً ويجب أن يخضع للقوانين التى يصدرها هذا المجلس .

وكان مثالا يحتذى للبطاركة فى أخريات أيامه فعندما رسم كاردينالا عام ١٤٤٨ أصبح شخصية كاثوليكية مصلحة . وقام بجولة مجهدة فى هولندا وألمانيا وعقد خلالها مجمعات مقدسة إقليمية وأحيا النظام الكنسى وأصلح أديرة الرهبان والراهبـــات وهاجم تسرى القسس وارتقى بتعليم رجال الإكليروس ورفع على الأقل لفترة ما المستوى الخلقى لرجال الدين والشعب. وقد كتب العلامة أبوت تريثيميوس : « ظهر نيكولاس الكوزاوى فى ألمانيا كملاك ينشر النور والسلام وسط الظلام والشك وقد أعاد وحدة الكنيسة ودعم سلطة رأسها الأعلى وزرع بذرة ثمينة فى حياة جديدة .

ويمكن لنيكولاس أن يضيف إلى ألقابه الأخرى لقب عالم بالإنسانيات فقد أغرم بالكلاسيات القديمة وشجع على دراستها وفكر فى طبع المخطوطات اليونانية التى أحضرها بنفسه من القسطنطينية لتوزيعها على نطاق واسع وكان يتسم بتسامح العلامة الحقيقى فقد طالب بتفاهم متبادل بين الأديان كالأشعة المختلفة المنبعثة من حقيقة أزلية واحدة وذلك فى كتاب « حوار حول السلام » الذى ألفه فى نفس العام الذى سقطت فيه القسطنطينية فى أيدى الأتراك . وفى فجر الفكر الحديث عندما كانت حرية الرأى سما ناقعا كتب هذه الكلمات السليمة النبيلة :

« إنها لمتعة أن تعرف وأن تفكر وأن ترى الحقيقة بعين العقل . وكلما تقدم المرء فى السن وجد فى هذا متعة أكبر ولما كان الحب هو حياة القلب فإن حياة العقل فى السعى وراء المعرفة وحقيقة الحياة . ووسط حركات الزمن والعمل اليومى وتناقضات الحياة وارتباطاتها فإننا يجب أن نرفع أبصارنا بلا خوف صوب قبة السماء الصاخبة ونحاول الحصول على إدراك أشد رسوخا لأصل كل خير وجمال ومدى قدرة قلوبنا وعقولنا وثمار العقول البشرية كلها خلال القرون وظواهر الطبيعة الرائعة حولنا على أن نذكر دائماً أن العظمة الحقة إنما تكمن فى التواضع وحده ولا يمكن الإفادة من المعرفة والحكمة إلا إذا كانتا تسيطران على حياتنا :

ولو قد ظهر كثيرون من أمثال نيكولاس لما قدر لمثل لوثر أن يوجد .

الفصل الرابع عشر

غزو البحر

١٤٩٢ – ١٥١٧

١ – كولمبس

لقد كان « قدرا ظاهرا » أن يجرؤ امرؤ فى هذا العصر على اقتحام مخاطر الأطلنطى ليكتشف الهند أو « كاثى » إذ تحدثنا الأسطورة عن وجود « أطلانتس » عبر البحر بل إن الأساطير المتأخرة ذهبت إلى وجود نبع وراء الأطلنطى تمنح مياهه الشباب الدائم . وأدى فشل الحملات الصليبية إلى ضرورة كشف أمريكا وكانت لسيطرة الأتراك على شرقى البحر الأبيض المتوسط وما اقترفه العثمانيون فى القسطنطينية والأسر الملكية المناهضة للمسيحية فى فارس وتركستان من إغلاق الطرق البرية ومنع المرور فيها سببا فى جعل الطرق القديمة للتجارة بين الشرق والغرب باهظة التكاليف ومحفوفة بالمخاطر . وتشبثت إيطاليا وفرنسا ببقايا تلك التجارة على الرغم من كل عوامل التثبيط من ضرائب الطرق والحرب ولكن البرتغال واسبانيا كانتا بعيدتين جدا فى الغرب وكان من الصعب عليهما الاستفادة من مثل هذه الاتفاقات وكانت مشكلتهما لا تحل إلا بالعثور على طريق آخر وقد وجدت البرتغال طريقا حول افريقيا ولم يعد أمام اسبانيا إلا أن تجرب حظها فى المرور غربا .

وقد أدى تقدم المعرفة إلى إثبات كروية الأرض منذ عهد بعيد وشجعت أخطاء العلم ذاتها على الأقدام وذلك بإساءة تقدير عرض المحيط الأطلنطى وبتصوير آسيا على أنها أرض سهلة للغزو والاستثمار فى الطرف الأقصى ؛

ولقد وصل البحارة الاسكنديناويون عامى ٩٨٦ و ١٠٠٠ إلى لبرادور وعادوا يحملون نبأ العثور على قارة جديدة فسيحة ، وزار كريستوفر كولمبس أيسلندا عام ١٤٧٧ ، إذا صدقنا القصة التى رواها بلسانه ، ومن المسلم به أنه سمع الروايات المأثورة التى تردد فى فخر رحلة لايف اريكسون إلى ڤنلنده Vindland .

كان المال هو كل ما تحتاجه المغامرة الكبرى وقتذاك أما الشجاعة فكانت متوفرة . وقد سجل كولمبس نفسه فى المايورازو mayorazzo أو الوصية التى حررها قبل أن يقوم برحلته الثالثة عبر الأطلنطى أنه من مواليد جنوا . حقا إنه كان فى محرراته الموجودة لدينا يتسمى بالاسم الأسبانى كريستوبال كولون ولم يستخدم قط اسمه الإيطالى كريستوفورو كولومبو ولكن المعتقد أن هذا كان بسبب كتابته بالأسبانية لأنه عاش فى اسبانيا أو لأنه كان يقوم برحلاته البحرية لحساب ملك اسبانيا لا لأنه ولد فى اسبانيا : ومن المحتمل أن يكون أجداده أسبانيين من اليهود الذين اعتنقوا المسيحية وهاجروا إلى إيطاليا ، والدليل قوى على أن الدم العبرى يسرى فى عروق كولمبس وعلى ميله لليهود . وكان والده نساجا ويبدو أن كريستوفورو امتهن هذه المهنة بعض الوقت فى جنوا وسافونا ، وقد ورد فى الترجمة الذاتية التى كتبها ابنه فرديناند أنه درس التنجيم والهندسة وعلم الكون (الكوزموجرافيا) فى جامعة بافيا وإن لم يدرج اسمه فى سجلات الجامعة ، وها هو يقول لنا بنفسه إنه أصبح بحارا فى الرابعة عشرة من عمره لأن كل طريق فى جنوا يؤدى إلى البحر .

وهاجم القراصنة عام ١٤٧٦ سفينة كان كولومبس بها نحو لشبونه وأغرقت هذه السفينة . ويروى كولمبس أنه سبح ستة أميال حتى وصل إلى الشاطىء مستعينا ببعض الحطام ولكن يبدو أن أمير البحر العظيم أطلق

لخياله العنان إذ يقول إنه سافر بعد بضعة شهور إلى إنجلترا بحارا أو قبطانا ثم سافر إلى ايسلنده فلشبونة وهناك تزوج واستقر واشتغل برسم الخرائط الجغرافية ، وكان حموه بحارا خدم الأمير هنرى الملاح ، وليس من شك فى أن كولومبوس سمع منه بعض الحكايات الممتعة عن شاطىء غيليا ، ولعله انضم عام ١٤٨٢ كضابط إلى الأسطول الذى تغالى الذى أبحر حذاء هذا الشاطىء إلى المينا ، وقرأ باهتمام كتاب البابا بيوس الثانى Historia rerum gestarum « تاريخ الأجناس » وكثيرا من التعليقات مما أوحى إليه بفكرة الطواف بحرا حول إفريقيا .

ولكن دراساته مالت به شيئاً فشيئاً نحو الغرب وعرف أن سترابون روى فى القرن الأول من عصرنا محاولة للطواف حول الكرة الأرضية وكان يعلم ما كتبه سينيكا : « بعد سنوات سيأتى عصر يطلق فيه المحيط قيود الأشياء وتظهر أرض فسيحة ويكشف فيه النبى تيفيس عوالم جديدة ولن تكون ثولى (أيسلندة ؟) أقصى طرف للأرض » ، وقد قرأ « كتاب سير ماركوبولو الذى امتدح ثروات الصين وحدد وضع اليابان على بعد ١٥٠٠ ميل شرق قارة آسيا . وكتب أكثر من ألف ملاحظة فى نسخته من كتاب بيير دالى (صورة العالم) Imago mundi وقبل التقدير الراجح لمحيط الأرض بأنه يبلغ من ١٨٠٠٠ر إلى ١٠٠٠٠ر١٠ ميل وبربط هذا بتحديد بولو لمكان اليابان حسب أن أقرب الجزر الأسيوية على بعد ٥٠٠٠ر ميل غرب لشبونة وقد سمع عام ١٤٧٤ عن خطاب كتبه الطبيب الفلورنسى باولو توسكانيلى للملك البرتغال ألفونسو الخامس يشير عليه بأنه يمكن اكتشاف طريق أقصر للهند من الطريق حول افريقيا وذلك بالسفر بحرا لمسافة ٥٠٠٠ ميل غربا . وكتب كولومبوس إلى توسكانيلى وتلقى منه ردا مشجعا ونضجت الفكرة فى ذهنه .

وحوالى عام ١٤٨٤ عرض على جون الثانى ملك البرتغال أن يجهز ثلاث سفن للقيام بحركة استكشافية لمدة عام عبر الأطلنطى والعودة منها على أن يعين كولومبس أمير بحر أعظم للمحيط وحاكما دائما لكل الأراضى التى يكتشفها ، وأن يحصل على عشر كل الإيراد والمعدن الثمين الذى تحصل عليه البرتغال من تلك الأراضى (ومن الواضح أن فكرة نشر المسيحية كانت ثانوية بالنسبة للاعتبارات المادية) . وقدم الملك العرض إلى لجنة من العلماء فرفضوه على أساس أن تقدير كولومبوس للمسافة عبر الأطلنطى بأنها لا تعدو ٢٤٠٠ ميل أقل بكثير من الحقيقة (كان هذا التقدير صحيحا تقريبا للمسافة من جزر كانارى إلى جزر الهند الغربية) وعرض ملاحان برتغاليان عام ١٤٨٥ مشروعا مماثلا على الملك جون ولكنهما وافقا على تمويله بنفسيهما فمنحهما جون بركته وهـذا أضعف الإيمان ، وانطلقا عام ١٤٨٧ متخذين طريقا أقرب للشمال تحف به الرياح الغربية الشديدة ثم عادا بخفى حنين . وجدد كولومبوس طلبه عام ١٤٨٨ فدعاه الملك لمقابلته وأقبل كولومبوس فى الوقت المناسب ليشهد العودة الظافرة لبارثولوميو دياس من رحلة ناجحة طاف فيها حول افريقيا . ولما كانت الحكومة البرتغالية تطمع فى اكتشاف طريق إلى الهند يمر بأفريقيا فإنها تخلت عن فكرة البحث عن طريق عبر الأطلنطى فتحول إلى جنوا والبندقية ولكنهما بدورهما لم يقدما له أى تشجيع لأن اهتمامهما كان موجها لاكتشاف طريق للشرق بالاتجاه شرقا . وفوض كولمبس أخاه فى جس نبض هنرى السابع ملك إنجلترا فدعاه إلى مقابلته ولكن عند ما وصلت الدعوة إلى كولمبس كان قد وضع نفسه فى خدمة أسبانيا . وكان عندئذ (١٤٨٨) فى حوالى الثانية والأربعين من عمره . طويلا نحيلا له وجه مستطيل وبشرة حمراء قانية وأنف معقوف وعينان زرقاوان بوجهه نمش وشعره أحمر فاتح بدأت تتخلله الشعرات البيضاء ويوشك أن يشتعل شيبا ، وقد وصفه ابنه وأصدقاؤه

بأنه رجل متواضع ، رزين ، وديع ، فطن ، معتدل فى طعامه وشرابه ، تقى للغاية . وزعم آخرون أنه كان معجبا بنفسه ، يعرض الألقاب التى منحت له ويبالغ فيها وأنه رفع أجداده إلى طبقة النبلاء فى خياله وكتاباته وأنه ساوم بشدة للحصول على نصيب من ذهب العالم الجديد . ومهما يكن من أمر فإنه كان يستحق أكثر مما طلب : وكان بين الفينة والفينة ينحرف عن العمل بالوصايا العشر فقد حدث فى قرطبة أن أنجبت منه بياتريس انريكيز ولدا غير شرعى عام ١٤٨٨ وذلك بعد وفاة زوجته . ولم يتزوج منها كولمبس وإن كان قد وفر لها كل شىء فى حياته ولم ينسها فى وصيته ولما كان معظم علية القوم فى تلك الأيام النشيطة قد أنجبوا أبناء من علاقات عارضة فإنه يبدو أن أحدا لم يعر هذا الحادث اهتماما .

وفى غضون ذلك كان قد قدم التماسه إلى إيزابيلا صاحبة قشطالة (أول مايو سنة ١٤٨٦) فأحالتهـــا إلى جماعة من المستشارين يرأسهم صاحب القداسة رئيس أساقفة طلبيرة . وبعد أن تشاوروا طويلا قدموا تقريرا ذكروا فيه أن الخطة غير عملية واحتجوا بأن آسيا تقع على مسافة أبعد من ناحية الغرب مما ظن كولومبس ومع ذلك فإن فرديناند وإيزابيلا منحاه راتبا سنويا قدره ١٢٫٠٠٠ مارافيدس (٨٤٠ دولارا ؟) وزوداه عام ١٤٨٩ بخطاب يأمران فيه كل البلديات الأسبانية بأن توفر له الطعام والمأوى ولعلهما كانا يريدان أن يحتفظا بحق الاختيار بالنسبة لمشروعه لئلا يمنح قارة لملك منافس بطريق المصادفة ولما رفضت لجنة طلبيرة المشروع مرة أخرى بعد أن تداولت بشأن الخطة قرر كولومبس أن يقدم المشروع إلى شارل الثامن ملك فرنسا غير أن فراى جوان بيريز رئيس رهبان دير لارابيدا أثناه عن عزمه ورتب له مقابلة مع إيزابيلا فأرسلت إليه ٢٠٫٠٠٠ مارافيدس لمواجهة نفقات رحلته إلى مقر قيادتها فى مدينة سانتافى المحاصرة

وذهب هناك واستمعت فى رقة إلى حجته ولكن مستشاريها عارضوا الفكرة مرة أخرى فاستأنف استعداداته للذهاب إلى فرنسا (يناير سنة ١٤٩٢) .

وعند هذه المرحلة الحرجة حرك يهودى متنصر سير التاريخ فقد لام لويس دى سانتاندر ، وزير مالية فرديناند ، إيزابيلا لافتقارها إلى الخيال والعزيمة ، وأغراها وذلك بأن لوح لها بالأمل فى أن تحول آسيا إلى المسيحية واقترح أن يمول الحملة بنفسه بمعاونة أصدقائه وأيده فى فكرته يهود آخرون — دون إيزاك أبرابانل Abrabanel وخوان كابريرو وأبراهام سنيور ، وتأثرت إيزابيلا بالفكرة وعرضت أن ترهن جواهرها لرفع قيمة المبلغ المطلوب ولكن سانتاندر رأى أن هذا الإجراء غير ضرورى واقترض مبلغ ١٫٤٠٠٫٠٠٠ مارافيديس من جماعة الرهبان التى كان أمينا لصندوقها وأضاف إليه مبلغ ٣٥٠٫٠٠٠ من جيبه الخاص كما حصل كولومبس بطريقة ما على مبلغ ٢٥٠٫٠٠٠ علاوة على ما سبق .

وفى السابع عشر من أبريل عام ١٤٩٢ وقع الملك الأوراق الضرورية ثم أعطى عندئذ أو بعد ذلك لكولومبس خطابا إلى خان كاثاى ، وكان هذا فى الصين وليس فى الهند التى كان يأمل كولمبس أن يصل إليها والتى ظن حتى آخر لحظة فى حياته أنه قد اكتشفها .

وفى الثالث من أغسطس أبحرت سانتاماريا (سفينة أمير البحر) وبنتا ونينيا Nina من بالوس وعلى ظهرها ثمانية وثمانون رجلا ومؤن تكفيهم لمدة عام .

٢ ـ أمريكا

واتجهوا جنوباً نحو جزر كانارى ينشدون الرياح من الشرق قبل أن يواجهوا الغرب . وبعد إقامة طويلة فى الجزر أقدموا على السير فى خط مواز لخط عرض ثمان وعشرين (٦ سبتمبر) فى مكان لا يبعد جنوبا بدرجة تكفى لينعموا بالرياح التجارية ونحن نعلم أنهم لو اتجهوا جنوبا أكثر من ذلك لقصروا المسافة إلى أمريكا وجنبوا أنفسهم ما لاقوه من عناء فى طريقهم إليها وكان الطقس لطيفا وكتب كولمبس فى سجل سير السفينة « مثل جو أبريل فى الأندلس والشىء الوحيد الذى ينقصنا هو سماع صوت البلابل » . واعتراهم القلق ثلاثة وثلاثين يوماً وكان كولمبس يقلل من المخصصات الغذائية التى تصرف لرجاله بنسبة الأميال التى يقطعونها كل يوم ولكن نظراً لأنه بالغ فى تقدير سرعته فإن بياناته كانت صحيحة برغم أنفه .

وعندما استمر سكون الرياح غير طريقه وإذ ذاك شعر البحارة ، أكثر من أى وقت مضى ـ بالضياع فى خضم البحر وهم يسيرون فيه على غير هدى . وفى التاسع من أكتوبر صعد ربانا السفينتين بنتا ونينيا على ظهر سفينة القيادة وطالبا بإلحاح بالعودة فوراً إلى إسبانيا فوعدهما كولمبس بأنه سيحقق رغبتهما إذا لم يروا الأرض خلال ثلاثة أيام وفى العاشر من أكتوبر تمرد بحارة سفينته ولكنه هدأ من ثورتهم بأن تعهد لهم بنفس الشىء . وفى الحادى عشر من أكتوبر التقطوا من المحيط غصنا أخضر يحمل أزهاراً فعادوتهم الثقة فى قائدهم . وفى الساعة الثانية من صباح اليوم التالى والقمر بدر تقريباً صاح رودريجودى تريانا القائم بالحراسة (الأرض ! الأرض !) أخيراً ها هى الأرض . .

وعند ما أقبل الفجر رأوا جماعة من الوطنيين العراة على الشاطئ وكلهم معتدلو القامة . واستقل القباطنة الثلاثة قاربا بصحبة رجال مسلحين جدفوا بهم نحو الشاطئ وركبوا وقبلوا الأرض وحمدوا والله وأطلق كولمبس على الجزيرة اسم سان سلفادور المخلص المقدس — واستولى عليها باسم فرديناند وايزابيلا والمسيح . واستقبل المتوحشون مستعبديهم في المستقبل بدماثة المتحضرين . وكتب أمير البحر : « ما دمت قد عرفت أنهم قوم يمكن تحريرهم وهدايتهم إلى أبينا المقدس عن طريق الحب لا القهر فلكى نكسب صداقتهم أعطيت لبعضهم قلانس حمراء وللبعض الآخر خرزا وأشياء أخرى كثيرة تافهة القيمة سرتهم كثيراً . ولقد ظلوا أصدقاء أوفياء لنا وهذه أعجوبة . واقبلوا فيما بعد سابحين إلى قوارب السفينة وأحضروا معهم ببغاوات وخيوطاً من القطن . . وأشياء أخرى كثيرة فأعطيناهم فى مقابلها خرزات صغيرة . . . وأخيراً تبادلوا معنا كل ما يملكون وهم راضون كل الرضى » .

ولعل خبر « المتوحش المسالم السلس » الذى فتن روسو وشاتوبريان وهويتمان قد بدأ عندئذ وفى ذلك المكان ولكن كان من بين الأمور التى عرفها كولمبس عن الجزيرة أن هؤلاء الوطنيين كانوا عرضة لغارات تقوم بها جماعات أخرى من الوطنيين لاسترقاقهم وأنهم أنفسهم أو أسلافهم تغلبوا على أهالى البلد الأصليين . وبعد رسوهم بيومين كتب فى يومياته ملاحظة مشئومة : « إن هؤلاء الناس غير حاذقين فى استخدام الأسلحة ويمكن إخضاعهم بخمسين رجلا وحملهم على القيام بكل ما يريده المرء » . ولكن لم يكن فى سان سلفادور للأسف أى ذهب . وفى الرابع عشر من أكتوبر أقلع الأسطول الصغير بحثاً عن سيبانجو — اليابان — والذهب . وفى الثامن والعشرين من أكتوبر رسوا على كوبا وهناك أحسن الأهالى بدورهم التصرف وحاولوا أن ينضموا لضيوفهم فى إنشاد (ايف ماريا) وبذلوا جهدهم فى رسم علامة

الصليب . وعندما عرض عليهم كولومبس الذهب أبدوا له ما يدل على أنه سيجد بعضه فى نقطة بالداخل أطلقوا عليها اسم كوبانا كان — أى وسط كوبا — واعتقد أنهم يقصدون بهذا الخان العظيم أو خان الصين العظيم فأرسل أسبانيين معهما أوراق اعتماد دبلوماسية ليجدا هذا الحاكم المراوغ وعادا دون أن يلتقيا بالخان وإن كانا قد جاءا بقصة ممتعة عن الحفاوة التى استقبلا بها فى كل مكان كما أنهما قدما أول تقرير للأوربيين عن التبغ الأمريكى فقد شاهدوا رجلا وامرأة من الأهالى يدخنان أعشاب التبغ وهى ملفوفة فى سيجار أدخلاه فى الأنف وغادر كولمبس كوبا وهو يشعر بخيبة الأمل (٤ ديسمبر) وأخذ معه عنوة خمسة من شباب الوطنين ليقوما بمهمة الترجمة وسبع نساء للترفيه عنهم وقد مات الجميع وهم الطريق إلى أسبانيا .

وفى غضون ذلك كان مارتين ألونزوبينزون الربان الأول فى أسطول كولمبس قد هجره وانطلق بسفينته لينقب عن الذهب لحسابه الخاص . وفى الخامس من ديسمبر وصل كولمبس إلى هايتى وهناك ظل أربعة أسابيع وهو يلاقى من الأهالى كل ترحيب وحفاوة . وعثر على بعض الذهب وشعر أنه غدا قاب قوسين أو أدنى من الخان ولكن سفينته المعقود لها لواء القيادة اصطدمت بسلسلة من الصخور وحطمتها الأمواج والصخور عشية يوم عيد الميلاد الذى كان قد فكر بالاحتفال به كأسعد يوم فى حياته . ومن حسن الحظ أن السفينة نينيا كانت على مقربة منه فأنقذت البحار واقتحم الأهالى الطيبون أمواج البحر فى قواربهم للمعاونة فى إنقاذ معظم الشحنة قبل أن تغرق السفينة وواسى زعيمهم كولمبس فعرض عليه ضيافته وقدم له الذهب وأكد له أن هناك كمية وفيرة من هذا المعدن القاتل فى هايتى . فحمد أمير البحر الله على الذهب وسامحه على تحطيمه لسفينته وكتب فى يومياته أن فرديناند وايزابيلا سيكون عندهما الآن من الأموال ما يكفى لغزو الأرض المقدسة . وتأثر بسلوك الأهالى الحسن فترك قسما من بحارته يتوطنون لارتياد الجزيرة

بينما عاد إلى إسبانيا ليقدم تقريراً عن اكتشافاته . وفى السادس من يناير سنة ١٤٩٣ عاد بنزون وانضم إليه بسفينته بنتا وقبل كولمبس اعتذاره فقد كان يمقت العودة وليس معه إلا سفينة واحدة . وفى السادس عشر من يناير بدأ رحلة العودة للوطن .

كانت رحلة طويلة تعسة فطوال شهر يناير كانت الرياح معاكسة وفى الثانى والعشرين من فبراير هبت ريح عاصفة صفعت السفينتين الصغيرتين ولم يكن طول كل منهما يتجاوز سبعين قدما وبينما كان كولومبس ورفيقه يقتربان من شاطىء الأزور تخلى عنه بنزون مرة أخرى مؤملا أن يكون أول من يصل إلى أسبانيا بالأنباء العظيمة عن اكتشاف آسيا وألقت السفينة نينيا مراسيها بعيداً عن سانتا ماريا فى شاطئ الأزور (١٧ فبراير) وانطلق نصف البحارة إلى الشاطئ للقيام بالحج إلى مزار للعذراء فاعتقلتهم السلطات البرتغالية وألقت بهم فى السجن لمدة أربعة أيام بينما كان كولمبس يتميز غيظا على الشاطئ ثم أطلق سراحهم وأقلعت السفينة نينيا مرة أخرى ولكن عاصفة أخرى دفعتها بعيداً عن طريقها المرسوم ومزقت قلوعها فاغتم البحارة ونذروا أن يقضوا أول يوم يطأون فيه الأرض صـــائمين على الخبز والماء وأن يعملوا بالوصايا العشر . وفى الثالث من مارس رأوا شاطئ البرتغال وعلى الرغم من أن كولمبس علم أنه كان يخاطر بالوقوع فى ورطة دبلوماسية فإنه قرر أن يرسو فى لشبونه وفضل هذا على محاولة قطع الأميال المائتين وخمسة وعشرين الباقية للوصول إلى باولوس مستعينا بقلع واحد . واستقبله جون الثانى بحفاوة ورممت السفينة نينيا وفى الخامس عشر من مارس وصلت إلى باولوس بعد « عناء وهول لا حد لهما » (كما قال كولمبس) بعد مرور ١٩٣ يوما من مغادرة ذلك الميناء . وكان مارتن بنزون قد رسا شمالى أسبانيا قبل ذلك ببضعة أيام وبعث برسالة إلى فرديناند وإيزابيلا ولكنهما

رفضا أن يقابلاه هو أو رسوله ودخلت السفينة بنتا باولوس بعد يوم من وصول السفينة نينيا وفر بنزون يغمره الفزع ويجلله العار الذى جلبه على وطنه ولازم فراشه حتى مات .

٣ — مياه المرارة

ورحب الملك والملكة بكولومبس فى برشلونه وعاش فى البلاط ستة شهور وأنعم عليه بلقب «أمير البحر الاوقيانوس ويقصد به الأطلنطى غرب شواطئ الأزور » . ونصب حاكما على العالم الجديد أو كما وصف نفسه « نائب الملك وحاكم عام الجزر وأراضى آسيا والهند » . وعندما شاع أن جون الثانى يجهز أسطولا لعبور الأطلنطى استغاث فرديناند بالبابا الكسندر السادس . وطلب منه أن يحدد حقوق أسبانيا فى « البحر الأوقيانوس » فعين البابا الأسبانى ، فى سلسلة من المنشورات (١٤٩٣) لأسبانيا ملكية كل الأراضى التى لا تدين بالمسيحية فى الغرب ،وللبرتغال كل الأراضى فى الشرق ويفصل بينهما خط وهمى مرسوم بحيث يمر من الشمال إلى الجنوب على بعد ٢٧٠ ميلا غرب الأزور وجزر الرأس الخضراء ولكن البرتغاليين رفضوا قبول هذا الخط الفاصل وأوشكت الحرب أن تنشب بين الحكومتين المتنافستين لولا أنهما وافقتا فى معاهدة توردسيلاس (٧ يونيه سنة ١٤٩٤) على أن يمر ذلك الخط موازيا لخط الزوال الطولى على بعد ٢٥٠ فرسخا غرب جزر الرأس الخضراء بالنسبة للاكتشافات التى تمت قبل ذلك التاريخ ، ولكن على بعد ٣٧٠ فرسخا غربا بالنسبة للاكتشافات التى تتم بعد ذلك . (يقع الطرف الشرقى للبرازيل شرق هذا الخط الثانى) وقد أطلقت منشورات البابا على الأرض الجديدة « جزر الهند » وقبل العلماء أمثال بييترو مارتيرى وانجييرا رأى كولومبس بأنه قد وصل إلى آسيا واستمر هذا الوهم حتى طاف ماجلان حول الكرة الأرضية .

وقام فرديناند وإيزابيلا يحدوهما الأمل فى الحصول على الذهب بتزويد كولومبس بأسطول جديد يتكون من سبع عشرة سفينة مجهزة بألف ومائتى بحار وحيوانات للشروع فى تربية قطعان من الماشية والأغنام فى جزر الهند وخمس من رجال الدين لتلقى اعترافات الإسبانيين ولهداية « الهنود » . وقد بدأت الرحلة الثانية من اشبيليه يوم ٢٥ سبتمبر سنة ١٤٩٣ وبعد تسعة وثلاثين يوما (مقابل سبعين يوماً فى الرحلة الأولى) شاهد الحارس جزيرة أطلق عليها كولمبس اسم « دومينيكا » لأنهم كانوا فى يوم الأحد . ولم ينزلوا إلى الأرض هناك لأن أمير البحر اشتم رائحة فريسة أكبر . ومر خلال مجموعة جزر الأنتيل الصغرى فى أقصى الغرب وتأثر كثيرا بعددها فأطلق عليها اسم « إحدى عشر ألفاً من العذارى» . وهى لاتزال جزراً عذراء وتابع رحلته واكتشف بويرتوريكو ، وتمهل هناك قليلا ثم أسرع ليرى ما حدث للمستوطنين الإسبان الذين تركهم فى هايتى منذ عشرة شهور فلم يجد منهم رجلا على قيد الحياة ، إذ أن الأوربيين طافوا بالجزيرة وسطوا على ذهب الأهالى وسبوا نساءهم وأقاموا فردوسا استوائيا عاش فيه كل رجل مع خمس نساء وتنازعوا فيما بينهم وقتل بعضهم بعضا أما الباقون فقد قضى عليهم الهنود الذين انتهكت حرماتهم .

وسارت سفن الأسطول شرقاً بحذاء شاطئ هايتى ، وفى الثانى من يناير عام ١٤٩٤ أنزل أمير البحر رجالا وشحنة لتأسيس مستعمرة جديدة أطلق عليها اسم « إيزابيلا » . وبعد أن أشرف على بناء مدينة وبعد ترميم سفنه سافر ليرتاد كوبا . وعند ما عجز عن الطواف حولها استنتج أنها قارة آسيا ولعلها شبه جزيرة الملايو . وفكر فى الالتفاف حولها والدوران بالكرة الأرضية ولكن سفنه لم تكن مجهزة لهذه الرحلة : فعاد إلى هايتى (٢٩ أكتوبر سنة ١٤٩٤) وهو يتساءل ماذا حدث لمستعمرته الجديدة . وصدم عند ما وجد أنها تصرفت كالمستعمرة السابقة وأن الإسبانيين اغتصبوا

النساء الوطنيات ونهبوا مخازن طعام الأهالى وخطفوا أولاد الوطنيين ليخدموهم كالعبيد وأن الوطنيين قتلوا كثيراً من الإسبان على سبيل الانتقام . وقامت البعثات التبشيرية بمحاولة صغيرة لتنصير الهنود وانضم راهب إلى جماعة الساخطين الذين عادوا إلى إسبانيا ليقدموا للملك والملكة تقريرا لا يشجع عن موارد هايتى الذائعة الصيت . وقد أصبح كولومبس نفسه الآن تاجرا للعبيد إذ أرسل حملات لأسر ١٫٥٠٠ وطنى وأعطى للمستوطنين أربعمائة من هؤلاء وبعث إلى إسبانيا بخمسمائة مات منهم مائتان أثناء الرحلة وبيع الباقون فى إشبيليه ولكنهم ماتوا بعد بضع سنوات بعد أن عجزوا عن تكييف أنفسهم مع المناخ البارد ، ولعلهم لم يحتملوا همجية المدنية وترك كولومبس لأخيه تعليمات بنقل المستعمرة من إيزابلا إلى موقع أحسن فى سانتو دومينجو (ثيوداد تريخليو الآن) وسافر إلى إسبانيا (١٠ مارس سنة ١٤٩٦) ووصل إلى قادس بعد رحلة تعسة استمرت ثلاثة وتسعين يوما . وأهدى للملك والملكة الهنود وسبائك الذهب ولم تكن بالكثير ، إلا أنها خففت من الشكوك التى ثارت لدى البلاط حول الحكمة من صب مزيد من الأموال فى الأطلنطى ولم يشعر أسير البحر بالارتياح وهو فوق الأرض ، فقد كان ملح البحر يجرى فى عروقه فالتمس تزويده بثمانى سفن على الأقل للقيام بمحاولة أخرى بحثا عن الثروة ، ووافق الملك والملكة وفى مايو عام ١٤٩٨ سافر كولمبس مرة أخرى.

وقد اتجهت الرحلة الثالثة نحو الجنوب الغربى إلى خط عرض عشرة ثم سارت غربا فى هذا الخط المستقيم . وفى الحادى والثلاثين من يوليو شاهد البحارة جزيرة كبيرة أطلق عليها القائد التقى اسم « ترينيداد » . وفى الحادى والثلاثين من أغسطس رأى قارة أمريكا الجنوبية وربما كان ذلك قبل أو بعد فسبوتشى . وبعد استكشاف خليج باريا أبحر — نحو الشمال الغربى ووصل إلى سانتودومينجو يوم ٣١ أغسطس فوجد أن المستعمرة الثالثة قد بقيت ولكن كان ربع الخمسمائة من الإسبان الذين تركهم عام ١٤٩٦

يشكون من مرض الزهرى ، وانقسم المستوطنون إلى فريقين متعادين وكانا عندئذ على حافة الحرب . ولتهدئة التذمر أقطع كولمبس كل رجل مساحة كبيرة من الأرض وسمح له باسترقاق الوطنيين والإقامة فيها ، وأصبحت هذه قاعدة تتبع فى المستعمرات الأسبانية ، وأنهكت الصعاب وخيبات الأمل وداء النقرس ومرض فى العينين قوى كولومبس فى ذلك الوقت فانهار تحت وطأة هذه المشكلات وكان ذهنه يتكدر بين الفينة والفينة وأصبح يستثار بسهولة ؛ متذمرا مستبدا ، شحيحا ، جائرا فى عقابه أو هذا على الأقل ما زعمه كثير من الأسبان فقد تميزوا من الغيظ تحت حكم رجل إيطالى . وأدرك أن مشكلات إدارة المستعمرة كانت دخيلة عليه بالنسبة لتدريبه ومزاجه . وأرسل فى أكتوبر عام ١٤٩٩ بعثتين إلى أسبانيا مع التماس لفرديناند وإيزابيلا لتعيين نائب للملك يساعده فى حكم الجزيرة .

وأخذه الملكان بكلمته وعينا فرانشسكو دى بوباديلا ولكنهما ذهبا إلى أبعد مما طلب أمير البحر فخولا نائبهما سلطة كاملة بل سلطة تفوق سلطة كولمبس . ووصل بوباديلا إلى سانتو دومينجو بينما كان كولمبس غائبا وسمع كثيرا من الشكايات من الأسلوب الذى كان يحكم به كريستوفورو وأخواه بارتولومى ودييجو ما تسمى الآن باسم هسبانيولا وعندما عاد كولولمبس ألقى به بوباديلا فى غياهب السجن والأغلال فى ذراعيه والسلاسل فى قدميه وبعد إجراء تحقيق أرسل النائب الإخوة الثلاثة إلى أسبانيا (أول أكتوبر عام ١٥٠٠) وعندما وصل كولومبس إلى قادس كتب خطابا مؤثرا إلى أصدقائه فى البلاط « لقد انقضت سبعة عشر عاما منذ حضرت لأخدم هذين الأميرين بمشروع جزر الهند ، ولقد أضاعا من عمرى ثمانية أعوام فى النقاش وفى النهاية رفضاه كأن الأمر دعابة . ومع ذلك لم أيأس . . . وها أنذا قد وضعت هناك تحت إمرتهم أرضا تزيد عما

لديهم فى أفريقيا وأوروبا وأكثر من ١٧٠٠ر١ جزيرة . . . وفى سبع سنوات قمت أنا بمشيئة الله ، بهذا الغزو ، وفى الوقت الذى كنت أنتظر فيه المكافأة وأتطلع إلى التقاعد قبض على بلا جريرة وأرسلت للوطن مصفدا بالأغلال . . . ووجهت إلى تهمة الحقد على أساس الاتهامات التى وجهها إلى مدنيون ثاروا وأرادوا الاستيلاء على الأرض . . . إنى أرجو من مراحمكم أن تقرأوا جميع أوراقى بحماسة المسيحيين المخلصين الذين وضع فيهم سموهما ثقتهما وأن تفكروا مليا كيف ألوث شرفى وخلقى فى أواخر أيامى دون سبب ، أنا الذى جاء من أقصى البلاد لخدمة هذين الأميرين دون أن ألقى منهما عدالة ولا رحمة » .

وكان فرديناند مشغولا بتقسيم مملكة نابلى مع لويس الثانى عشر ، ومرت ستة أسابيع قبل أن يأمر بإطلاق سراح كولومبس وأخويه ودعوتهم إلى البلاط واستقبلهم الملك والملكة فى قصر الحمراء وواسياهم وأعادا لهم الاعتبار وإن كانوا لم يصلوا إلى سلطاتهم فى العالم الجديد . وكان الملكان ملزمين بشروط التسليم أو الاتفاقية التى وقعاها عام ١٤٩٢ بتخويل كولومبس سلطانا كاملا على الأراضى التى اكتشفها ، ولكنهما شعرا بأنه لم يعد جديرا بممارسة هذه السلطة فعينا دون نيكولاس دى أوفاندو حاكما جديدا على جزر الهند . ومهما يكن من أمر فإنهما سمحا لأسير البحر أن يحصل على كل حقوقه من أملاكه فى سانتو دومينجو وكل ما يستحق له حتى ذلك الوقت من التنقيب عن الذهب ومن التجارة . وعاش كولومبس ما بقى من عمره فى رغد من العيش . ولكنه لم يكن راضيا . وألح على الملك والملكة أن يمداه بأسطول آخر ومع أنهما لم يتبينا بعد ما إذا كان « مشروع جزر الهند » سيعود عليهما بربح صاف فإنهما شعرا بأنهما يدينان له بمحاولة أخرى . وبدأ كولومبس رحلته الرابعة من قادس بأربع سفن على ظهرها مائة وأربعون رجلا منهم أخوه

بارتولومى وابنه فرناندو ، وذلك فى اليوم التاسع عام ١٥٠٢ . وفى التاسع والعشرين من يونيه أحس بزوبعة فى الجو وفى مفاصله ، فرسا فى بقعة آمنة

من شاطئ هايتى قرب سانتو دومينجو ، وكان فى الميناء الرئيسى ثلاثون سفينة على وشك الإبحار إلى إسبانيا . وبعث كولومبس برسالة إلى الحاكم يبلغه فيها بأن إعصاراً سوف يهب وأشار عليه بأن يؤخر سفر السفن قليلاً . ولكن أوفاندو أعرض عن هذا التحذير وأرسل الأسطول وهبت الزوبعة الهوجاء ونجت منها سفن أمير البحر ولم يصبها إلا أقل الضرر ، أما سفن أسطول الحاكم فقد تحطمت جميعاً إلا واحدة وغرق خمسمائة رجل ومنهم بوباديلا وغاصت فى أعماق البحر شحنة من الذهب .

وليس من شك فى أن كولمبس بدأ عندئذ أصعب الشهور الحافلة بالأسى فى حياته المضطربة — فقد استأنف سيره غربا ووصل إلى هندوراس وارتاد شاطئ نيكاراجوا وكوستاريكا مؤملا أن يجد مضيقاً يتيح له أن يطوف بالأرض : وفى الخامس من ديسمبر عام ١٥٠٢ هبت ريح عاصفة مصحوبة بالمطر وصف كولومبس فى يومياته قوتها العاتية : « ظللت تائها لمدة تسعة أيام وضاعت كل بارقة أمل لى فى الحياة . لم تر عيناى قط بحراً كهذا هائجاً عالى الأمواج ، يغطيه الزبد . إن الرياح لم تمنع تقدمنا فحسب بل إنها لم تتح لنا أية فرصة للسير وراء لسان من الأرض يعتصم به من العاصفة ومن ثم اضطررنا إلى مواصلة السير فى هذا المحيط الملعون ونحن نتقلب فيه كالقدر حين يغلى على النار ، ولم تبد السماء قط مخوفة كما بدت فى هذا اليوم فقد ظلت يوماً وليلة ترسل شواظا من نار يلسعنا كألسنة اللهب . وتفجر البرق بشدة حتى أننى كنت فى كل مرة أتساءل عما إذا كانت الرياح قد حطمت صوارى وانتزعت قلوعى . وكانت ومضات البرق تتوالى بعنف وبصورة مروعة حتى اعتقدنا جميعاً أن السفن توشك أن تنفجر .

ولم تتوقف الأمطار عن الهطل طوال ذلك الوقت . وأنا لا أقول إنها كانت تمطر فقد كانت المياه تتدفق حتى خيل إلى أنه طوفان آخر . وكان الرجال منهوكى القوى وتمنوا الموت ليضع حداً لآلامهم المروعة » .

وإلى جانب ما كانت تحدثه الريح والمطر والبرق وسلسلة الصخور القريبة من فزع فقد هب إعصار عاقص ينشر الرذاذ البحر وكان قريبا جداً إلى درجة الخطورة من السفن وبدأ يقذف المـــاء إلى أعلى بحيث يطاول السحب فتناول كولمبس كتابه المقدس وقرأ فيه كيف هدا المسيح العاصفة فى كابيرناوم ثم تعوذ من الإعصار ورسم صليبا فى السماء بسيفه وإذ ذاك يقال لنا إن قمة الماء انهارت وانتهى هياج البحر بعد مرور اثنى عشر يوماً مروعة ، ورسا الأسطول فى ميناء قرب الطرف الشرقى الحالى لقناة بناما ، وهناك احتفل كولومبس ورجاله بعيد الميلاد عام ١٥٠٢ وبرأس السنة الجديدة عام ١٥٠٣ وقلوبهم مثقلة بالحزن دون أن يدور بخلدهم أن المحيط الهادى لا يبعد عنهم إلا أربعين ميلا .

وتوالت المصائب . فبينما كان ثلاثة عشر بحاراً يجدفون فى قارب من قوارب سفينة القيادة نحو النهر للحصول على ماء عذب هاجمهم الهنود ولقى جميع الأسبان مصرعهم ما عدا رجل واحد وضاع القارب . واضطرو إلى التخلى عن سفينتين أتى السوس عليهما ولم تعودا صالحتين للملاحة أما السـفينتان الباقيتان فقد كان بهما كثير من الخروق وكان لا بد من تشغيل المضخات ليل نهار وأخيراً أثبت السوس أنه أقوى من الرجال ولم يكن هناك بد من إرساء السفينتين الباقيتين على شاطئ جامايكا (٢٥ يونيه سنة ١٥٠٣) ؛ وهناك أقام البحارة البائسون سنة وخمسة شهور وكانون يعتمدون فى طعامهم على صداقة الأهالى المتقلبة والذين لم يكن لديهم أنفسهم ما يستغنون عنه إلا النذر القليل . وتطوع ديجو منديز ، الذى كان لرباطة جأشه فى مواجهة كل هذا الضيق الفضل فى عدم تردى كولمبس فى هوة اليأس ، أن يرأس

جماعة من ستة من المسيحيين وعشرة من الهنود ويستقلوا قاربا منحوتاً من من جذع شجرة لقطع ٤٥٥ ميلا — منها ثمانون ميلا لا ترى بالبصر من فوق الأرض — إلى سانتو دومينجو لطلب النجدة . ونفد زادهم من الماء فى تلك المغامرة ومات بضعة هنود . ووصل منديز إلى هدفه ولكن أوفاندو لم يقدم أو يستغنى عن سفينته حتى مايو عام ١٥٠٤ لنجدة أمير البحر . وما أن حل شهر فبراير حتى خفض هنود جامايكا هداياهم من الطعام للملاحين الذين جنحت سفنهم إلى الحد الذى بدأ فيه الأسبان يتضورون جوعاً ، وكان مع كولمبس تقويم رجيومونتانوس الفلكى الذى جاء بحسباناته خسوف للقمر يوم ٢٩ فبراير ، فاستدعى زعماء الوطنين وأنذرهم بأن الله غاضب بسبب سماحهم بتجويع رجاله وأنه سيحجب عنهم ضوء القمر فسخروا منه ولكن عندما بدأ الخسوف سارعوا بإحضار الطعام إلى السفن . وعندئذ طمأنهم كولمبس وقال إنه دعا الله أن يعيد للقمر ضياءه وأنه وعده سبحانه وتعالى أن الهنود سيطعمون المسيحيين جيداً بعد هذا . وعاد القمر للظهور .

ومرت أربعة شهور أخرى قبل أن يصلهم العون وحتى ذلك الوقت كانت السفينة التى أرسلها أوفاندو قد اتسعت خروقها فلم يكن أمامها إلا أن تعود إلى سانتو دومينجو وسافر كولومبس مع أخيه وابنه فى سفينة أشد متانة إلى إسبانيا فوصلوا فى اليوم السابع من نوفمبر بعد رحلة طويلة واجهوا فيها العواصف ، واغتم الملك لأنه لم يعثر على مزيد من الذهب ولم يكتشف مضيقا يوصل إلى المحيط الهندى ، ولم يجد فرديناند وايزابلا التى كانت تحتضر ، وقتا لمقابلة البحار الذى اشتعل رأسه شيبا بعد عودته أخيراً من البحر . وكانت عشوره « من هايتى لا تزال تدفع له . . . وكان يشكو من داء النقرس لا من الفاقة . وعندما وافق فرديناند أخيراً على مقابلة كولمبس لم يستطع أمير البحر وقد بدا أكبر عمراً من سنواته الثمانية والخمسين . أن يتحمل مشاق الرحلة إلى بلاط الملك فى سيجوفيا إلا بصعوبة بالغة وطالب بالألقاب والحقوق

والدخول التى وعد بها عام ١٤٩٢ ، فاعترض الملك وعرض عليه ضيعة كبيرة فى قشتالة فرفض كولمبس . ولاحق البلاط إلى سلمنقة وبلد الوليد ، وهناك مات يوم ٢٠ مايو سنة ١٥٠٦ محطم الجسد كسير الفؤاد ولم يتيسر قط لأحد أن يعيد رسم خريطة الأرض على هذا النحو .

٤ — المنظور الجديد

والآن بعد أن أضاء كولمبس الطريق اندفع مائة ملاح آخر إلى العالم الجديد ، ويبدو أن هذا الاسم قد استخدمه لأول مرة تاجر فلورنسى يطلق اسمه الآن على الأمريكيتين فقد أرسلى آل مديتشى إلى اسبانيا أمريجو فسبوتشى ليقوم على شئون مصرف فلورنسى وفاز عام ١٤٩٥ بعقد ينص على إعداد اثنتى عشرة سفينة لفرديناند وأصيب بحمى الكشف وزعم فى خطابات أرسلها فيما بعد (١٥٠٣ — ١٥٠٤) لأصدقاء فى فلورنسا أنه قام بأربع رحلات إلى ما أسماه بالعالم الجديد وأنه فى إحدى هذه الرحلات فى اليوم السادس عشر من يونيه عام ١٤٩٧ ، وصل إلى قارة أمريكا الجنوبية . ولما كان جون كابوت قد وصل إلى جزيرة كيب بريتون فى خليج سانت لورانس فى اليوم الرابع والعشرين من يونيه عام ١٤٩٧ وشاهد كولمبس فنزويلا عام ١٤٩٨ فإن قصة فسبوتشى تنسب له أنه كان أول أوروبى وصل إلى قارة فى نصف الكرة الغربى منذ عهد لايف اريكسون (سنة ١٠٠٠) ولكن ما اتسمت به روايات فسبوتشى من عدم الدقة وما خالطها من اضطراب ألقى ظلالا من الشك على مزاعمه ومما يجدر ذكره أن كولمبس ، والذى كان فى وسعه عندئذ أن يحكم على مدى وثوق أخبار فسبوتشى عهد إليه عام ١٥٠٥ بخطاب لتسليمه إلى دييجو ابن أمير البحر . وفى سنة ١٥٠٨ نصب فسبوتشى كبيراً لجميع الربابنة فى أسبانيا واحتفظ بهذا المنصب حتى وفاته .

وقد نشرت نسخة لاتينية من إحدى رسائله فى سان دييه (اللورين)

فى أبريل عام ١٥٠٧ . واستشهد مارتن فالدسيمولر ، أستاذ (الكوزموجرافيا) علم الكون بجامعة سان دييه ، بهذا الخطاب فى « مقدمة لعلم الكون » الذى نشره هناك فى تلك السنة وقبل رواية فسبوتشى واعتبرها جديرة بالثقة واقترح أن يطلق اسم أمريجى على ما نسميها الآن أمريكا الجنوبية .

وفى سنة ١٥٣٨ استخدم جير هاردوس ميركانور اسم « أمريكا » فى إحدى خرائطه الشهيرة وأطلقه على كل نصف الكرة الغربى . ومن المتفق عليه أن فسبوتشى قام عام ١٤٩٩ إن لم يكن عام ١٤٩٧ ، مع ألونزو دى أوخيد بارتياد شاطئ فنزويلا وفى سنة ١٥٠٠ عقب اكتشاف كابرال مصادفة للبرازيل ارتاد فيسنت Vicente بنزون ، وكان ربانا للسفينة نينيا فى رحلة كولمبس الأولى ، الشاطئ البرازيلى واكتشف الأمازون . وفى سنة ١٥١٣ شاهد فاسكونونيزدى بالبوا المحيط الهادى واكتشف بونس دى ليون ، فولريدا ، وهو يحلم بالعثور على ينبوع الشباب . وكان للاكتشافات التى بدأها هنرى الملاح وتبعه فيها فاسكودا جاما وبلغت أوجها فى عهد كولمبس وانتهت بماجلان ، أثر فى قيام أعظم ثورة تجارية فى التاريخ قبل اختراع الطائرة . فتحت البحار الغربية والجنوبية للملاحة والتجارة وأنهت عهد البحر الأبيض المتوسط فى الحضارة وبدأت عهد الأطلنطى . وكلما ازداد تدفق الذهب من أمريكا إلى أسبانيا ازداد التدهور الاقتصادى فى ولايات البحر الأبيض المتوسط بل وفى تلك المدن الواقعة فى جنوب ألمـانيا مثل أوجسبرج ولومبرج ، التى كانت ترتبط تجارياً بإيطاليا . ووجدت دول الأطلنطى فى العالم الجديد مخرجا لفائضها من السكان ولطاقاتها الاحتياطية ولمجرميها ووجدت هناك أسواقاً رائجة لبضائعها الأوروبية . وازدهرت الصناعة فى أوروبا الغربية وطالبت بالاختراعات الآلية وبأشكال أحسن من الطاقة مما أدى إلى الثورة الصناعية . واستوردت نباتات جديدة من أمريكا لإثراء الزراعة الأوروبية — البطاطس والطماطم والخرشوف والقرع العسلى

والذرة . وأدى تدفق الذهب والفضة إلى رفع الأسعار وتشجيع أصحاب المصانع وإنهاك قوى العمال وزيادة الدائنين والإقطاعيين وأثارت فى أسبانيا حلم السيطرة على العالم وقضت عليه .

ولم تكن الآثار الأدبية والذهنية لهذه الاكتشافات بأقل من النتائج الاقتصادية والسياسية فقد انتشرت المسيحية فوق رقعة واسعة من نصف الكرة الأرضية وكسبت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية من الأنصار فى العالم الجديد أكثر مما سلبهم منها الإصلاح الدينى فى العالم القديم . وتلقفت أمريكا اللاتينية اللغتين الإسبانية والبرتغالية اللتين أثمرتا أدبا قويا مستقلا . ولم تتمسك أخلاق الأوروبيين بهذه الاكتشافات إذ تدفقت وحشية الأوربيين ، التى لا تخضع لقانون ، إلى أوربا مع البحارة والمستوطنين العائدين وجاءت بالإفراط فى العنف والشذوذ الجنسى . وتأثر الفكر الأوروبى كثيراً بالكشف عن هذه الشعوب والعادات والمعتقدات الدينية الكثيرة وعانت المذاهب الدينية من الاحتكاك المتبادل بل إنه فى الوقت الذى كان البروتستانت والكاثوليك يشتبكون فى حروب مدمرة من أجل مذاهبهم المتخاصمة فإن هذه المذاهب كانت تذوب فى الشكوك التى يثيرها التثقيف وما يستتبع ذلك من تسامح .

يضاف إلى كل هذا أن الاعتزاز بالعمل الفذ ألهم العقل البشرى فى اللحظة التى كان فيها كوبرنيكوس على وشك أن يقلل من الأهمية الكونية للأرض وسكانها إذ شعر الناس أن شجاعة العقل البشرى قد تغلبت على دنيا المادة . وأنكر الاختصار والشعار السائد فى القرون الوسطى لجبل طارق — لاشىء خلفه — وأصبح هذا الشعار الآن — خلفه الكثير — وزالت كل الحدود وأصبح العالم مفتوحا وبدا كل شىء ممكنا . والآن بدأ التاريخ الحديث بموجة طاغية تتسم بالإقدام والتفاؤل .

الفصل الخامس عشر

أرازموس الرائد

١٤٦٩ - ١٥١٧

- تربية عالم بالإنسانيات

ولد أعظم عالم بالإنسانيات عام ١٤٦٦ أو عام ١٤٦٩ فى روتردام أو بالقرب منها وهو الابن الثانى غير الشرعى لجيرارد وهو كاتب فى أدنى الدرجات. وأمه مرجريت ابنة طبيب وأرملة. ويبدو أن الأب رسم قسيسا عقب هذه الكارثة ولا ندرى كيف سمى الصبى بالاسم السخيف ديزيديريوس ارازموس ومعناه الحبيب المرغوب فيه. ولقد علمه مدرسوه الأوائل القراءة والكتابة باللغة الهولندية ولكنه عند ما ذهب ليدرس مع إخوة الحياة المشتركة فى ديفنترغرم لأنه كان يتحدث بلغته الوطنية فقد كانت اللغة اللاتينية هناك «الزاد الرئيسى للتعليم» وكانت التقوى تراعى بحزم كوسيلة من وسائل التربية والتهذيب - ومع ذلك فإن الإخوة كانوا يشجعون على دراسة كلاسيات وثنية مختارة وبدأ أرازموس فى ديفنتر يمسك بزمام اللغة اللاتينية والأدب بصورة مذهلة.

ومات والده حوالى عام ١٤٨٤ وخلف الوالد ضيعة متواضعة لولديه ولكن الأوصياء عليهما بددوا معظمها ووجهوا الشابين اليافعين للانخراط فى سلك الرهبنة لأنها لا تحتاج إلى امتلاك شيء على الإطلاق فاحتجا إذ كانا يرغبان فى الالتحاق بالجامعة، وأخيراً أمكن اغراؤهما - بوعد أرازموس بالحصول على كثير من الكتب كما قيل لنا. أما الابن الأكبر فقد رضى بمصيره وارتفع شأنه فأصبح «سكيراً مدمنا وأن لم يكن فاجراً سافلا». وأخذ ديزيديريوس على نفسه العهود كأى راهب أوغسطينى فى ديراماوس فى

ستين . وحاول أن يحب حياة الدير جهد استطاعته بل إنه كتب مقالا بعنوان : De contemptu mundi « تأملات فى الوجود » ، ليقنع نفسه بأن الدير هو المكان المناسب لصبى له روح متعطشة ومعدة منهوكة ولكن معدته أرهقها الصيام وأصابها الغثيان حينما كانت تُشَم رائحة السمك . ومع ذلك فإن العهد الذى قطعه على نفسه بالخضوع أثبت أنه أشد قساوة من نذره العفة ، ومن يدرى ؟ لعل مكتبة الدير كانت تعوزها الكلاسيات . وأشفق عليه رئيس الدير وأعاره ليعمل كاتب سر لهنرى البرجينى أسقف كمبراى . وقبل أرازموس عندئذ (١٤٩٢) أن يرسم قسا ولكنه أينما اتجـه نازعته نفسه إلى أن يضع قدمه على مكان آخر . كان يحسد الشبان الذين التحقوا بالجامعة بعد إنهاء تعليمهم المحلى . وكانت باريس تفوح بشذى العلم والهوى الذى قد يسمم الحواس المرهفة عبر مسافات بعيدة . وأغرى ديزيديريوس الأسقف على إرساله إلى جامعة باريس بعد أن خدمه بكفاءة بضع سنوات وانطلق وليس معه إلا ما يقوم بأوده . وكان ينصت فى صبر نافذ إلى المحاضرات ولكنه كان يلتهم الكتب . وكان يشهد المسرحيات والحفلات وينقب بين الفينة والفينة عن المفاتن الأنثوية ، ويقول فى إحدى محاوراته أن ألطف طريقة لتعلم الفرنسية هى أن تتلقاها عن بنات الليل ومع ذلك فقد أغرم بالأدب . . أغرم بتلك الكلمات الموسيقية السحرية التى تفتح بابا يلج منـه المرء إلى عالم الخيال والبهجة . وعلم نفسه اليونانية وأصبحت أثينا أفلاطون ويوروبيدس وزينون وأبيقوروس مألوفة لديه مثل روما سيشرون وهوراس وسينيكا فكلا المدينتين كانتا حقيقتين بالنسبة له مثلهما فى ذلك مثل شاطئ السين الأيسر . وكان سينيكا فى نظره مسيحيا صالحا مثل سانت بول ونمطيا أحسن منه (وهى وجهة نظر لعله لم يكن فيها سليم الذوق تماما) ورحل باختياره فى غمرات الماضى واكتشف لورنزوفالا ، فولتير نابولى واستطاب طعم اللاتينية الأنيقة والجرأة المتهوسة اللتين تسم تكفله بهما بكشف زيف قصة « هبة قسطنطين » وقد لاحظ

أخطاء جد خطيرة فى النسخة اللاتينية من الكتاب المقدس وتساءل أليست الأبيقورية أحكم وسيلة للعيش . وقد أفزع أرازموس علماء اللاهوت فيما بعد وخفف عن بعض الكرادلة بسعيه فى التوفيق بين أبيقور والمسيح . وكانت أصداء أصوات دونس سكوتس وأوكهام لا تزال تتردد فى باريس والمذهب الأسمى يعلو نجمه ويهدد العقائد الأساسية مثل التجسيد والثالوث . وقوضت هذه السقطات الفكرية أرثوذكسية القس الشاب ولم يترك له إلا الإعجاب العميق بأخلاقيات المسيح .

وأكب على قراءة الكتب وغالى فى ذلك إلى درجة غير محموده . وقام بإعطاء دروس خصوصية لبعض الفتيان من الطلبة لزيادة موارده وذهب ليعيش مع أحدهم ومع ذلك لم يكن لديه ما يوفر له حياة هانئة . وألح على أسقف كامبراى قائلا : « إن كلا من جلدى وكيسى فى حاجة إلى أن يملأ : الأول باللحم والثانى بالعملات . اعمل وفق ما يمليه عليك كرمك » . واستجاب له الأسقف بلطفه المعهود ودعاه طالب يدعى لورد أف فير Vere إلى قصره فى تورنيهيم فى الفلاندرز وسر ارازموس عند ما وجد فى ليدى آن أف فير نصيرة للعبقرية وتعرفت فيه على هـــذه المزية وعاونته بمنحة سرعان ما استنفدها : وأخذه طالب غنى آخر هو ماونتجوى إلى إنجلترا (١٤٩٩) وهناك فى البيوت الارستقراطية الواسعة فى الريف وجد العالم المكدود دنيا رحبة تحفل باللذة الرفيعة وانقلب ماضيه فى الدير إلى ذكرى يقشعر لها بدنه . وأبلغ صديقا له فى باريس عن تقدمه فى خطاب من خطاباته التى لا تحصى ولا تقلد وهى الأثر الباقى له الآن : « إننا نتقدم . ولو كنت عاقلا لسارعت بالمجىء إلى هنا . . . آه لو عرفت ما ننعم به فى بريطانيا . . . ولأذكر لك إحدى المباهج الكثيرة : هنا حوريات لهن تقاطيع ملائكية فى غاية الرقة والرأفة . . . وعلاوة على ذلك فثمة أسلوب للحياة لا يمكن الثناء عليه تماماً فحيثما تذهب يستقبلونك بالقبلات على يديك وعند ما ترحل

يشيعونك بالقبلات وإذا عدت فإن تحياتك ترد إليك . . . وأينما يتم اجتماع فهناك تحيات وافرة وحيثما تلتفت تجدها تلاحقك . أواه يافاوستوس ! لو ذقت مرة عذوبة هذه الشفاه وشذاها لتمنيت أن تكون سائحا لا لمدة عشر سنوات مثل سولون بل طوال حياتك فى إنجلترا » .

والتقى أرازموس فى بيت ماونتجرى فى جرينوتش بتوماس مور ، وكان حينئذاك لا تتجاوز سنه الثانية بعد العشرين ولكنه مع ذلك كان له من المكانة ما استطاع به أن يقدم العالم إلى من قدر له بعد ذلك أن يكون هنرى الثامن . وسره فى أكسفورد على الأغلب عدم الكلفة فى صحبة الطلبة وفى الكلية كما سرته أحضان ربات البيوت الريفية . وهناك تعلم كيف يحب جون كوليت الذى أذهل عصره باعتناقه المسيحية على الرغم من أنه كان محققا وعلامة فى علم الأديان القديمة وتأثر أرازموس بتقدم علم الإنسانيات فى إنجلترا : « عندما أسمع عزيزى كوليت يخيل إلى أنى أستمع لأفلاطون نفسه : من لا يعجب فى جروسين عندما يرى عالما كاملا للمعرفة مثل هذا ؟ ماذا يمكن أن يكون أذكى وأعمق وأدق من حكم ليناكر ؟ وماذا أبدعت الطبيعة أكثر رقة وحلاوة وسعادة من عبقرية توماس مور ؟ » .

لقد أثر هؤلاء الرجال تأثيراً عميقاً فى إصلاح حال أرازموس فتحول من شاب مغرور طائش ، أسكرته خمر الكلاسيات وفتنة النساء ، إلى عالم جاد مدقق تواق لا إلى المال والشهرة فحسب ولكن إلى تحقيق عمل مفيد دائم . وعندما غادر إنجلترا (يناير عام ١٥٠٠) كان قد استقر عزمه على أن يدرس وينشر النص اليونانى للعهد الجديد لأن الجوهر الخالص لتلك المسيحية الحقة فى نظر المصلحين وعلماء الإنسانيات على السواء ، قد أخفتا وموهت عليه العقائد وتكاثرها على مر القرون .

وأظلمت ذكرياته الجميلة عن هذه الزيارة الأولى لإنجلترا بما حدث فى الساعة الأخيرة : فبينما كان يجتاز الجمارك فى دوفر صادرت السلطات

المبلغ الذى منحه له أصدقاؤه وكان يقدر بنحو عشرين جنيها (٢٫٠٠٠ دولار) لأن القانون الإنجليزى يحرم تصدير الذهب أو الفضة . وزاد الطين بلة أن أحدهم ، وإن لم يكن محاميا كبيراً ، أشار عليه خطأ بأن التحريم لا يسرى إلا بالنسبة للعملة الإنجليزية ، فغيرها أرازموس ولم تجد إنجليزيته المتعثرة ولا لاتينيته المختلة فى الانحراف بصرامة القانون التى لا ترحم واستقل أرازموس سفينة إلى فرنسا وهو خالى الوفاض بالفعل . قال : « لقد عانيت من الغرق قبل أن أذهب إلى البحر » .

٢ ــ المشائى

وبعد إقامة بضع شهور فى باريس نشر أول عمل هام له وهو مجموعة أقوال مأثورة وتضم ٨١٨ مثلا أو شاهداً ، معظمها لمؤلفين من القدامى . وكان إحياء المعرفة . أى الأدب القديم ــ قد وضع تقليداً دارجاً بأن يزين المرء آراءه باقتباس من مؤلف يونانى أو لاتينى ، ونرى هذا التقليد بصورة متطرفة فى مقالات مونتينى وفى كتاب « تشريح السوداء » لبرتون . وتريث هذا التقليد فى القرن الثامن عشر فى عهد الخطابة الجدلية بانجلترا . وأرفق أرازموس كل قول مأثور بتعليق ، يشير عادة إلى الاهتمام السائد ويمليه ذكاء يمتزج بالسخرية والهجاء . وقد علق قائلا : « ورد فى الكتاب المقدس أن القسس يلتهمون خطايا الناس فيجدون أن الخطايا عسيرة الهضم ولا بد من أن يرتشفوا أحسن الأنبذة للخلاص منها » . وكان الكتاب نعمة للكتاب والمتحدثين وبيع منه الكثير لمدة عام استطاع فيه أرازموس أن يعول نفسه دون الاعتماد على أحد . وعلاوة على هذا فإن كبير الأساقفة وارهام استحسن الكتاب على الرغم من لدعاته وأرسل للمؤلف مبلغاً من المال على سبيل المنحة وعرض عليه الإقامة فى انجلترا . ومهما يكن من أمر فإن أرازموس لم يكن على استعداد لترك القارة والإقامة فى جزيرة وفى الأعوام الثمانية التالية

نشر بضع نسخ منقحة من الأقوال المأثورة وزاده إلى ٣٢٦٠ نصا مدونا وظهرت له فى حياته ستون طبعة وصدرت له ترجمات عن اللاتينية الأصلية إلى الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية والهولندية وكلها من أكثر الكتب رواجا فى عصرها .

وعلى الرغم من هذا كله كانت الظروف غير مواتية والطعام لا يكفى واشتد بأرازموس الضيق فكتب (١٢ ديسمبر عام ١٥٠٠) إلى صديقه چيمس بات وكان مربيا لابن ليدى آن أف فير يسأله : « أرجو أن تشير لها إلى ما سوف أحققه لها بتعليمى من جاه يزيد عما يحققه لها القسس الآخرون الذين تحتفظ بهم. إنهم يتلون عظات عادية أما أنا فأكتب ما يعيش إلى الأبد . وهم بلغوهم السخيف لا يسمعون إلا فى كنيسة أو اثنتين أما أعمالى فسوف يقرؤها كل من يعرف اللاتينية واليونانية فى كل بلد من بلاد العالم . وما أكثر رجال الدين غير المتعلمين فى كل مكان أما أمثالى فقلما يجود بهم الزمان . أرجو أن تكرر كل هذا لها ما لم تكن كثير الوساوس فلا تستطيع أن تقول بعض الكذبات من أجل صديق » .

وعند ما فشلت هذه المفاوضة كتب مرة أخرى يقترح أن يقول بات للسيدة أن أرازموس يوشك أن يكف بصره ثم أردف قائلا : « أرسل لى أربع قطع ذهبية أو خمسا من مالك الخاص على أن تستردها من مال الليدى » . ولما لم يقع بات فى هذا الشرك كتب أرازموس مباشرة إلى السيدة وشبهها بأنبل البطلات فى التاريخ وأجمل محظيات سليمان وتنبأ لها بشهرة خالدة . واستسلمت لهذا الزهو الأخير وتلقى أرازموس هدية مادية واستعاد بصره . وكان يغتفر للكاتب طبقا لتقاليد هذا العهد أن يطلب معونة من يرعونه لأن الناشرين لم يكونوا على استعداد وقتذاك لمؤازرة المؤلفين ولو كان لهم قراء عديدون . وكان فى استطاعة أرازموس أن يحصل على مرتبات وأسقفيات بل ومنصب كاردينال ولكنه رفض هذه العروض المرة

تلو المرة لكى يظل « رمحا طليقا » متحرر الفكر وفضل أن يستجدى ويكون حراً ولا يفسد وهو يرسف فى الأغلال ، وانتقل إلى لوفان عام ١٥٠٢ فراراً من الطاعون فعرض عليه أوربان الاوترختى مدير الجامعة منصب أستاذ ورفض أرازموس وعند ما عاد إلى باريس استقر فيها ليكسب عيشه بقلمه — وهى واحدة من أحدث المحاولات الأولى فى هذا المشروع المتهوس. وترجم خطب سيشرون وهيكوبا ليوروبيدس ومحاورات لوشيان ، وليس من شك فى أن هذا الفيلسوف الشاك الظريف أسهم فى تشكيل عقلية أرازموس وأسلوبه . وقد كتب أرازموس عام ١٥٠٤ إلى صديق له : « عجبا ! بأى ظرف وبأى سرعة يعالج لوشيان ضرباته فيحول كل شىء إلى سخرية ولا يترك شيئاً يمر دون أن يسخر منه . وأقسى ضرباته موجهة إلى الفلاسفة . . . نظر إلى دعاواهم غير الطبيعية وإلى الرواقيين بسبب عجرفتهم التى لا تحتمل . . . وهو لايجد حرجا فى السخرية من الآلهة ومن هنا خلع عليه لقب ملحد — وهو شرف رفيع أضفاه عليه الزنادقة أصحاب الوساوس » ..

وفى زيارة ثانية لإنجلترا (١٥٠٥ — ١٥٠٦) انضم إلى كوليت وقاما بالحج إلى ضريح سانت توماس فى بيكيت بكانتربرى وسجل وصفا لهذه الرحلة بأسماء مستعارة وذلك فى إحدى محاوراته ، ولقد روى لنا كيف أساء جراتيان (كوليت) إلى دليلهم الراهب عند ما أبدى رأيه وقال : « إن قدراً ضئيلا من الثروة التى تستخدم فى تزيين الكاتدرائية يمكن توجيهها لتخفيف وطأة الفقر فى كانتربرى » ، وروى أيضاً كيف عرض عليهم الراهب لبناً قال إنه من ثدى العذراء و« قدرا مذهلا من العظام » لا بد من تقبيله باحترام وكيف عصى جراتيان فرفض أن يقبل حذاء قيل إن بيكيت لبسه وكيف عرض الدليل على جراتيان قطعة قماش يزعمون أن القديس استعملها فى تجفيف

جبينه وفى مخط أنفه كما لو كانت منة عظمى وتذكارا مقدساً ، وظل يسوق الحجج والبراهين على هذا فقطب جراتيان جبينه وتمرد . وعاد العالمان بالإنسانيات إلى لندن وهما يأسفان على الإنسانية .

وهناك أسعد الحظ أرازموس إذ كان طبيب هنرى السابع يعتزم إرسال ولدين له إلى إيطاليا فعهد إلى أرازموس بمرافقتهما « كدليل عام ومشرف » وأقام مع الوالدين عاما فى بولونيا وأخذ يلتهم المكتبات ويضيف كل يوم جديدا إلى اشتهاره بحبه للعلم والمعرفة واللسان اللاتينى . وكان إلى ذلك الوقت : يرتدى مسوح راهب أوغسطينى — وهو عبارة عن ثوب أسود ومعطف وقلنسوة وقبعة بيضاء يحملها عادة على ذراعه ولكنه فى عام (١٥٠٦) نبذ هذا الزى واستبدل به ثوب كاهن علمانى أقل وضوحا وادعى أنه حصل على إذن بهذا الاستبدال من البابا يوليوس الثانى ثم أقام فى بولونيا كأنه فاتح عسكرى غير أنه عاد إلى إنجلترا عام ١٥٠٦ لأسباب لا نعرفها وألقى محاضرات فى اليونانية بجامعة كمبردج بيد أننا نجده يعود إلى إيطاليا عام ١٥٠٨ ويعد طبعة موسعة لمجموعته فى الأمثال السائرة لمطبعة الدوس مانوتيوس فى البندقية . وعندما مر بروما (١٥٠٩) فتنته عيشة الكرادلة الرغدة وأخلاقهم السامية وثقافتهم الرفيعة وسرمن — كما أن لوثر كان قد فجعته بروما فى السنة الماضية — الغزوات التى قامت بها الموضوعات والوسائل الوثنية فى عاصمة العالم المسيحى . ومما استاء له أرازموس كثيرا سياسة يوليوس الثانى العسكرية وحدته ومطارداته وهو يتفق فى هذا مع لوثر ولكنه يتفق أيضاً مع الكرادلة الذين كانوا يرحبون بحرارة بكثرة تغيب البابا العنيد ورحبوا بحضور ارازموس لاجتماعاتهم وعرضوا عليه منصبا دينيا إذا أقام فى روما .

وما كادت تطيب له الإقامة فى المدينة الخالدة حتى أرسل له ماونتجوى

رسالة يبلغه فيها أن هنرى السابع مات وأن صديق علماء الإنسانيات أصبح هنرى الثامن وأن الأبواب والمناصب الرفيعة جميعا ترحب الآن باراز موس إذا ما عاد إلى إنجلترا . ووصلت مع خطاب ماونتجوى رساله من هنرى الثامن نفسه : « بدأ تعارفنا عند ما كنت صبيا . وقد ازداد الاحترام الذى تعلمت أن أكنه لك بفضل تنويهك المشرف بى فى كتاباتك وبالطريقة التى استخدمت بها مواهبك فى ابراز الحقيقة المسيحية وبما أنك قد حملت هذا العبء وحدك فأسعدنى بمعاونتك وحمايتك إلى أقصى حد يمتد له سلطانى . . . إن سلامتك ثمينة بالنسبة لنا جميعاً . . . ومن ثم فإنى أرى أن تتخلى عن كل فكرة بالإقامة فى مكان آخر وتعال إلى إنجلترا وثق أنك ستلقى ترحيباً حاراً . وعليك أن تذكر شروطك وثق أنها ستكون سخية ومشرفة كما تشاء . واذكر انك قلت يوماً أنك ستتخذ من هذا البلد موطنا لك فى شيخوختك بعد أن تكون قد تعبت من التجوال . وإنى لأتوسل إليك بكل ما هو مقدس وصالح أن تفى بوعدك هذا ولسنا الآن فى مركز يتيح لنا أن نعرف قيمة علمك أو نصيحتك وسوف نعتبر وجودك بيننا أثمن ما نمتلك . . . وإذا كنت فى حاجة إلى الاستمتاع بوقت فراغك فلن نسألك شيئاً سوى أن تجعل من مملكتنا موطنا لك . . . تعال إلى إذن يا عزيزى أرازموس وليكن حضورك بمثابة إجابة لدعوتى » فكيف يمكن أن ترفض دعوة رقيقة كريمة كهذه ؟ إن لسان أرازموس ينعقد حتى لو نصبته روما كردينالا ، فى إنجلترا حيث يحيط بهأ صدقاء من ذوى النفوذ ويحميه ملك قوى يستطيع أن يكتب بحرية ويعيش فى أمان . وودع علماء الإنسانيات فى روما فى شيء من التبرم ، إلى القصور الرحبة والمكتبات . . . إلى الكرادلة الذين ناصروه . . . واتخذ طريقه مرة أخرى فوق جبال الألب إلى باريس فانجلترا .

٣ ـ الهجاء

ومكث هناك خمس سنوات ولم يتلق طوال هذا الوقت من الملك سوى التحية بين الفينة والفينة . ترى هل كان هنرى مشغولا جداً بالعلاقات الخارجية أم بالأهل والأقارب ؟ وظل أرازموس ينتظر وهو يتميز غيظا . وخف مونتجوى لنجدته بمنحة . ونفحه وارهام بدخل أبرشية فى كنت ، وعينه جون فيشر أسقف روشستر ومدير جامعة كامبردج أستاذاً لليونانية بمرتب سنوى قدره ١٣ جنيها (١٫٣٠٠ دولار) ولرفع هذا الدخل بالقدر الذى يسمح بالاحتفاظ بخادم وجواد أهدى أرازموس مطبوعاته إلى أصدقائه الذين استجابوا له فى تردد .

وفى السنة الأولى من هذه فى إنجلترا كتب أرازموس فى بيت توماس مور وفى خلال سبعة أيام أشهر كتاب له « الثناء على الطيش » وكان عنوانه اليونانى Encomium moriae تورية لاسم مور وإن كانت كلمة Moras باليونانية تعنى طائش وكلمة Moria تعنى الطيش واحتفظ أرازموس بعمله مخطوطا لمدة عامين ثم انطلق بعدها بفترة وجيزة إلى باريس لنشره (١٥١١) وطبعت منه فى حياته أربعون طبعة وترجم إلى اثنتى عشرة لغة والتهمه رابليه وفى عهد متأخر عام ١٦٣٢ وجده ملتون فى يد « كل إنسان » فى كامبردج .

ولم يستخدم أرازموس كلمة Moria بمعنى طيش وسخف وجهل وغباء فحسب بل بمعنى سررة فكرية وغريزة وعاطفة وبساطة أمية مقابل حكمة وعقل وحساب وفكر . ويقول لنا إن الجنس البشرى بأسره يدين بوجوده للطيش إذ أى شىء أسخف من مطاردة الذكر المتعددة الأشكال للأنثى وإكباره المحرم للحمها وعاطفته المشبوبة للتسافد ؟ وأى إنسان يدفع مقابل هذا التناقض

فى الانتفاخ ارتباطا مدى الحياة بالزواج من واحدة ؟ وأى امرأة فى كامل قواها العقلية تدفع فى مقابل هذا آلام الأمومة وشدائدها ؟ أليس من السخرية أن تكون الإنسانية ثمرة عارضة لهذا الندم المتبادل ؟ لو أن الرجال والنساء توقفوا وتأملوا ملياً لضاع كل شىء .

وهذا يوضح ضرورة الطيش وحماقة الحكمة إذ هل يمكن أن توجد الشجاعة إذا حكم العقل ؟ وهل يمكن أن تتحقق السعادة ؟ إن سفر الجامعة كان على حق فى الاعتقاد بأن « من زادت معرفته زادت أحزانه وفى الحكمة الكثيرة أسى كثير ؟ » من يكون سعيداً إذا تكشفت له حجب المستقبل ؟ إنه لمن حسن الحظ أن العلم والفلسفة عاجزان وأن الناس يجهلونهما وأنهما لا يحدثان ضرراً عظيما لجهل الجنس الذى لا غنى عنه . وإن الفلكيين « يقدمون لك أبعاد الشمس والقمر والنجوم مقدرة بسمك الشعرة وذلك بسهولة كما يفعلون بأبعاد إبريق أو جرة ولكن الطبيعة تهزأ بظنونهم الواهية . والفلاسفة يزيدون المرتبك ارتباكا والمظلم ظلاما وهم يبددون الوقت والعقل على أمور تافهة منطقية أو ميتافيزيقية تذهب أدراج الرياح ، وخير لنا أن نرسلهم بدلا من جنودنا لمحاربة الأتراك الذين سوف يتراجعون فى ذعر أمام هذا اللغو المربك ! والأطباء ليسوا أفضل منهم فكل فنهم كما يمارس الآن هو فن مركب يمزج الخداع بالتضليل » . أما علماء اللاهوت فإنهم : « يقولون لك إلى الهنة عن كل الإجراءات المتوالية للقدرة على كل شىء فى خلق العالم ويفسرون لك الطريقة الدقيقة للخطيئة الأولى مستمدة من أول آبائنا ويرضونك ويقولون لك كيف أن . . المسيح حملت به العذراء ويوضحون لك فى الرقاقة المقدسة كيف يمكن أن توجد الحوادث دون محمول عليه . . . وكيف يمكن أن يوجد جسم واحد فى أماكن متعددة فى وقت واحد وكيف أن جسد المسيح فى السماء يختلف عن جسده فوق الصليب أو فى القربان المقدس .

وفكر أيضاً فى اللغو الذى يتمثل فى معجزات وأعاجيب — رؤى ومزارات شافية واستدعاء للشيطان و « أمثال الشبح الخيف الوهمى » .

إن هذه السخافات . . . تجارة رابحة وتأتى بدخل يضمن عيشاً رغداً لهؤلاء القسس والرهبان كما أنهم يكسبون من وراء هذا الخداع . . . ماذا عساى أن أقول عن هذا سوى أن أهلل لخداع الغفران والسماحة وأن أحافظ عليهما ؟ وأنى بهذه أحسب الزمن الذى تقتضيه كل روح فى المطهر ، وأخصص لها بقاء أطول أو أقصر حسبما يشترون عدداً أكبر أو أقل من صكوك الغفران التافهة والإعفاءات المعروضة للبيع ؟ أو ماذا يقال من سوء عن آخرين يزعمون أنهم سيحصلون على الثراء والمناصب الرفيعة واللذة والحياة العريضة ويبلغون أرذل العمر بل وينالون بعد وفاتهم مقعداً على يمين المسيح وذلك بقوة هذه التعاويذ السحرية أو بالعبث بحبات سبحاتهم وهم يتمتمون ببعض الدعوات والابتهالات (التى اخترعها بعض مدعى الدين إما للهو أو للاستفادة منها على الأرجح) ؟ :

ويستمر الهجو على حساب النساك والرهبان وأعضاء محكمة التفتيش والكرادلة والبابوات . فالنساك يضجرون الناس بالسؤال ويعتقدون أنه يمكن الاستيلاء على السماء بالمثابرة على ترتيل المزامير المنومة ورجال الاكليروس العلماء يتحرقون شوقاً إلى المال . « إنهم ماهرون فى فن الاقتناء . . . ضريبة العشور والقرابين وأجور العائد . . . الخ » . وكل رجال الاكليروس على اختلاف طوائفهم ورتبهم يتفقون فى الرأى على إعدام الساحرات أما البابوات فليس بينهم وبين الرسل أى تشابه فى « ثرواتهم ومناصبهم وسلطاتهم القضائية ووظائفهم وإعفاءاتهم وتراخيصهم وامتيازاتهم . . . والحفلات وضرائب العشور وصكوك الحرمان من الكنيسية وأوامر التحريم » ورغبتهم العارمة فى المواريث ودبلوماسيتهم العالمية وحروبهم الدموية فكيف يمكن أن يكتب البقاء لكنيسة إذا خلت من الطيش وبساطة الإنسانية الساذجة ؟

وقد أثار كتاب « الثناء على الطيش » غضب علماء اللاهوت وكتب مارتن دريسيوس إلى أرازموس « لا بد أن تعرف أن كتابك » « طيش Maria » قد أثار إزعاجا كبيراً حتى بين من كانوا قبلا من أشد المعجبين بك المخلصين لك . ولكن الهجو فى هذا الدمار المرح كان خفيفا إذا قيس بما اتسمت به سورته التالية . وكان ثالث وآخر عام قضاه فى التدريس بجامعة كامبردج (١٥١٣) هو العام الذى توفى فيه البابا يوليوس الثانى وظهر فى باريس عام ١٥١٤ تعريض ساخر أو حوار يسمى Julius exclusus وقد بذل أرازموس جهداً صادقا ، لا يصل إلى حد الإنكار الصريح ، ليخفى أنه المؤلف له ، ولكن المخطوط تداولته أيدى أصدقائه وأدرجه مور دون تحفظ بين أعمال أرازموس . ولعله يمثل لنا نموذجا متطرفا لأرازموس الهجاء ، أن البابا المحارب بعد وفاته يجد أبواب السماء مغلقة فى وجهه ويمنعه من دخولها القديس بطرس العنيد :

يوليوس : كفى . أنا يوليوس الليجورى . و . أ

بطرس : و . أ ماذا تعنى ؟ وباء أعظم ؟

يوليوس : بل ولى أعظم أيها الخبيث .

بطرس : حتى لو كنت أعظم من ذلك ثلاثة أضعاف ... فلن تدخل هنا إلا إذا كنت أيضا أفضل من ذلك أضعافا مضاعفة .

يوليوس : ياللوقاحة ! إنك لم تزد عن قديس طوال هذه العصور أما أنا فقديس و سيد وقداسة ، بل إنى القداسة ذاتها ، ومعى مستندات تثبت هذا .

بطرس : أليس هناك فرق بين أن تكون مقدسا وبين أن تدعى مقدسا ؟ دعنى أنظر إليك عن قرب . آه ! أرى سمات زندقة شديدة ... مسوح قسيس ولكن تحتها سلاح يقطر دما

وعينان وحشيتان وفم متعجرف وجبين وقح وجسد وصمته كله الآثام : وأنفاس تفوح منها رائحة الخمر وبدن أسقمه التبذل والفسوق . نعم . هدد كما تشاء . . سأقول لك من أنت . . . أنت يوليوس الإمبراطور الذى عاد من الجحيم : : :

يوليوس : اسكت وإلا أصدرت قرارا بحرمانك . . . .

بطرس : تحرمني أنا ؟ بأى حق ؟ أود أن أعرف .

يوليوس : خير الحقوق فأنت لست إلا قسا ولعلك لست كذلك . : فأنت لا تستطيع أن ترسم كاهنا . افتح . آمرك أن تفتح .

بطرس : يجب أن تثبت أولا جدارتك . . .

يوليوس : ماذا تعنى بالجدارة ؟ .

بطرس : هل علمت العقيدة الحقة ؟

يوليوس : لا لم أعلمها أنا . فقد كنت مشغولا بالقتال . وثمة رهبان يعنون بالعقيدة إذا كان لهذا الأمر أية أهمية .

بطرس : هل كسبت أرواحا للمسيح بالقدوة الحسنة ؟

يوليوس : لقد أرسلت كثيراً منها إلى الجحيم .

بطرس : هل قمت بأى معجزات ؟

يوليوس : أف ! إن المعجزات أكل عليها الدهر وشرب..

بطرس : هل كنت مواظبا على صلواتك ؟

يوليوس : إن يوليوس الذى لا يقهر ليس ملزما بالإجابة على صياد مسكين . ومهما يكن من أمر فإنك ستعرف من أنا وماذا أعمل . أنا ليجورى أولا ولست يهوديا مثلك ، وكانت أمى شقيقة البابا العظيم سيكستوس الرابع وقد جعل منى البابا رجلا ثريا بفضل ممتلكات الكنيسة — وأصبحت كاردينالا . وقد

ألمت بى بعض المحن إذ أصبت بالجدرى الفرنسى وأقصيت عن بلدى وطردت منها ومع ذلك كنت أعرف طوال ذلك الوقت أنى سأكون البابا يوما . . . وتحقق هذا بمساعدة الفرنسيين من ناحية ، وبالأموال التى اقترضتها بفائدة من ناحية أخرى ، وبالوعود التى بذلتها من ناحية ثالثة . وما كان فى استطاعة كرويزوس أن يسك كل النقود التى احتاج إليها هذا الأمر . وسوف يقول لك عن هذا المصرفيون . ولكنى نجحت وفعلت من أجل الكنيسة والمسيح أكثر مما فعل أى بابا قبلى .

بطرس : ماذا فعلت ؟

يوليوس : رفعت الدخل . . ابتدعت وظائف جديدة وبعتها . . . وقمت بإعادة سك النقود وربحت مبلغا كبيراً من هذا الطريق . لا شى يمكن أن يتم بغير المال . ثم ألحقت بولونيا بالسلطة البابوية . . . وشددت آذان كل أمراء أوروبا . وخرقت المعاهدات واحتفظت بجيوش عظيمة فى الميدان . وغمرت روما بالقصور وتركت خمسة ملايين فى الخزانة بعد وفاتى . . .

بطرس : ولماذا أخذت بولونيا ؟

يوليوس : لأستولى على دخلها . . .

بطرس : وماذا جرى لفرارا ؟

يوليوس : كان الدوق تعسا منكراً للجميل ، فقد اتهمنى بالاتجار بالمقدسات والرتب والوظائف الدينية ووصفنى بأنى أتجر بالرتب الكهنوتية ... لقد أردت دوقية فرارا لأحد أبنائى الذين تستطيع الكنيسة أن تعتمد على إخلاصهم وكان قد طعن بالخنجر كاردينال بافيا .

بطرس : ماذا ؟ بابوات لهم زوجات وأولاد ؟

يوليوس : زوجات ؟ لا ليس من الزوجات ، ولكن لماذا لا يكون لهم أولاد ؟

بطرس : وهل كانوا على حق فيما نسبوه إليك من جرائم ؟

يوليوس : هذا أمر لا علاقة له بالدعوى . . .

بطرس : أليست ثمة وسيلة لإزاحة بابا شرير ؟

يوليوس : سخف ! من يستطيع أن يزيح أعلى سلطة بين الناس ؟ إن البابا يمكن تقويمه بمجلس عام ولكن أى مجلس عام لا يمكن أن ينعقد إلا بموافقة البابا ومن ثم فإنه لا يمكن عزله مهما كانت الجريمة التى يرتكبها .

بطرس : حتى لو ارتكب جريمة قتل ؟

يوليوس : نعم . . . بل حتى لو قتل أحد والديه .

بطرس : ألا يعزل لو زنى ؟

يوليوس : نعم حتى لو زنى بالمحارم .

بطرس : ألا يعزل لو مارس الاتجار بالرتب الكهنونية ؟

يوليوس : نعم ولو اقترف ستمائة حادثة من حوادث الاتجار بالرتب الكهنوتية .

بطرس : ألا يعزل لو قتل أحدا بالسم ؟

يوليوس : نعم حتى لو انتهك المقدسات .

بطرس : ألا يعزل لو ارتكب كل هذه الجرائم مجتمعة ؟

يوليوس : حتى لو زدت عليها ٦٠٠ جريمة ، فليست ثمة قوة تستطيع أن تعزل البابا .

بطرس : يا له من امتياز عجيب يتمتع به خلفائى — أن يكونوا من أخبث الناس ومع ذلك ينجون من العقاب . ويا لها من كنيسة تعسة تلك التى لا تستطيع زحزحة مثل هذا الوحش عن كاهلها .. إن على الناس أن يثوروا ويرجموا بحجارة الرصف رأس مثل هذا الشقى . . . لو أن الشيطان فكر فى أن يصطفى قسا لما وجد خيرا منك . أى دليل قدمته على أنك رسول ؟

يوليوس : أليست زيادة موارد كنيسة المسيح عملا من أعمال الرسل ؟

بطرس : ولكن كيف زدت موارد الكنيسة ؟

يوليوس : ملأت روما بالقصور . . . وبفرق من الخدم والجنود وآلاف الوظائف . . .

بطرس : إن الكنيسة لم تعرف شيئاً من هذا عندما أنشأها المسيح . . .

يوليوس : إنك تفكر فى القصة القديمة عندما أشرفت على الموت جوعا وأنت بابا وحولك حفنة من الأساقفة الفقراء المطاردين : لقد عفّى الزمن على كل هذا ... انظر الآن إلى كنائسنا الفخمة ... أساقفة مثل الملوك . . . وكرادلة تحيط بهم مظاهر العظمة . . خيول وبغال أعنتها من الذهب والجواهر وحدواتها من الذهب والفضة . أنا الحبر الأعظم فوق الجميع يحملنى الجنود على كرسى ذهبى فوق أعناقهم وألوح بيدى فى جلال للجماهير التى تعبدنى ، وأنصت إلى دوى المدافع وأنغام البوق ودقات الطبول وأرقب العربات الحربية والجماهير الصاخبة والمشاعل التى تضىء الطريق والميدان وأشهد ملوك الأرض وهم يحاولون تقبيل قدمى قداستى . . . أنظر إلى كل هذا وقل لى أليس

هذا رائعا ؟ لعلك تدرك أى أسقف تعس فقير كنت بالقياس الى . . .

بطرس : يا لك من شقى وقح ! لقد توسلت بالغش والربا والمكر للوصول إلى منصب البابوية . . . لقد حملت روما الكافرة على أن تؤمن بالمسيح أما أنت فقد عدت بها إلى الكفر . إن بولص لم يتحدث عن المدن التى اجتاحها ولا الفرق التى قتلها ... بل تحدث عن حطام السفن والقيود والاهانات والسياط . . . كانت هذه انتصاراته الرسولية وهذه كانت أمجاد قائد مسيحى . وعند ما كان يفخر بعمل فإنما يفخر بالأرواح التى استنقذها من براثن الشيطان وليس بما اكتنز من أكوام الدوكات . . .

يوليوس : هذه كلها أخبار أسمعها لأول مرة .

بطرس : ربما فقد كنت مشغولا بمعاهداتك وبروتوكولاتك ، وجيوشك وانتصاراتك ، فلم يتسع لك الوقت لقراءة الأناجيل . . . أنت تدعى أنك مسيحى مع أنك لست أفضل من أى تركى فأنت تفكر كالتركى ولا تقل عنه فجورا[1] . وإذا كان ثمة فرق بينكما فهو انك أسوأ .

يوليوس : إذن فلن تفتح الأبواب ؟

بطرس : سأفتحها لأى شخص آخر سواك أما أنت فلا . . .

يوليوس : إذا لم تخضع فسوف أستولى عنوة على مكانك . . . إنهم يقومون الآن بتدمير شامل تحتنا وقريبا سيكون لدى ٦٠٠٠٠ شبح يقفون ورائى .

---

(١) لعل المؤلف يقصد الترك العثمانيين . (المترجم)

بطرس : أيها الرجل الشقى ! أيتها الكنيسة التعسة . . . لا عجب أن يقل عدد المتقدمين للدخول هنا ما دامت الكنيسة يحكمها أمثالك . ومع ذلك فلا بد أن فى العالم خيراً أيضا ما دام هذا الحضيض من الظلم يمكن أن يقبل من رجل لا لشىء إلا لأنه يحمل اسم البابا .

وهذا بالطبع رأى خاطئ من جانب واحد فما كان فى وسع محتال داعر مثل هذا أن يحرر إيطاليا من غزاتها وأن يستبدل بالقديس بطرس ، مايكل انجلو ورافائيل الجديدين ، المكتشفين ، الموجهين والمطورين ، وأن يوجد الحضارتين المسيحية والكلاسيكية فى مكان الفاتيكان وأن يقدم لمهارة رافائيل ذلك المظهر للفكر العميق والعناية الفائقة اللتين صورا فى صورة يوليوس الشخصية التى لا مثيل لها والموجودة فى قاعة أوفيزى . وفى الوقت الذى يدعو فيه أرزاموس المسكين كل القس إلى تقشف الرسل نراه هو نفسه يلح فى طلب المال من أصدقائه ، ويكشف عن طبع العهد الثائر ، أن قسيسا يجد لزاما عليه أن يكتب اتهاما قاسيا لبابا . وفى سنة ١٥١٨ — السنة الثانية من عهد لوثر — كتب بيتر جليس إلى أرازموس من أنتورب : « ان كتاب Julius exclusus » « يوليوس المنفى » يباع هنا فى كل مكان . وكل إنسان يشتريه وكل واحد يتحدث عنه ، فلا عجب إذا ما لام المصلحون فيما بعد أرازموس لأنه قرع جرس الإنذار للتمرد ثم هرب بنفسه .

وفى سنة ١٥١٤ ظهر مؤلف آخر بقلم أرازموس أزعج العالم المستنير فى أوروبا الغربية وكان قد ألف ابتداء من عام ١٤٩٧ محاورات شكلية احترافا لتعليم الأسلوب اللاتينى والحديث ، وإن كان قد ناقش عرضاً ضروباً شتى من الموضوعات الشائقة الكفيلة بإيقاظ الطلبة من نعاسهم

اليومي . ونشر صديقه بياتوس ريتانوس ، بإذن منه ، سلسلة من هذه المحاورات باسم « العبارات الخاصة بالحديث العادي » Familiarium colloquiorum formulae وهي أشكال من الأحاديث المألوفة بقلم أرازموس الروترداحي ؛ لا تفيد في صقل كلام صبي فحسب ، بل تكون أيضاً شخصيته . وأضيفت إلى الطبعات التالية محاورات أخرى فأصبحت أغنى مؤلف لأرازموس من حيث المادة « هي مزيج غريب — مناقشات حادة حول الزواج والأخلاق وحض على التقوى وعرض للأمور المنافية العقل والمساوئ في سلوك الإنسان ومعتقده وتتخللها فكاهات لاذعة أو خطرة وكلها بلغة لاتينية اصطلاحية شائقة ولا بد أنها أصعب في الكتابة من لغة الحديث الرسميـــة بين المتعلمين » . وكتب مترجم انجليزي عام ١٧٢٤ يقول : « ليس ثمة أصلح للقراءة من كتاب « يكاد يهدم تماماً كل الآراء والأوهام البابوية بأسلوب شائق تعليمي » ، وفي هذا مبالغة ولكن ليس من شك في أن أرازموس استخدم بطريقته المرحة « كتابه في الأسلوب اللاتيني » في مهاجمة نقائص رجال الأكليروس . وأدان الاتجار بمخلفات القديسين ، وإساءة استخدام أوامر الحرمان من الكنيسة ، واقتناء البطاركة والقسس للأموال ، والمعجزات الزائفة التي يخدع بها البسطاء ، وعبادة القديسين لأغراض دنيوية ، والمبالغة في الصيام والتناقضات المروعة بين مسيحية الكنيسة ومسيحية المسيح وحمل بَغْيّاً على أن تثني على الرهبان باعتبارهم من عملائها المخلصين . وحذر سيدة شابة تريد الاحتفاظ ببكارتها فطلب منها أن تتحاشى « هؤلاء الرهبان المفتولي العضلات ذوي الكروش البارزة . . . فالعفة عرضة للخطر في الدير أكثر من تعرضها له خارجه » ورثى لتعظيم شأن البكارة وهلل للنكاح باعتباره أسمى من العزوبة ، وأسف لأن الناس تحرص على معاشرة الجياد الصافنات للأفراس الأصيلة بينما يزفون في الزيجات القائمة على المصلحة المالية عذارى سليمات إلى رجال هدهم المرض ، واقترح منع الزواج من المرضى بالزهري أو من

الأشخاص المصابين بعجز شديد أو بمرض خطير . . . وتمتزج بهذه التأملات الرصينة فقرات من الفكاهة الفظة . وكان الأولاد يطالبون بتشميت الناس عندما يعطسون ولا يطالبون بهذا عندما يضرطون . وكانت أية امرأة حامل يدعو لها الناس بدعاء وحيد : « ألا فلتهب السماء هذا الحمل الذى فى بطنك... سهولة الخروج كما وهبته سهولة الدخول » . وكان الختان أمرا ممتدحا « لأنه يخفف من حكة الجماع » . وثار حوار طويل بين « الشاب والبغى » انتهى بالتأكيد بإصلاح السيدة .

وشكا النقاد من أن هذه المحاورات كانت طريقة تنطوى على التهور لتعليم الأسلوب اللاتينى ، وزعم أحدهم أن كل الشباب فى فرايبورج أفسدتهم هذه المحاورات واعتبر شارل الخامس استخدامها فى المدرسة جريمة يعاقب عليها بالإعدام . واتفق هنا لوثر فى الرأى مع الامبراطور : « سوف أحرم على أولادى قراءة محاورات أرازموس حتى لو كنت على فراش الموت » . وأكد نجاح الكتاب ما أثاره من حنق وبيع منه ٢٤٫٠٠٠ نسخة بعد نشره وحتى عام ١٥٥٠ لم يفقه فى التوزيع إلا الكتاب المقدس . وفى الوقت نفسه كاد أرازموس أن يجعل الكتاب المقدس ملكا خاصا له .

٤ — الغسلامة

وغادر إنجلترا فى يوليو سنة ١٥١٤ وشق طريقه خلال الضباب والعادات إلى كاليه وهناك تلقى من رئيس ديره الذى نسيه فى ستين ، خطابا يشير فيه إلى أن أجازته انتهت منذ مدة طويلة وأنه يحسن به أن يعود ليقضى ما بقى من عمره تائبا مستغفرا فانزعج لأن رئيس الدير يستطيع ، طبقاً للقانون الكنسى ، أن يدعو السلطة الزمنية إلى الزج به مرة أخرى فى السجن . والتمس ارازموس لنفسه عذراً ولم يتعجل رئيس الدير الأمر ولكن ، لكى

يتحاشى العلامة تكرار الحيرة ، طلب من أصدقائه الإنجليز ذوى النفوذ أن يكفلوا له من ليو العاشر إعفاءه من التزاماته كراهب .

وبينما كانت تجرى هذه المفاوضات اتخذ ارازموس طريقه أعلا الراين إلى بازيل وعرض على الناشر فروبن مخطوط أهم مؤلف له ، وهو مراجعة نقدية للنص اليونانى للعهد الجديد مرفقا بترجمة لاتينية وتفسير .

كان عملا أملاه الحب والاعتزاز بالنفس يتعرض مؤلفه وناشره للخطر على السواء : فقد استغرق الإعداد سنوات وسوف يكون الطبع والنشر من الأعمال الشاقة الكثيرة النفقات . والزعم بتفوق الترجمة ، على نسخة جيروم اللاتينية ، التى ظلت مقدسة مدة طويلة باعتبارها نسخة لاتينية للكتاب المقدس ، قد تدينه الكنيسة ، ومن المحتمل ألا تغطى المبيعات النفقات . وخفف ارازموس المخاطرة بإهداء العمل إلى ليو العاشر . وأخيراً نشر فروين فى فبراير سنة ١٥١٦ « الأداة الجديدة الكاملة التى حققها ونقحها بمنتهى الدقة ارازموس الروتردامى Instrumentum omme, diligenenter ab Erasmo Rat, recognitum et emendatum. وصدرت بعدها طبعة تغيرت فيها كلمة الأداة Instrumentum بالوصية to Testamentum وقدم ارازموس فى أعمدة متقابلة النص اليونانى كما راجعه بنفسه مع ترجمته اللاتينية ويبدو أن معرفته باللغة اليونانية كانت غير كاملة ومن ثم فهو يشترك مع جامعى الحروف فى المسئولية عن أخطاء كثيرة . ومن وجهة النظر العلمية كانت الطبعة الأولى من العهد الجديد باليونانية المعدة للنشر بعد الطبع أقل من مثيلتها التى أتمها وطبعها جماعة من العلماء لحساب الكاردينال اكسيمينيس عام ١٥١٤ وإن كانت لم تقدم للجمهور إلا عام ١٥٢٢ . وقد دل هذان العملان على تطبيق التعليم الإنسانى لأدب — المسيحية الأولى وعلى بداية هذا النقد الإنجيلى الذى استعاد الكتاب المقدس فى القرن التاسع عشر إلى مجال التأليف الإنسانى وما يتعرض له من زلل .

ونشرت مذكرات ارازموس فى مجلد منفصل وقد كتبت بلغة لاتينية اصطلاحية واضحة مفهومة لكل خريجى الكليات فى هذا العهد وكانت لها قاعدة عريضة من القراء وعلى الرغم من أنها كانت متفقة مع الإجماع فإنها سبقت كثيرا من التفسيرات التى ابتدعت فى البحث التالى . وقد حذف فى طبعته الأولى Comma Johanneum « الوصل اليوحنى » (إصحاح يوحنا ٥ : ٧) الذى أكد الثالوث ولكن الذى تلفظه اليوم النسخة المنقحة الصحيحة باعتباره مما دس فى القرن الرابع .

ونشرت قصة المرأة التى اتهمت بالزنى وإن كان قد أشار إلى أن من المحتمل أن تكون كاذبة (إصحاح يوحنا ٧ : ٥٣ و ٨ : ١١) كما نشر الاثنتى عشرة آية الأخيرة من إنجيل مرقس وأشار فى أكثر من موضع إلى الفرق بين المسيحية الأولى والحالية . وعلق على إصحاح متى ٢٣ : ٢٢٧ : « ترى ماذا يقول جيروم لو رأى لبن العذراء يعرض للبيع بالمال ، ويضفى عليه من التكريم ما يضفى على جسد المسيح المقدس ، والزيوت الإعجازية وأجزاء الصليب الحقيقى التى تكفى إذا جمعت لشحن سفينة كبيرة ؟ هنا قلنسوة سانت فرانسيس وهناك تنورة سيدتنا العذراء أو مشط سانت آن . . . لا تقدم كأشياء بريئة معاونة للدين ولكن كجوهر للدين نفسه وكلها تعبث ببساطة الناس من خلال شح القسس وهرطقة الرهبان »

ولوحظ أن إصحاح م. ١٩ : ١٢ ينص على « لقد خصى بعضهم نفسه من أجل مملكة السماء » وقيل هذا للنصح بالعزوبة فى الدير وكتب آرازموس « اننا ندرج بين هذه الطائفة هؤلاء الذين دفعوا إلى حياة العزوبة بالغش أو بالإرهاب حيث يسمح لهم بالزنى ويحظر عليهم الزواج وهكذا يعدون قسسا مسيحيين إذا احتفظوا علنا بخليلة ويحرقون إذا اتخذوا زوجة . وفى رأيى أن الآباء الذين يعتزمون نذر أولادهم للكهنوت الذى يقتضى العزوبة

يكونون أرق قلباً لو خصوهم فى طفولتهم بدلا من تعرضهم كلية لهذ الإغراء والخضوع للشهوة » .

وفى رسالة تيموثاوس ٣ : ٢ : هناك الآن أعداد ضخمة وحشود هائلة من القسس علمانيين ونظاميين . ومن الشائع أن قلة منهم تتمسك بالعفة وأن الجانب الأكبر منهم يسقطون فى حمأة الشهوة والزنى بالمحارم والفجور . وليس من شك فى أنه من الأفضل أن يسمح لهؤلاء الذين لا يستطيعون التمسك بالعفة بزوجات شرعيات وبهذا ينجون من هذا الدنس البذىء التعس .

وأخيراً عزف ارازموس اللحن الأساسى للمصلحين فى تعليق عام على إصحاح متى ١١ : ٣٠ — ألا وهو العودة من الكنيسة إلى المسيح : « حقا إن قيد المسيح يكون لطيفاً وحمله خفيفا إذا لم تضف الشرائع الإنسانية التافهة شيئاً لما عرضه هو نفسه . إنه لم يأمرنا إلا بأن يحب بعضنا بعضا وليس ثمة ما يصعب على المودة أن تلطف من حدته وتخفف من مرارته . فكل شىء من السهل تحمله طبقا للطبيعة ، ولا شىء يتفق مع طبيعة الإنسان أحسن من فلسفة المسيح التى لا هدف لها إلا إعادة البراءة والتكامل للطبيعة الهاوية . . . وقد أضافت الكنيسة لها أشياء كثيرة يمكن الاستغناء عن بعضها دون الإضرار بالإيمان . . . مثل كل تلك العقائد الفلسفية عن طبيعة الإنسان وتمييز الأشخاص . وما أكثر القواعـــد والأوهام التى تعرفها عن الثياب . . . وما أكثر أيام الصيام التى استنت . . . وماذا نقول عن العهود . . وعن سلطة البابا وإساءة استخدام صُكوك الغفران والتحلل ؟ .. هل يرضى الناس أن يدعوا المسيح يحكم بمقتضى شرائع الإنجيل وألا يبحثوا بعد ذلك عن دعم طغيانهم الجامح بقوانين من صنع البشر ؟ » .

ولعل التفسيرات هى التى أتاحت للكتاب نجاحاً لا بد أنه أذهل المؤلف والناشر على السواء . وقد وزعت الطبعة الأولى فى ثلاث سنوات ثم صدرت

للكتاب طبعات جديدة ومنقحة بلغت تسعة وستين قبل وفاة ارازموس . ووجه للعمل نقد عنيف وأشير إلى ما تضمنه من أخطاء كثيرة . ولقد دمغ الدكتور جوهان ايك ، الأستاذ بجامعة انجولشتادت وأول خصيم للوثر ، بالعار بيان ارازموس المتضمن أن اللغة اليونانية التى كتب بها العهد الجديد أقل شأنا من اللغة اليونانية التى كان يتكلم بها ديموستين . ومهما يكن من أمر فإن ليو العاشر وافق على العمل . وطلب البابا أدريان السادس من ارازموس أن يعمل للعهد القديم ما قام به نحو العهد الجديد ولكن مجلس ترنت أدان ترجمة ارازموس وأعلن أن النسخة اللاتينية من الكتاب المقدس لجيروم هى النسخة اللاتينية الأصلية من الكتاب المقدس . وسرعان ما عد العهد الجديد لارازموس عملا متخلفا من الناحية الدراسية العلمية وإن كان أثره عظيما باعتباره حدثا فى تاريخ الفكر ، فقد يسر ورحب بالترجمات الوطنية التى ظهرت فى أعقابه . وتقول فقرة متحمسة فى المقدمة : « بودى لو قرأت أضعف امرأة الأناجيل ورسائل القديس بولص . . بودى لو ترجمت هذه الكلمات إلى جميع اللغات لا ليقرأها الاسكتلنديون والايرلنديون فحسب بل ليقرأها أيضاً الأتراك والمشارقة .

وإنى لأود أن ينشدها الحارث لنفسه وهو يسير وراء المحراث ويترنم بها النساج على أنغام الماكوك ويهون بها المسافر من مشقة رحلته . . . . قد نأسف على دراسات أخرى أخذناها على عاتقنا ولكن ما أسعد المرء الذى يفاجئه الموت وهو مشغول بها .

إن هذه الكلمات المقدسة تعطيك نفس صورة المسيح وهو يتكلم ويبرئ المرضى ، وهو يموت ثم يرفع مرة أخرى ، وتجعله حاضراً بحيث لو مثل أمام عينيك لما رأيته حقا أوضح من هذا » .

واغتبط ارازموس لكفاية مطبعة فروبن والعاملين بها فأصدر (فى نوفمبر سنة ١٥١٦) طبعة نقد فيها ترجمة جيروم وأعقبها بنصوص مماثلة

منقحة وكلاسية لآباء الكنيسة وصحح ٤٫٠٠٠ خطأ فى النص الذى تلقاه من سينيكا وكانت هذه خدمات جوهرية للدارسين .

وروى ثانية قصة العهد الجديد بتفسيرات (١٥١٧) وتطلبت هذه المهام الإقامة أكثر من مرة فى بازيل وان حدد ارتباط جديد إقامته قرب البلاط الملكى فى بروكسل . وكان شارل آنذاك ملكا على قشتالة وحاكما للأراضى المنخفضة ولم يكن عندئذ قد أصبح الإمبراطور شارل الخامس ، وكان لا يتجاوز الخامسة عشرة من عمره ، ومع ذلك فإن عقله المرهف كان يهيم حول اهتمامات مختلفة ، واقتنع فعلا بأن بلاطه يمكن أن يزداد تألقاً إذا كان بين مستشاريه العالمين ببواطن الأمور الكاتب البارز فى عصره . وأصدر أمراً بهذا وقبل ارازموس — لدى عودته من بازيل (١٥١٦) — المنصب الفخرى بمرتب متواضع . وعرض عليه منصب دينى ل كورتران مع وعد بأسقفية فرفضه وكتب لأحد أصدقائه يقول : « هاك حلم يسليك » . وتلقى وأعرض عن دعوات بالتدريس فى جامعات ليبزج وأنجولشتادت .

وحاول فرانسس الأول أن يفرق بينه وبين شارل بطلب ينطوى على التملق وهو أن ينضم إلى بلاط فرنسا فرفض أرازموس العرض بلطف ورقة .

وفى الوقت نفسه كان ليو العاشر قد أرسل إلى لندن التحللات المطلوبة . وفى مارس من عام ١٥١٧ سافر أرازموس إلى لندن وتسلم رسائل البابا التى تحله من التزاماته نحو الدير ومن وصمة اللقاطة . وأضاف ليو إلى الوثائق الرسمية مذكرة شخصية : « ابنى الحبيب : تمنياتنا لك بالصحة مع بركاتنا الرسولية . ان ما من الله به عليك من حياة طيبة وخلق قويم ، ولوذعيتك النادرة وأفضالك الرفيعة لا تشهد عليها آثار دراساتك التى اشتهرت فى كل مكان فحسب بل يشهد عليها أيضا اجماع آراء معظم المتعلمين . وقد أثنت عليك رسائل أميرين ذائعى الصيت هما ملك انجلترا ، وملك فرنسا الكاثوليكى وهذه هيأت لنا سبباً لكى نخصك بمنة فريدة وفضل خاص .

ومن ثم أجبنا التماسك ونحن راضون ومستعدون لكى نعلن محبتنا الشديدة لك عندما تهيئ الفرصة إما بنفسك أو عندما تسنح بطريق الصدفة . ونظن بحق أن جهدك المقدس الذى يبذل باستمرار للصالح العام سوف يلقى تشجيعاً وقدراً عظيماً من الاهتمام بمكافآت مناسبة » .

ولعلها كانت رشوة حكيمة لسلوك حسن ، ولعلها كانت لفتة صادقة من بلاط متسامح إنسانى ، وفى أية حالة فإن ارازموس لم ينس قط هده المجاملة البابوية وسوف يجد دائماً من الصعب أن يتحلل من كنيسة تحملت فى صبر لذع نقده .

٥ — الفيلسـوف

وعند عودته إلى بروكسل وجد نفسه فريسة الإغراء بالتمسك بالحرص نظراً لما استقبل به من ترحاب ودى فى البلاط الملكى . وأخذ منصبه كمستشار خاص بجد ، ونسى أن المؤلفين اللامعين قلما تتوفر فيهم صفة الحنكة السياسية . وألف فى عجلة عام ١٥١٦ الحافل بالأعمال كتابه : « تربية أمير مسيحى » الذى يفيض بالتفاهات التى كانت سائدة قبل ظهور كتاب ماكيافلى عن السلوك الذى يجب أن يتبعه ملك . وكتب فى إهدائه لشارل بصراحة تتسم بالجرأة : « إنك تدين للعناية الإلهية فى الفوز بمملكتك دون الإضرار بأحد ولسوف تظهر حكمتك على الوجه الأكمل إذا استطعت أن تحافظ فيها على السلام والهدوء » . وكان ارازموس ، مثل معظم الفلاسفة : يعد الملكية أهون الأشكال الحكومية شراً ، وكان يخشى الشعب ويعده « وحشاً متقلباً متعدد الرؤوس » . وكان يستنكر مناقشة الشعب للقوانين والسياسة ويرى أن فوضى الثورة أسوأ من أى استبداد للملوك ، بيد أنه أشار على أميره المسيحى أن يتقى شر تركيز الثروة ، فالضرائب لا تفرض إلا على الكماليات ، ويجب تقليل الأديرة وزيادة المدارس ، وعلاوة على كل هذا يجب ألا ينشب قتال

بين الحكومات المسيحية — ولا حتى ضد الأتراك . « خير لنا أن نتغلب على الأتراك بالتقوى فى حياتنا لا بالأسلحة . وهكذا يتم الدفاع عن الإمبراطورية المسيحية بنفس الوسائل التى أسست بها أصلا » . « ماذا تولد الحرب إلا الحرب ؟ — ولكن الدماثة تدعو إلى الدماثة والعدالة تدعو إلى العدالة » .

ولما كان شارل وفرانسس قد ثارت بينهما العداوة فإن إرازموس وجه الدعوة تلو الدعوة للسلام وامتدح الملك الفرنسى فى حالة ... ة من المصالحة وتساءل كيف يمكن أن يفكر أحد فى شهر الحرب على فرنسا « أطهر جزء فى العالم المسيحى وأعظمه ازدهاراً » . ووصل إلى ذروة الفصاحة المتحمسة فى كتابه (الشكوى من السلام ١٥١٧) :

« أمر فى صمت على مآسى الحروب القديمة ولن أركز الحديث إلا على الحروب التى نشبت فى خلال هذه السنوات الأخيرة . أين الأرض أو البحر الذى لم يحارب فيه الناس بطريقة من أقسى ما يمكن ؟ وأين النهر الذى لم تصطبغ مياهه بدم الإنسان . . . بالدم المسيحى ؟ يا للعار العظيم ! إنهم يتصرفون بقسوة فى المعركة تزيد على قسوة غير المسيحيين ، وبوحشية تفوق وحشية حيوانات الغاب . . وكل (هذه الحروب) نشبت بسبب نزوات الأمراء على حساب الإضرار بالناس الذين لا ناقة لهم ولا جمل فى هذه المعارك . . . وليس بين الأساقفة والكرادلة والبابوات ، وهم كهنة المسيح ، من يخجل من بدء الحرب التى لعنها المسيح . ما هو الشىء المشترك بين الخوذة وتاج الأسقف ؟ ويا أيها الأساقفة ، يامن يحملون لواء الرسل ، كيف تجرؤون على أن تعلموا الناس أموراً كثيرة عن الحرب فى نفس الوقت الذى تعلمونهم فيه تعاليم الرسل ؟ إن السلام ولو كان جائراً أفضل من الحروب ولو كانت تمليها العدالة » .

قد يفيد الأمراء والقواد من الحرب ولكن الجماهير تتحمل المآسى والنفقات . وقد يكون من الضرورى أحياناً شن حرب دفاعاً عن النفس

ولكن حتى فى هذه الحالات قد تكون رشوة العدو أشد حكمة من شرور الحرب . فليرفع الملوك منازعاتهم إلى البابا . وقد يكون هذا إجراء غير علمى فى عهد يوليوس الثانى إذ كان هو نفسه رجلا محارباً ، أما ليو العاشر وهو « حبر متعلم تقى أمين » فإنه سيحكم بالعدل ويرأس فعلا محكمة دولية : ووصم ارازموس القومية بأنها لعنة للبشرية وتحدى الساسة أن يتدعوا حكومة عالمية . وقال : « إنى أتمنى أن أكون مواطناً عالمياً » واغتفر لبودى حبه لفرنسا ولكنه قال : « فى رأيى أنه أقرب للحكمة أن تكون علاقاتنا مع الأشياء والناس أساساً مثل اعتبار العالم البلد المشترك بالنسبة لنا جميعاً » .

كان ارازموس أضعف الناس حماساً للقومية فى عهد الإصلاح الذى رفع من شأن القومية . وكتب يقول : « إن أسمى شىء هو أن يستحق المرء أن ينسب إلى الجنس البشرى » .

ويجب ألا نتوقع من إرازموس أن يقدم لنا أى مفهوم واقعى للطبيعة البشرية أو عن أسباب الحروب أو عن سلوك الحكومات فهو لم يواجه قط المشكلة التى كان يعالجها فى مكيافيلى فى تلك السنوات نفسها . وهل كان فى وسع حكومة أن تبقى إذا مارست الأخلاق التى تحث المواطنين على اتباعها . كانت وظيفة ارازموس أن يبتر الأغصان من شجرة الحياة لا أن يبنى فلسفة إيجابية متينة . بل إنه لم يكن واثقاً من أنه مسيحى ، فكثيراً ما أكد أنه يقبل عقيدة الرسل ، ومع ذلك فلابد أنه شك فى الجحيم لأنه كتب : « إن الذين ينكرون وجود الله ليسوا ملحدين كهؤلاء الذين يصورونه تعالى متزمتاً » . وكان لا يكاد يؤمن بأن العهد القديم من كلام الله لأنه أقر برغبته فى « أن يرى العهد القديم كله يبطل » إذا كان يهدئ من الحنق على رويخلين . وسخر من الروايات المأثورة عن مينوس وتوما بأنهما كانا يغريان شعبيهما بالخضوع لتشريع غير لطيف بنسبته إلى الآلهة . ولعله راوده الشك فى أن موسى كان يتبع نفس السياسة . وعبر عن دهشته لأن

« مور » رضى بالحجج التى تساق لإثبات خلود النفس ورأى أن العشاء الربانى رمز وليس معجزة ، ومن الواضح أنه راوده الشك فى الثالوث وفى تجسد الأقنوم الثانى وفى ولادة العذراء ، وكان على مور أن يحميه من مراسل أعلن أن ارازموس قد اعترف فى خلوة بعدم إيمانه . وطرح للنقاش واحداً بعد الآخر العادات التى درج عليها المسيحيون فى عهده — صكوك الغفران والصيام والحج والاعتراف السرى والرهبانية والعزوبة الاكليريكية وعبادة مخلفات القديسين والصلوات للقديسين وحرق الهراطقة . وقدم تفسيرات مجازية أو منطقية لكثير من فقرات الكتاب ، المقدس ، وقارن قصة آدم وحواء بقصة بروميثيوس ، وأشار بتفسير الكتب المقدسة تفسيراً يلتزم أقل ما يمكن المعنى الحرفى ، وحول عذاب الجحيم إلى الألم الدائم للعقل الذى يصحب الإثم المعتاد . ولم يذع شكوكه بين الناس لأنه لم يكن لديه أساطير مواسية أو رادعة يقدمها بدلا من الأساطير القديمة . وكتب يقول : « إن التقوى تستلزم منا أن نخفى الحقيقة أحيانا وأن نحرص على ألا نظهرها دائماً كما لو كان لا يهم متى وأين أو لمن نظهرها ، ولعلنا نجد لزاماً علينا أن نتفق مع أفلاطون فى أن الأكاذيب مفيدة للناس » .

وعلى الرغم من هذا الميل الشديد للمذهب العقلى فقد ظل ارازموس ظاهريا متفقاً مع المحافظين ولم يعدم قط محبته للمسيح وللأناجيل وللطقوس الدينية الرمزية التى رفعت بها الكنيسة من شأن التقوى . وابتدع شخصية فى محاوراته تقول « إذا كان ثمة شىء شائع الاستعمال عند المسيحيين لا يتنافر مع الكتب المقدسة فإنى أراعيه لهذا السبب بحيث لا أسىء إلى الناس الآخرين » .

وكان يحلم بأن يستبدل باللاهوت : فلسفة المسيح ، وسعى إلى التنسيق بين هذه الفكرة وبين رأى كبار الوثنيين . ووصف أفلاطون وسيشرون وسينكا بعبارة « ملهم من الله » ولم يقبل أن يحرم هؤلاء الرجال من الخلاص

وكان لا يكاد يستطيع أن يمتنع عن الصلاة على روح القديس سقراط . وطلب من الكنيسة أن تختصر المذاهب الجوهرية للمسيحية « إلى أقل عدد ممكن وأن تترك للباقى حرية الرأى » . ولم يدافع عن التسامح الكامل مع كل الآراء (ومن يفعل ؟) ولكنه اتخذ موقفاً رفيقاً منحازاً نحو الهرطقة الدينية . وكان مثله الأعلى فى الدين هو محاكاة المسيح ومهما يكن من أمر فإننا يجب أن نسلم بأن ممارسته للشعائر كانت أقل من أن توصف بأنها مطابقة لتعاليم الكنيسة الإنجيلية .

٦ — الإنسان

كيف عاش فعلا ؟ لقد أقام إبان هذا العهد (١٥١٧) معظم وقته فى الفلاندرز فى بروكسل وأنتورب ولوفان — وسكن فى خلوة أعزب مع خادم وإن كان كثيراً ما قبل ضيافة ذوى الثراء الذين كانوا يتسابقون على صحبته باعتبارها امتيازا اجتماعيا واحتفالا فكريا .

وكان أنيقا فى أذواقه وكانت أعصابه ومشاعره رقيقة إلى الحد الذى كان كثيراً ما يتألم فيه من خشونات الحياة الشديدة . وكان يشرب النبيذ بكثرة ويتفاخر بقدرته على حمل الكأس بثبات ، ولعل هذا كان بسبب داء النقرس والحصوات التى كانت تضايقه ، ولكنه كان يعتقد أن النبيذ يخفف من ألمه بتوسيع شرايينه .

وفى عام ١٥١٤ وهو فى الخامسة والأربعين أو الثامنة والأربعين من عمره وصف نفسه قائلا إنه : « عليل أشيب الرأس . . . يجب ألا يشرب سوى النبيذ » ويجب أن « يكون متأنقا فى طعامه » . وكان الصيام لا يناسبه ، وكان يتميز غيظا من السمك ؛ ولعل الصفراء عنده لونت لاهوته . وكان قليل النوم مثل معظم الناس الذين لا تعرف عقولهم المشغولة متى يأوون إلى الفراش ، وكان يواسى نفسه بأصدقائه وكتبه « يخيل إلى أنى أنتزع من نفسى

عند ما أحجز عن عاداتى اليومية فى الدراسة . إن بيتى هو المكان الذى توجد فيه مكتبتى » .

وكان يلح فى طلب النقود بكل ما عرف من مثابرة عن قسيس أبرشية ، وذلك لشراء الكتب إلى حد ما . وكان يتلقى معاشات منتظمة من مونتجوى ووارهام وهدايا عينية مثل مبلغ الثلاثمائة فلورين (٧٥٠٠ دولار ؟) من جان ليه سوفاج رئيس وزراء بورجنديا ، وحقوق تأليف تزيد عن تلك التى كسبها أى مؤلف آخر فى عصره .

وكان يتنصل من أى حب للمال ويقول إنه يبحث عنه لأنه ، كأى رجل بلا موارد ، يخشى ألا يجد ما يؤمنه فى وحدته عند ما يبلغ أرذل العمر . وفى الوقت نفسه استمر يرفض الوظائف المربحة التى كان يمكن أن توسع دخله على حساب حريته .

كان مظهره أولا لا يؤثر فى الناس ، فقد كان قصير القامة نحيل البدن أصفر الوجه ضعيف البنية ، خافت الصوت ، وكان يؤثر فى الناس بيديه الحساستين وأنفه الأقنى وعينيه الزرقاوين الرماديتين اللتين تلمعان ببريق الذكاء ، وكلامه حديث يدل على عقلية خصبة لماحة من أحسن العقليات فى هــذا العصر اللامع ، وكان أعظم الفنانين من معاصريه أبناء الشمال يتوقون إلى رسم صورة له ، فوافق على أن يجلس أمامهم لأن هذه الصور كانت تلقى ترحيبا من أصدقائه باعتبارها هدايا ، وصوره كينتان ماسيس عام ١٥١٧ وهو مستغرق فى الكتابة وملتف بمعطف ثقيل يقيه برد الحجرات فى تلك القرون ، وأهديت هذه الصورة إلى مور . ورسم ديرر صورة بالفحم لارازموس عام ١٥٢٠ ، ونقش له حفرا ملفتا للنظر عام ١٥٢٦ ، وهنا أضفت لمسة الريشة الألمانية تماما على « الأوروبى الطيب » سحنة هولندية . وقال الجالس « إذا كنت أبدو كهذه الصورة فأنا محتال كبير » . وتفوق هولبين على

كل هذه الجهود فى صور كثيرة رسمها لارازموس إحداها فى تورين وثانية فى انجلترا وثالثة فى بازيل وأحسنها فى اللوفر — وكلها روائع رسمها أعظم مصور للوجوه فى الشمال ، وهنا كان العلامة قد أصبح فيلسوفا هادئا متأملا وإن كان سوداويا إلى حد ما ، وسلم فى نفور لحياد الطبيعة المتواكل وفناء العبقرية . وكتب عام ١٥١٧ يقول : « يجب أن نتحمل ما يأتى به حظنا وقد هيأت عقلى لتقبل كل حدث » . وهى فلسفة رواقية لم يحققها قط . . . وقال عن شاب طموح : « إنه يحب المجد ولكنه لا يعرف ما يكلفه المجد من عناء » . ومع ذلك فإن ارازموس مثل كثير من ذوى النفوس النبيلة ، كان يواصل العمل ليلا ونهارا ليتغلب على هذا العبء .

وبدت أخطاؤه واضحة للعيان ، أما فضائله فكان لا يعلمها إلا الخلصاء من أصدقائه ، وكان فى وسعه أن يتسول بلا خجل ، ولكن كان فى وسعه أيضا أن يعطى ، وكثيراً ما كانت تشيع فى حرارة مدحه روح متمردة . وعند ما وجه بفيفركورن Pfefferkorn هجومه إلى رويخلين كتب ارازموس إلى أصدقائه من الكرادلة فى روما ، وساعد على الحصول على الحماية للعالم بآداب اللغة العبرية المتعب ، وكان يفتقر إلى التواضع والاعتراف بالجميل ، فقد كان هذا من الصعب على رجل يخطب وده البابوات والملوك .

وكان يضيق ذرعا بالنقد ويستاء منه ، وكان أحيانا يجيب عليه بطريقة نعسنية فى هذا العصر الشهير بالجدل ، وشاطر فى مناهضة السامية حتى مع علماء عصر النهضة ، وكانت اهتماماته فى أضيق الحدود كما كانت قوية ، فقد أولع بالأدب عند ما كان يلبس ثوب الفلسفة ، وبالفلسفة عند ما كانت تترك المنطق للحياة ؛ ولكنه تجاهل تقريبا العلم والمسرح والموسيقى والفن . وسخر من معظم نظم الفلك التى كانت تختال على المسرح وسخرت معه النجوم . وليس فى كل مراسلاته العديدة تقدير للآب أو لعمارة أكسفورد

وكامبردج أو لتصوير رافائيل أو لنحت ما يكلانجلو الذين كانوا يعملون ليوليوس الثانى عند ما كان ارازموس بروما (١٥٠٩) ، ثم إن الترتيل القوى فى الأبرشيات المقومة آذى فيما بعد أسماعه المهذبة . وكانت حاسة الفكاهة عنده عادة تتسم بالدقة والرقة ، وكانت رابيلية ولكنها فى الغالب ساخرة ، وانقلبت مرة إلى سخرية لا تتسم بالإنسانية كما حدث عند ما كتب إلى صديق عند ما سمع بإجرام بعض المراطقة : « سأرثى لهم أقل إذا رفعوا ثمن الوقود لا سيما وأن الشتاء على الأبواب » .

ولم تكن من صفاته الأثرة الطبيعية أو الأنانية التى يتسم بها كل الرجال ، بل كان يتصف بذلك الغرور الخفى المحبب أو الإعجاب بالذات الذى لولاه لانسحق الكاتب أو الفنان فى الاندفاع القاسى لعـالم يتسم بعدم الاكتراث .

وكان يحب الإطراء ويوافق عليه على الرغم ممن كانوا ينكرون عليه ذلك من آن لآخر . وقال لأحد أصدقائه : « إن خير النقاد يقولون إنى أكتب أحسن من أى إنسان آخر على ظهر الأرض » . وكان هذا حقا وإن كان باللاتينية فحسب ، فقد كان يكتب بفرنسية رديئة ويتحدث قليلا بالهولندية والإنجليزية ، وكان « يتذوق العبرية بطرف اللسان فقط » وكان يعرف اليونانية معرفة ناقصة ولكنه كان يجيد تماما اللغة اللاتينية ، وكان يستخدمها باعتبارها لغة حية يمكن تطبيقها على معظم التفاهات والأشياء الحقيرة غير اللاتينية فى عهده . وقد اغتفرت أجيال قرن مشغوفة بالكلاسيات معظم أخطائه نظرا لما يمتاز به أسلوبه من إشراقة زاهية . وما تتسم به تقديراته للأشياء ، بأقل من قيمتها ، من سحر عجيب ، وما تتصف به سخريته من تهكم لاذع . وتضارع رسائله خطابات سيشرون فى البلاغة والدماثة وتفوقها حيوية وفطنة . وفضلا عن هذا فقد تفرد بلغة لاتينية خاصة به ، ولم تكن تقليدا للغة شيشرون بل كانت كلاما حيا قويا طيعا ،

ولم تكن صدى لألفاظ مضى عليها ١٥٠٠ عام . وكانت رسائله مثل رسائل بترارك مطمح أنظار الأدباء والأمراء بعد حديثه المثير وهو يقول لنا ، ولعل هذا بشيء من الرخصة الأدبية ، أنه كان يتسلم كل يوم عشرين رسالة ويكتب أربعين خطابا . ونشرت منها بضع مجلدات فى حياته بعد أن فتحها مؤلفها بعناية حتى يقرأها من يأتون بعده . وكان بين من يراسلونه ليو العاشر وأدريان السادس والملكة مارجريت ملكة ناڤار والملك سيجموند الأول ملك بولنده وهنرى الثامن ومورروكوليه وبيركايمار . وكتب مور المتواضع : « لا أستطيع أن أتخلص من شعور نزوى بالغرور . . عندما يخطر ببالى أنى سأكون موضع ثناء من خلف بعيد لصداقتى لارازموس » .

ولم يضارعه فى شهرته كاتب آخر من معاصريه ، اللهم إلا إذا اعتقدنا أن لوثر كاتب . وأبلغ بائع كتب فى اكسفورد عام ١٥٢٠ أن ثلث مبيعاته كانت من أعمال ارازموس . وكان له أعداء كثيرون وبخاصة بين علماء اللاهوت فى لوفان ، غير أنه كان له مريدون فى اثنتى عشرة جامعة ، وكان هناك علماء للإنسانيات فى أوروبا ينادون به قدوة وزعيما . وفى ميدان الأدب كان يمثل عصر النهضة ومذهب الإيمان بالإنسان مجتمعين — عبادتهما للكلاسيات ولأسلوب لاتينى مصقول واتفاق الجنتلمان (السادة المهذبين) على ألا يختلفا مع الكنيسة وألا يزعجا أساطير الجماهير التى لا غنى عنها ، على شريطة أن للكنيسة أن تغض النظر عن الحرية الفكرية لطوائف المتعلمين وتسمح بتقويم مفاسد وسخافات رجال الدين تقويما داخليا قانونيا ؛ وقد هلل ارازموس مثل كل علماء الإنسانيات لتبوؤ ليو العاشر منصب البابوية ، فقد تحقق حلمهم — وها هو عالم بالإنسانيات وعلامة وسيد مهذب ، يمثل اتحاد النهضة والمسيحية معا ، قد ارتقى أعظم العروش . وليس من شك فى أنه سوف يتم تطهير سلمى للكنيسة ، وينتشر التعليم ، وسيحافظ الناس

على شعيرتهم المحببة وإيمانهم الذى يجدون فيه العزاء وإن كان العقل البشرى سوف يكون حرا .

وظل هذا الأمل يراود ارازموس حتى بداية عهد لوثر تقريبا ، ولكنه فى اليوم التاسع من سبتمبر عام ١٥١٧ كتب من انتورب إلى توماس ، كردينال يورك ، عبارة تنذر بالويل : « فى هذا الجزء من العالم أخشى أن هنالك ثورة عظيمة توشك على الوقوع » . وفى أقل من شهرين وقعت الثورة .

الفصل السادس عشر

ألمانيا قبيل عهد لوثر

١٤٥٣ - ١٥١٧

---

١ - عصر آل فوجر

كان التوفيق حلفا لكل الطوائف فى ألمانيا ما عدا الفرسان فى السنوات الخمسين الأخيرة قبل عهد الإصلاح الديني ، ولعل ارتفاع منزلة الفلاحين هى التى زادت من استيائهم على ما بقى من إحساسهم بالعجز . إذ كانت قلة منهم لا تزال من طائفة عبيد الأرض وأقلية منهم ملاكا ، وكانت غالبيتهم مزارعين مستأجرين يدفعون الإيجار إلى السادة الإقطاعيين إنتاجا عينيا أو يقدمون لهم خدمات أو نقوداً . وكان المستأجرون يشكون من ظلم السادة ، من أيام العمل الإثنى عشر والتى تصل إلى ستين يوما فى بعض الأحوال والتى حتمت التقاليد أن يبذلوها لهم فى كل عام ، ومن استرداد الأرض من عامة الناس ، تلك الأرض التى جرى العرف على السماح لهم فيها بصيد الأسماك وقطع الأخشاب ورعى الماشية ، ومن الأضرار التى لحقت بالمحاصيل من صيادى السيد وكلابهم ومن سياسة القضاء المتحيزة فى المحاكم المحلية ، وكان الملاك يسيطرون عليها ، ومن الضريبة على الموتى التى كانت تفرض على أسرة المستأجر عند ما يخل موت عميدها بالعناية بالأرض . وثار الملاك الفلاحون غضبا بسبب الضرائب المضاعفة التى كان لزاما عليهم أن يدفعوها على القروض المطلوبة لنقل محصولاتهم وعلى حبس الرهن السريع للمزارع بوساطة المرابين ، وكانوا يقدمون القروض للملاك الذين يتضح لهم عجزهم عن السداد ؛ ولقد

أضمرت كل عواطف الفلاحين العداء لضريبة العشور السنوية التى تفرضها الكنيسة على محاصيلهم وماشيتهم .

وأضرم هذا التذمر نيران ثورات الفلاحين فانتشرت خلال القرن الخامس عشر ، وقام الفلاحون حول ورمز بثورة لا طائل تحتها عام ١٤٣٢ ، واختاروا حذاء أحد الفلاحين علماً لهم ، وكان حذاء طويلا يكسو الساق من الرسغ إلى الركبة ، وعلقوه على الشواخص ، كما رسموا صورته على الأعلام . وأصبح رباط الحذاء العنوان المحبب لعصابات المتمردين من الفلاحين فى عهد لوثر .

ولقد أعلن عام ١٤٧٦ راعى أبقار يدعى هانز بوهم أن أم الإله قد كشفت له أن مملكة السماء على الأرض غدت قريبة دانية ولن يكون هناك أباطرة ولا بابوات ولا أمراء أو سادة إقطاعيون . وأن جميع الرجال سيكونون إخوة وجميع النساء أخوات ، الكل يشاطر على قدم المساواة ثمار الأرض ، وأن الأراضى والغابات والمراعى ستكون مشاعا وملكا للجميع . وأقبل آلاف الفلاحين ليستمعوا إلى هانز وانضم له أحد القسس وابتسم أسقف فيرتسبورج فى تسامح ولكن عندما طلب هانز من أتباعه أن يحضروا معهم فى الاجتماع القادم كل الأسلحة التى يستطيعون جمعها أمر الأسقف بالقبض عليه وأطلق جنوده النار على الجمهور الذى حاول إنقاذه وفشلت الحركة .

وفى عام ١٤٩١ هاجم الفلاحون فى ضيعة رئيس دير الرهبان فى كيمبتين فى الألزاس ديره ،وزعموا أنهم أكرهوا على أن يكونوا رقيقاً للأرض بوثائق مزيفة . وعقد الإمبراطور فريدريك الثالث معهم مصالحة . وبعد مرور سنتين أعلن أتباع أسقف ستراسبورج ثورة رباط الحذاء ، وطالبوا بإنهاء الضرائب الإقطاعية وضرائب العشور الكنسية وإلغاء كل الديون وقتل كل اليهود . وفكروا فى الاستيلاء على مدينة شلتستادت ، فقد كانوا يأملون أن

يمدوا سلطانهم على الألزاس . وعلمت السلطات بالمؤامرة وقبضت على الزعماء وعذبتهم ثم شنقتهم وأفزعت الباقين فأعلنوا الخضوع إلى حين . وفى عام ١٥٠٢ كون فلاحو أسقف سبير عصابة « رباط الحذاء » من ٧٠٠٠ رجل وتعاهدوا على إنهاء الإقطاع ومطاردة كل القسس والرهبان وقتلهم . واسترداد ما كانوا يعتقدون أنه كان مشاعا لأجدادهم . وأفشى أحد الفلاحين سر الخطة على كرسى الاعتراف فاتحد رجال الدين والنبلاء على إحباطها وعذب زعماء المتآمرين وشنقوا .

وفى عام ١٥١٢ نظم جوس فريتز حركة مماثلة قرب فرايبورج — ام — برايزجاو ، وكان من شأنها أن تبقى على الله والبابا والإمبراطور وأن تقضى على كل ملكية إقطاعية وضرائب يفرضها الإقطاعيون . غير أن واحداً من الفلاحين أكره على الانضمام لهذه الرابطة وأفشى سرها للقس الذى اعترف أمامه فاعتقلت السلطات الزعماء وعذبتهم وفشلت الثورة ، إلا أن جوس فريتز عاش إلى أن انضم إلى ثورة الفلاحين عام ١٥٢٥ ، وفى عام ١٥١٧ تكونت جماعة من ٩٠٫٠٠٠ فلاح فى ستيريا وكارينثيا وتعاهدوا على القضاء على الإقطاع هناك وظلت عصاباتهم لمدة ثلاثة شهور تهاجم القلاع وتقتل بالسادة ، وأخيراً أرسل الإمبراطور ماكسمليان ، وكان يعطف على قضيتهم وإن لم يرض عن توسلهم بالعنف ، قوة صغيرة من الجنود وأرغمتهم على السلم على مضض . ولكن المسرح كان معداً لحرب الفلاحين وللشيوعية اللامعمدانية فى الإصلاح الدينى بألمانيا .

وفى غضون ذلك كانت تقوم فى عالمى الصناعة والتجارة بألمانيا ثورة أملاها الأمر الواقع . كانت معظم الصناعات لا تزال يدوية وإن تزايدت عليها سيطرة رجال الأعمال الذين يقدمون المواد الخام ويمولونها ويشترون الإنتاج النهائى ويبيعونه ، وكانت صناعة التعدين تتقدم بسرعة وجنيت أرباح عظيمة من استخراج الفضة والنحاس والذهب ، وأصبحت سبيكة الذهب

أو الفضة عندئذ وسيلة محببة لاختزان الثروة ، ومكنت حقوق التعدين لأمراء الإقليم — وبخاصة أمير ساكسونيا وكان يحمى لوثر — مكنت بعضهم من مقاومة البابا والإمبراطور معا . وسكت نقود فضية يعتمد عليها وتضاعف عدد النقد وتم أو كاد التوصل إلى اقتصاد يرتكز على النقد ، وأصبحت حيازة سبيكة فضية أمراً شائعا فى الطبقتين الوسطى والعليا ، وعرضت بعض الأسر مناضد أو مقاعد من الفضة الخالصة وتراكمت فى الكنائس الألمانية ، أوعية وكئوس قداس وجفان بل وتماثيل من الفضة أو الذهب ، وجعلت الأمراء يميلون إلى إصلاح دينى يسمح لهم بتصفية الثروة الكنسية . وقد تعجب أنياس سيلفيوس عام ١٤٥٨ عندما رأى أصحاب حانات فى ألمانيا يقدمون بانتظام الشراب فى كئوس فضية وتساءل : « أية امرأة ، لا بين طبقة النبلاء فحسب بل بين طبقات الدهماء ، لا تتألق بالتحلى بالذهب ؟ — وهل أذكر شكائم الخيول المزينة بنقوش بارزة من خالص الذهب و . . . أسلحة وخوذات تلمع بالذهب ؟ » وأصبح الممولون الآن قوة سياسية عظيمة ، واستبدل بمقرضى النقود من اليهود مؤسسات تديرها عائلات مسيحية من الولزين والهوخستيتر والفوجر ، وكلهم من أوجسبورج وكانت عاصمة المال فى العالم المسيحى فى نهاية القرن الخامس عشر . ولقد أصبح جوهان فوجر ، وهو ابن نساج ، تاجرا للمنسوجات وترك عند وفاته (عام ١٤٠٩) ثروة صغيرة من ٣٫٠٠٠ فلورين (٧٥٫٠٠٠ دولار ؟) وتوسع ابنه جاكوب فى العمل وعندما مات (١٤٦٩ ترك ثروة تعد السابعة بين الثروات فى أوجسبورج ، واستطاع أولريخ وجورج وجاكوب الثانى أبناء جاكوب أن يرقوا بالمؤسسة إلى مكان الصدارة بتقديم المال إلى الأمراء فى ألمانيا والنمسا وهنغاريا ، وذلك فى مقابل الحصول على دخول المناجم أو الأراضى أو المدن . ومن هذه الاستثمارات التى تعتمد على المضاربة جمع آل فوجر أرباحا فاحشة وما أن حل عام ١٥٠٠ حتى كانوا أغنى أسرة فى أوروبا .

وكان جاكوب الثانى عبقرى الأسرة الذى لا يبارى ، فقد كان مقداما قاسيا مجدا . ودرب نفسه ، على طريقة الرواقيين ، بدراسة كل مرحلة من مراحل العمل وكل تقدم فى مسك الدفاتر والصناعة والمتاجرة والتمويل . وطالب بالتضحية بكل شىء فى سبيل العمل ما عدا الأسرة نفسها وبإخضاعه كل فرد من آل فوجر فى سبيل مصلحة الأسرة وأسس المبدأ القائل بألا سلطة لأحد فى المؤسسة سوى فرد من آل فوجر ولم يسمح قط لعلاقاته السياسية بالتأثير فى قروضه . وكون اتحادات مع المؤسسات الأخرى للتحكم فى سعر المنتجات المختلفة ومبيعاتها ، ولذلك عقد عام ١٤٩٨ هو وإخوته اتفاقاً مع تجار أوجسبورج يقضى « بتضييق الخناق » على سوق البندقية فى النحاس ورفع السعر . وفى عام ١٤٨٨ أقرضت الأسرة ١٥٠٠٠ فلورين للأرشيدوق سجيسموند النمساوى وتسلمت ضمانا للقرض كامل إنتاج مناجم الفضة فى شفارتز إلى أن يتم سداد القرض . وفى عام ١٤٩٢ اتفق آل فوجر مع آل تورزو من كراكا وعلى قيام اتحاد (كارتل) لاستغلال مناجم الفضة والنحاس فى هنغاريا وللحفاظ على « أعلى سعر ممكن » للمنتجات ، وما أن حل عام ١٥٠١ حتى كان آل فوجر يقومون بمشروعات واسعة التعدين فى ألمانيا والنمسا وهنغاريا وبوهيميا وإسبانيا . وعلاوة على هذا فإنهم استوردوا المنسوجات وصنعوها وتاجروا فى الأقمشة الحريرية والقطيفة والفراء والتوابل وثمار الليمون والذخائر والمجوهرات ونظموا نقلا سريعا وخدمة بريدية خاصة ، وما أن حل عام ١٥١١ وأصبح جاكوب الثانى المدير الوحيد للمؤسسة حتى كانت أصولها قد وصلت إلى ١٩٦٫٧٩١ جيلدر . وفى عام ١٥٢٧ (بعد عامين من وفاته) قدر رأسمالها بمبلغ ٢٫٠٢١٫٢٠٢ جيلدر (٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار) — بواقع ربح سنوى قدره خمسون فى المائة خلال ستة عشر عاما .

ولقد حصل جانب من هذا الربح من علاقات آل فوجر بالأباطرة

والبابوات إذ قدم أولريخ فوجر قروضا لفردريك الثالث وأصبح جاكوب الثانى الوسيط الأول لماكسمليان الأول وشارل الخامس وقد تحقق امتداد سلطان آل هابسبورج فى القرن السادس عشر بفضل قروض آل فوجر وعلى الرغم من أن جاكوب لم يعبأ بتحديد الكنيسة للفوائد ومحاولات رجال الكنيسة أن يحددوا « ثمنا عادلا » لسلع المستهلكين فإنه ظل كاثوليكيا . وقدم القروض لرجال الدين للوفاء بنفقات ترقيتهم ، وحصل مع أولريخ (عام ١٤٩٤) على حق إدارة أموال البابا فى ألمانيا واسكنديناوة وبوهيميا وهنغاريا ، وكان جاكوب فوجر فى السنوات الأخيرة من عمره مواطنا مبجلا ومكروها فى ألمانيا ، وهاجمه بعض الكاثوليكين باعتباره مرابيا كما هاجمه بعض النبلاء بسبب رشوته لهم للظفر بمنصب أو نفوذ ، وبعض التجار لاحتكاراته التى أثارت حسدهم ، وسخط عليه كثير من العمال لإلغائه لوائح التجارة والمال فى العصور الوسطى ، ومعظم البروتستانت لتصديره الأموال الألمانية إلى البابوات . ولكن الأباطرة والملوك والأمراء والبطاركة بعثوا له بالرسل وخاطبوه كأنه أحد الحكام ورسم ديرر وبورجكمير وهولبين الكبير صورة شخصية له بدا فيها رجلا واقعيا بسيطا صارما ، وأنعم عليه ماكسمليان بلقب كونت الإمبراطورية ، وحاول جاكوب أن يكفر عما ارتكبه من خطايا بجمع ثروته ببناء ١٠٦ منزلا للفقراء من الكاثوليك بأوجسبرج[١] ، وأنشأ معبداً صغيرا فى كنيسة سانت أنا لتدفن فيه رفاته ومات بوسط جو مضمخ بالقداسة وخلف ملايين الجيلدرات ، ولم يعقب ذرية فقد حرمته الحياة أعظم عطاياها .

ويمكننا أن نقول إنه هو الوحيد الذى افتتح عصر الرأسمالية ونمو الاحتكارات الخاصة وسيطرة رجال الأعمال بأموالهم على السادة الإقطاعيين

---

(١) لا تزال هذه المستعمرة « فوجيراى » موجودة وهى تتقاضى اثنين وأربعين بفنيجا (ستة وثمانين سنتا) من الأسرة كل عام .

الذين يملكون الأرض ، وكان التعدين وصناعة المنسوجات يرتكزان على أنظمة رأسمالية أى، يشرف عليهما من يقدمون رأس المال — فى نهاية القرن الخامس عشر ، على نسق زعامة الفلاندرز وإيطاليا فى صناعة المنسوجات قبل ذلك بمائة عام .

وكان الرأى السائد فى العصور الوسطى هو أن الملكية الفردية وديعة عامة إلى حد ما : فحقوق المالك تحددها احتياجات الجماعة التى أتاح نظامها له الفرص والتسهيلات والحماية . وربما فى ظل القانون الرومانى — وكان قد حجب وقتذاك الفقه الألمانى — بدأ المالك يرى أن ملكيته مطلقة وشعر بأن له الحق فى أن يفعل بملكه ما يشاء . ولذلك لم يبد من الخطأ لآل فوجر وآل هوخستيتر وغيرهم من « أمراء التجار » أن (يضيقوا الخناق » على إنتاج ثم يرفعوا سعره أو يكونوا اتحادات (كارتلات) لتحديد الناتج والتحكم فى التجارة أو أن يمارسوا الاستثمارات بحيث يغشون صغار حاملى الأسهم . وفى عديد من الأمثلة نجد تاجرا يضع وكلاءه على أبواب المدينة ومعهم أوامر بأن يشتروا كل البضائع الواردة من صنف معين حتى يبيعها بالسعر الذى يفرضه فى المدينة . وقد اشترى امبروز هوخستيتر كل ما أمكن الحصول عليه من الزئبق ثم رفع سعر بيع التجزئة بمقدار ٧٥ فى المائة . واشترت شركة ألمانية فلفلا من ملك البرتغال بمبلغ ٦٠٠ر٠٠٠ جيلدر بسعر يزيد على السعر العادى على شريطة أن يتقاضى الملك سعراً أعلى من كل مستوردى الفلفل من البرتغال إلى ألمانيا . وعن طريق هذه الاتفاقات والاحتكارات من ناحية ، وعن طريق تزايد الثروة وزيادة الطلب على البضائع من ناحية أخرى ، وعن طريق ارتفاع الوارد من المعادن النفيســـة من أوروبا الوسطى وأمريكا ارتفعت الأسعار بين عامى ١٤٨٠ و ١٥٢٠ بسرعة لانظير لها إلا فى قرننا هذا : وقال لوثر شاكيا : « فى خلال زمن قصير وبسبب الربا والشح أصبح من كان فى وسعه سابقا

أن يعيش بمبلغ مائة جيلدر لايستطيع الآن أن يعيش بمبلغ مائتين » . وهى حكاية رويت أكثر من مرتين .

وقد شهدت العصور الوسطى تفاوتا شاسعاً فى السلطة السياسية ، وأضاف عصر آل فوجر الجديد تباينا اقتصاديا لم تعرفه أوروبا منذ عهد أصحاب الملايين والعبيد فى إمبراطورية روما ، فبعض التجار الرأسماليين فى أوجسبرج أو نورمبرج كان عنــد كل منهم ثروة تعادل ٠٠٠ر٠٠٠ر٥ فرنك (٠٠٠ر٠٠٠ر ٢٥ دولار ؟) واشترى الكثيرون مكانة بين الأرستقراطية صاحبة الأرض وارتدوا دروعا عليها شعارهم وعوضوا احتقار الأشراف « بإسراف مبالغ فيه » ، فقد كان جواكيم هوخستيتر وفرانزباو مجارتنر ينفقان ٠٠٠ر٥ فلورين (٠٠٠ر١٢٥ دولار ؟) على مأدبة واحدة أو يقامران فى لعبة واحدة بمبلغ ٠٠٠ر١٠ فلورين ، وقد أثارت بيوت رجال الأعمال الأغنياء الفاخرة الأثاث والزخارف الفنية استياء طبقة النبلاء ورجال الدين والدهماء على حد سواء ، وانضم الوعاظ والكتاب والثوريون فى ثورة عارمة ضد المحتكرين ، وطالب جايلر فون كايزرسبرج بأن « يطاردوا كالذئاب ما داموا لا يخشون الله ولا الناس وينشرون المجاعة والعطش والفقر » . وميز أولريخ فون هوتن أربعة طوائف من اللصوص : التجار وفقهاء القانون والقسس والفرسان ، ورأى أن التجار إنما هم أخطر هؤلاء اللصوص جميعا . « وطالب مجلس الريخستاج فى كولون كل السلطات المدنية بأن تتخذ الإجراءات » بحزم وشدة (ضد كل الشركات الرأسمالية التى تتوسل بالاحتكار والربا) . وتكرر صدور مثل هذه القوانين من مجالس نيابية أخرى ولكن بلا جدوى ، فقد كان بعض المشرعين أنفسهم يستثمرون أموالهم فى المحلات التجارية الكبرى ، وهدأت سورة غضب حماة القانون بمنحهم أسهما ، كما أن كثيراً من المدن ازدهرت بنمو التجارة الحرة .

كانت ستراسبورج وكولمار وميتز وأوجسبورج ونورمبرج وأولم وفيينا

وراتيسبون (رجنزبورج) وماينز وسبيبار وفورمز وكولون وترير وبريمن ودورتموند وهامبورج وماجديبرج ولوبيك وبرسلاو مراكز نشاط اقتصادى مزدهرة بالصناعة والتجارة والآداب والفنون . وكانت هى وسبعة وسبعون مدينة أخرى « مدنا حرة » أى مدنا تسن قوانينها الخاصة وترسل ممثلين لها للمجالس النيابية الإقليمية والإمبراطورية ولا تخضع سياسياً إلا للإمبراطور ، وكان بدوره مدينا لها بالعون المالى أو العسكرى إلى حد لا يستطيع معه أن يقيد حرياتها ؛ وعلى الرغم من أن هذه المدن كانت تحكمها طوائف حرفية يسيطر عليها رجال الأعمال فإن كل واحدة منها تقريبا كانت بمثابة حكومة تستهدف الصالح العام . وطبقا للطريقة التى تراعى مصلحة الجماعة وذلك إلى الحد الذى كانت فيه تنظم الإنتاج والتوزيع والأجور والأسعار وصفة السلعة بقصد حماية الضعيف من القوى وتوفير احتياجات المعيشة للجميع . ونحن نطلق عليها الآن بلادا(١) لا مدنا طالما أن عدد السكان لم يتجاوز فى أى منها ٥٢٫٠٠٠ نسمة ومع ذلك فقد كانت آهلة بالسكان كما كان الحال عليه قبل منتصف القرن التاسع عشر وأكثر ازدهاراً من أى عهد قبل بجرته ، وإينياس سيلفيوس وهو إيطالى مزهو بنفسه كتب عنها عام ١٤٥٨ يقول :

لم تكن ألمانيا أغنى ولا أشد تألقا منها قبل اليوم ... ويمكن أن يقال دون مبالغة أنه ليس فى أوروبا بلد تبزها أو تفوقها فى جمال مدنها فهى تبدو طلية جديدة كأنها شيدت بالأمس ولن تجد حرية زائدة مثل هذه فى أية مدن أخرى . .

ولا يمكن أن نجد مدينة فى أوربا أكثر فخامة من كولون بكنائسها العجيبة ومبنى البلدية فيها وأبراجها وقصورها ومواطنيها المبجلين من أوساط

---

(١) جمع بلدة لتمييزها عن المدينة .

الناس وجداولها العظيمة . . . كما أنه ليس ثمة مدينة فى العالم تبز أوجسبورج فى الثروة . وفى فينا قصور وكنائس تحسدها عليها حتى إيطاليا » .

ولم تكن أوجسبورج مركزا للمال فى ألمانيا فحسب بل كانت أيضاً الحلقة التجارية الرئيسية التى تربط بينها وبين إيطاليا المزدهرة آنذاك . وتجار أوجسبورج هم الذين كان لهم الفضل فى بناء وإدارة الفونداكوتيديسكو فى البندقية التى زين جدرانها جيورجيونى وتيتيان بصورهما الجصية ، وكانت أوجسبورج وثيقة الاتصال بإيطاليا حتى أنها رددت صدى النهضة الإيطالية ، وآزر تجارها الأدباء والفنانين وأصبح بعض الرأسماليين بها مثالا يحتذى فى السلوك والثقافة إن لم يكن فى الأخلاق . ومن ثم نجد أن كونراد بوليتنجر ، وهو مأمور أو عمدة فى سنة ١٤٩٣ ، كان دبلوماسياً وتاجرا وأديباً وفقيهاً وعالماً باللغتين اللاتينية واليونانية وأثريا ورجل أعمال .

وكانت نورمبرج مركزا للفنون والحرف اليدوية أكثر منها للصناعة أو المال على نطاق واسع ، وكانت طرقاتها لا تزال ملتوية حسب ما كان متبعا فى القرون الوسطى تظلاها طبقات بارزة أو شرفات ، وأسقفها المغطاة بالقرميد الأحمر وجملوناتها العالية القمة ومشربياتها تكون صورة غير متناسقة فى مهادها الريفى وجدول بجنيتز الضخم . ولم يكن الناس بها فى بحبوحة من العيش كما هم فى أوجسبورج ولكنهم مبتهجون دمثو الخلق ويحبون اللهو .والتبذل فى مهرجانات مثل الكرنفال الذى يشتركون فيه كل عام ويرتدون فيه الأقنعة وأزياء التنكر ويرقصون . وهناك أخذ هانز ساكس وكبار المغنيين ينشدون ألحانهم المرحة ، وارتقى ألبرخت ديرر بالتصوير والحفر الألمانيين إلى ذروتهما ، وهناك قام صاغة الذهب والفضة شمال الألب بصنع زهريات غالية الثمن وأوعية للكنيسة وتماثيل صغيرة ، وهناك قام العاملون بالأشغال المدنية بتشكيل الف تكوين للنبات والحيوان

والإنسان من البرنز أو شكلوا الحديد فى سياجات أو ستائر جميلة ، وهناك كان قاطعو الخشب من الكثرة إلى حد يجعلنا نعجب كيف تيسرت لهم سبل العيش . وأصبحت كنائس المدن مخازن ومتاحف للفن لأن كل طائفة حرفية أو نقابة أو أسرة ثرية كانت ترسل عملا فنيا جميلا إلى مزار قديس يحمى الزمار . واختار رجيومونتانوس مدينة نورمبرج موطنا له وقال : « لأنى أجد هناك دون صعوبة كل الأدوات الخاصة بعلم الفلك وإنه لأيسر لى هناك أن أظل على صلة بالمتعلمين فى كل البلاد لأن نورمبرج ، بفضل رحلات تجارها المستمرة يمكن أن تعد مركزا لأوروبا . ومن مميزات نورمبرج أن أشهر تجارها فيليبالد بيركهايمر كان أيضا عالما بالإنسانيات متحمسا وراعيا للفنون وصديقا حميما لديرر ، وقد أطلق ارازموس على بيركهايمر : « فخر ألمانيا العظيم » .

وعكرت صفو التجارة بين ألمانيا وإيطاليا رحلات داجاما وكولمبس وسيطرة الترك على بحر ايجة وحروب ماكسمليان مع البندقية ، فانتقلت الصادرات والواردات الألمانية شيئاً فشيئاً على طول الأنهار الكبيرة إلى بحر الشمال وبحر البلطيق والمحيط الأطلسى وانتقلت الثروة والسلطان من أوجسبورج ونورمبرج إلى كولون وهامبورج وبريمن وإلى أنتورب بصفة خاصة . وشجع آل فوجر وآل ويلز هـذا الاتجاه بأن جعلوا من أنتورب مركزا رئيسيا لعملياتهم . وأدت حركة المال والتجارة الألمانيين نحو الشمال إلى فصل شمال ألمانيا عن الاقتصاد الإيطالى ودعمت مركزها بحيث استطاعت حماية لوثر من الإمبراطور والبابا . ولعل جنوب ألمانيا ظل مخلصا للكاثولوكية لأسباب مغايرة .

٢ ـ الدولة

كيف كانت ألمانيا تحكم فى هذا العصر التشكيلى الحرج ؟

لقد كان الفرسان ، أو أبناء الطبقة النبيلة الدنيا ، الذين حكموا الريف بصفتهم أتباعا للسادة الإقطاعيين ، يفقدون مركزهم العسكرى والاقتصادى والسياسى . وكانت فرق الجنود المرتزقة الذين يستأجرهم الأمراء أو المدن ، والمجهزين بالأسلحة النارية والمدافع ، تبيد فرق الفرسان الذين كانوا يلوحون بالسيوف فى عجز وقصور ، وكانت الثروة التجارية ترفع الأسعار والنفقات وتتفوق على ملكية الأرض باعتبارها مصدرا للسلطان ، وكانت المدن توطد استقلالها والأمراء يركزون فى أيديهم السلطة والقانون . وثأر الفرسان قليلا بالترصد للتجارة التى كانت تمر فى طريقهم ، وعندما احتج التجار والبلديات أكد الفرسان حقهم فى شن حروب خاصة . وقد وصف كومين ، ألمانيا فى هذا العهد بأنها تزخر بالقلاع التى يمكن فى أى وقت أن يتدفق منها « لصوص من البارونات » وأتباعهم المسلحون ، ويسلبون التاجر المسافر والفلاح على السواء . وجرت عادة بعض الفرسان أن يقطعوا الأيدى اليمنى لمن يسلبون من التجار . وعلى الرغم من أن جيتز فون برليخينجن فقد هو نفسه يده فى خدمة أميره ، فقد استبدل بها يدا حديدية ، وتزعم عصابات من الفرسان ، لا لمهاجمة التجار فحسب ، بل لمهاجمة المدن أيضاً ، « نومبرج ـ دارمستادت وميتز وماينز (١٥١٢) . ووجه صديقه فرانز فون سيكنجن تهما ضد مدينة ورمس ونهب ضواحيها وقبض على أعضاء مجلس الشورى فيها وعذب عمدتها وقاوم كل المحاولات التى قامت بها الفرق الإمبراطورية للقبض عليه ولم يكن من المستطاع إخضاعه إلى حين إلا عندما تلقى منحة سنوية ليخدم الإمبراطور . وانضمت اثنتان وعشرون مدينة فى سوابيا ـ وبصفة خاصة أوجسبرج وأولم وفرايبورج وكونستانس إلى

الطبقة الرفيعة من النبلاء لإعادة تكوين عصبة سوابيا (١٤٨٨) وهذه المدن وغيرها من الاتحادات كبحت جماح الفرسان اللصوص ونجحت فى أن تعلن عدم شرعية الحرب الأهلية ، ومع ذلك فإن ألمانيا كانت قبيل عهد لوثر مسرحا للفوضى الاجتماعية والساسية ، فقد كان يسودها حكم شامل للقوة » .

وأسهم الأمراء الزمنيون ورجال الدين اللذين تصـــدروا القلاقل فيها بجشعهم وعملاتهم ورسوم جماركهم المختلفة وتنافسهم المضطرب على الثروة والنصب وتشويههم للقانون الرومانى ، وذلك لكى يمنحو أنفسهم سلطة مطلقة أو تكاد على حساب الشعب والفرسان والإمبراطور . وتصرفت بعض الأسر تصرف الملوك غير المسئولين من أمثال بيوت هوهنزولرن فى براندنبرج وفيتين فى ســاكسونيا وفيتلسباخر فى البلاتينات ودوقات فيرتتيمبرج ، فما بالك بآل هابسبرج فى النمسا . ولو كان سلطان الإمبراطور الكاثوليكى على الأمراء الألمان أعظم من هذا لفشلت حركة الإصلاح الدينى أو تأجلت . ثم إن إعراض كثير من الأمراء عن روما كان اتجاها آخر نحو الاستقلال المالى والسياسى .

وأكدت شخصية الأباطرة فى هذا العهد ضعف الحكومة المركزية . وكان فردريك الثالث (حكم من ١٤٤٠ إلى ١٤٩٣) فلكيا وكيمائيا يغرم بهـــدوء حدائقه فى جراتز الذى يتطلع إليه البحاثة لدرجة أنه سمح لشلسوج هولشتين وبوهيميا والنمسا وهنغاريا بأن تنفصل عن الإمبراطورية ، ولكنه قام فى حوالى نهاية العام الثالث والخمسين من حكمه بخطوة لإنقاذها وذلك بخطبة مارى ، وريثة شارل الجسور دوق بورغنديا ، لابنه ماكسمليان . وعندما حفر شارل لنفسه قبرا ثلجيا عام ١٤٧٧ ورث آل هابسبورج الأراضى الواطئة .

وبدأ ماكسمليان الأول (حكم من١٤٩٣ إلى١٥١٩) الإمبراطور المنتخب

والذى لم يتوج قط ، حكمه بكل ما يبشر بالنجاح . وابتهجت الإمبراطورية كلها لملامحه الجميلة وأخلاقه الطيبة ورقة مشاعره الوديعة وبشاشته الجياشة، وكرمه وشهامته وشجاعته ومهارته فى المبارزة والصيد ، وكأنه إيطالى من عصر النهضة ارتقى عرشاً ألمانيا . بل إن ماكيافيلى تأثر به ووصفه بأنه « أمير عاقل زكى يخشى الله ، وحاكم عادل ، وقائد عظيم ، يقتحم الأخطار ويتحمل المشقة كأصلب الجنود عودا . . . نموذج يحتذى لكثير من الفضائل الخلقية بأمير » .. ولكن « ماكس » لم يكن قائدا عظيما ،وكان يفتقر إلى الذكاء الخبيث المطلوب من أمير فى نظر ماكيافيلى كان يحلم باستعادة عظمة الإمبراطورية الرومانية المقدسة باسترداد ممتلكاتها . السابقة ونفوذها فى إيطاليا فغزا شبه الجزيرة مرارا وتكرارا فى حروب لا طائل تحتها ، رفض مجلس الدايت ، وكان فى هذا عمليا ، أن يمولها . وسمح لنفسه بالتفكير فى خلع يوليوس الثانى القوى وتنصيب نفسه بابا وإمبراطورا فى الوقت نفسه . وقد برر (مثل زميله المعاصر شارل الثامن ملك فرنسا) مطامعه الإقليمية بأنها تمهيد ضرورى لهجوم ساحق على الأتراك ، ولكنه عجز عن وضع خطة مدعمة من الناحيتين الدستورية والمالية . وكان لا يستطيع أن يحقق بالوسائل كما يتمنى الغايات ، وكان فى بعض الأوقات فقيرا إلى الحد الذى كان يعوزه المال لسداد ثمن عشائه . وسعى لإصلاح الإدارة فى الإمبراطورية ولكنه انتهك إصلاحاته ذاتها فماتت معه . وكان يفكر كثيرا فى مدى سلطة آل هابسبورج وبعد أن لاقى أكثر من فشل فى الحرب عاد إلى سياسة والده القائمة على الزيجات الدبلوماسية . وعلى هذا فإنه قبل عرض فرديناند بخطبة جوانا إلى ابنه فيليب وكانت ضعيفة العقل إلى حد ما ولكنها قدمت إسبانيا دولة صداقا لها . وفى عام ١٥١٥ خطب لحفيدته مارى وحفيده فرديناند ، للويس وأن ابن وابنة لاديسلاس ملك بوهيميا وهنغاريا ، وقتل لويس فى موهاكس (١٥٢٦) وأصبح فرديناند ملكا على بوهيميا وهنغاريا (بقدر ما سمح الأتراك) وبلغ سلطان آل هابسبرج أوسع مداه .

وكانت أحب سمات ماكسمليان عشقه وتشجيعه للموسيقى والتعليم والأدب والفن . وأكب فى حماس على دراسة التاريخ والرياضيات واللغات . ولقد ثبت لنا أنه كان فى وسعه أن يتحدث بالألمانية واللاتينية والإيطالية والفرنسية والإسبانية والوالونية والفلندية والإنجليزية ، ويقال إنه تحدث فى حملة حربية واحدة مع سبع قواد أجانب بلغاتهم السبعة المختلفة . ومزج لهجات جنوب وشمال ألمانيا فى لغة ألمانية يفهمها الجميع وهى التى أصبحت لغة الحكومة الألمانية وكتاب لوثر المقدس والأدب الألمانى ، وذلك بفضل جهوده والاقتداء به إلى حد ما . وحاول ، وهو بنجوة من الحروب ، أن يكون مؤلفاً ، وترك مصنفات عن فن الدروع والمدفعية والعمارة والصيد وسيرته الخاصة ، وفكر فى اقتناء مجموعة تستوعب مخلفات ونقوشاً من ماضى ألمانيا ولكن أعوزته الأموال من جديد . واقترح على البابوات إصلاح التقويم ، وقد حققوا فكرته بعد ثمانين عاما . وأعاد تنظيم جامعة فينا وأسس كراسى أستاذية جديدة للقانون والرياضيات والشعر والبلاغة ، وجعل من فيينا أزهر مركز للتعليم فى أوروبا لفترة ما . ودعا علماء الإنسانيات الإيطاليين إلى فينا ، وعهد إلى كونرادوس سلتس أن يفتح هناك أكاديمية للشعر والرياضيات . وناصر علماء للإنسانيات مثل بويتنجر وبيركهايمر وجعل من روتخلين Reuchlin المضطهد كونت بالاتاين الإمبراطورى . ومنح مكافآت لبيتر فيشر وفايت ستوس وبورجكمير وديرر والفنانين الآخرين الذين تألقوا فى عهده . وأمر بإقامة قبر مزخرف فى انزبروك ليضم رفاته ، وقد ترك دون أن يتم بناؤه عند وفاته ولكنه أتاح فرصة لتماثيل بيتر فيشر الجميلة لتيودوريك وأرثر . ولو كان ماكسمليان عظيما بقدر عظمة أفكاره لكان ندا للإسكندر وشارلمان .

وفى آخر سنة من حكم الإمبراطور رسم ديرر صورة أمينة له — تمثله منهوك القوى وقد انزاحت عنه الأوهام ، وكسر شوكته بؤس الزمن المثير للجنون . وقال هذا الرجل الذى كان يوماً روحاً مرحة « ليس فى الأرض

مسرة لى . وا أسفاه على أرض ألمانيا السكينة » ولكنه بالغ فى الحديث عن فشله ، فقد ترك ألمانيا والإمبراطورية (ولو لم يكن هذا إلا عن طريق التنمية الاقتصادية) أقوى مما وجدهما عليه إذ ارتفع عدد السكان وانتشر التعليم وبدأت فيينا تصبح فلورنسا أخرى . وسرعان ما صار حفيده ، الذى ورث نصف أوروبا الغربية ، أقوى حاكم فى العالم المسيحى .

٣ – الألمـــان (١٣٠٠ – ١٥١٧)

ربما كانوا إبان ذلك العهد أصح الشعوب أبداناً وأقواهم جسداً وأشدهم حيوية فى أوروبا ، فإنهم ، كما نراهم فى لوحات فولجيموت وديرر وفى صور كراناخ وهولبين ، أناس أقوياء البنية غلاظ الأعناق كبيرو الرؤوس ، لهم قلوب الأسود ، على تمام الأهبة لالتهام العالم ، واستساغته بشراب الجعة . كانوا أجلافا ولكنهم ظراف تخفف من ورعهم نزواتهم الشهوانية . وكان فى وسعهم أن يكونوا غلاظ الأكباد كما تدل على ذلك أدوات التعذيب المروعة التى اعتادوا استخدامها مع المجرمين ؛ ولكنهم مع ذلك كانوا رحماء كرماء قلما عرضوا تزمتهم الدينى بوسائل بدنية ، إذ لقيت محاكم التفتيش فى ألمانيا مقاومة باسلة وكان نصيبها القمع عادة . لقد جبل الألمان بنفوسهم القوية على المرح الذى يتسم بإدمان الشراب أكثر مما يتسم بالفطنة الجافية ، ولقد أدى هذا كله إلى تبلد حسهم بالمنطق والجمال وحرمهم من ظرف العقلية الفرنسية أو الإيطالية ودهائها وتعثرت نهضتهم الهزيلة فى غمرة حماستهم الزائدة لتفسير الكتاب المقدس ومع ذلك فقد كان عندهم إصرار ثابت وصناعة منظمة وشجاعة فائقة فى الفكر الألمانى مكنتهم من كسر شوكة سلطان روما وأتاحت لهم فرصة أن يصبحوا أعظم علماء فى التاريخ . وهم شعب نظيف بالقياس إلى غيرهم من الأمم فالاستحمام عادة وطنية . وكل بيت حسن التنسيق فيه حمام حتى فى المناطق الريفية . والحمامات العامة العديدة توفر أكثر من حمام

إذ يستطيع الرجال هناك أن يحلقوا ذقونهم وتستطيع النساء أن يصففن شعورهن كما كانت توفر فيها ضروب مختلفة من التدليك وكان يسمح فيها بالشرب والمقامرة ويمكن أن يجد فيها كل من يضيق ذرعا بالزوجة الواحدة خلاصاً . وكان الناس من الجنسين يستحمون عادة معاً وهم يرتدون ملابس محتشمة وإن لم تكن هناك قوانين تحرم المغازلة ، ولقد قال أحد الدارسين الإيطاليين بعد أن زار بادن — بادن عام ١٤١٧ : « ليست هناك فى العالم حمامات أكثر ملاءمة من هذه لإنجاب النساء » .

ولا يمكن أن يتهم الألمان إبان ذلك العهد بأنهم من أنصار مذهب التطهر إذ كان حديثهم ورسائلهم وأدبهم ومرحهم تتسم أحيانا بالجفاء إذا قيست بمعايير عصرنا ، ولكن هذا يتفق مع قوة أبدانهم وأرواحهم ، فهم من جميع الأعمار يشربون ويفرطون فى ممارسة الجنس إبان شبابهم . وكانت مدينة ارفورت عام ١٥٠١ فى نظرلوثر الورع لا تفضل ماخوراً أومشربا للجعة . ولقد وافق الحكام الألمان — من رجال الدين ومن العلمانيين على السواء على رأى سانت أوجستين والقديس توما الأكوينى بأنه يجب أن يسمح بالبغاء إذا كانت النساء بمنأى عن الإغراء أو الاغتصاب . وكانت بيوت البغاء تحصل على ترخيص وتفرض عليها ضريبة . وإنا لنقرأ عن أساقفة ستراسبورج وماينز الذين كانوا يحصلون على دخول من المواخير بل إن أسقف فيرتسبورج أعطى ماخوراً تابعاً للبلدية إلى جراف فون هينبرج باعتباره إقطاعية تدر دخلا . وكانت الضيافة لكبار الزوار تشمل وضع بيوت للسيدات تحت تصرفهم ، وقد كرم الملك سيجموند بهذا الامتياز فى برن (١٤١٤) وفى أولم (١٤٣٤) بإخلاص أرضاه كل الرضا حتى أنه شكر مضيفه علنا من أجله ، والنسوة غير المرخصات كن ينشئن أحياناً بيوتاً غير قانونية ، وفى عام ١٤٩٢ شكت البغايا المرخصات للعمدة من هذه المنافسة غير العادلة فحصلن عام ١٥٠٨ على إذن بمهاجمة البيوت غير القانونية وقمن

بذلك فعلا ، وكان التردد على بغى يقابل بالصفح باعتباره خطيئة مغتفرة ، وإن كانت طبيعية ، وذلك فى نظر القانون الأخلاقى السارى فى أوروبا فى أواخر العصور الوسطى ، ولعل انتشار الزهرى بعد عام ١٤٩٢ جعل منه وباء فتاكا .

وكان الزواج اتحادا بين الملكيات كما هو الشأن فى كل مكان آخر والحب يعد نتيجة طبيعية للزواج لا سبباً معقولا له . وكانت الخطبة ملزمة كالزواج والزفاف يتم فى حفــلات مترفة بين جميع الطبقات . وربما استمرت الاحتفالات أسبوعاً أو اثنين وكان شراء الزوج يكلف غاليا كالاحتفاظ بالزوجة . وكان للذكر نظرياً سلطة مطلقة ولكنها كانت أكثر واقعية فى الأفعال منها فى الكلام . ونلاحظ أن السيدة ديرر كان لديها كلام كثير تقوله لزوجها . وقد كانت نساء نورمبرج من الجرأة بحيث اجتذبن الإمبراطور ماكسمليان وهو نصف عار من الفراش وألقين غطاء حول جسمه ثم استقنه فى رقصة ليلية مرحة إلى الشارع .

وتذهب أسطورة قديمة إلى أن بعض الرجال من الطبقات العليا فى القرن الرابع عشر بألمانيا كانوا يضعون حزاماً للعفة « من الحديد حول وسط زوجاتهم وأفخاذهن ويغلقونه بقفل ويأخذون معهم المفتاح وذلك عند ما يسافرون فى رحلات يغيبون فيها طويلا عن الوطن . وثمة آثار لهذه العادة فى البندقية بالعصور الوسطى فى فرنسا وفى القرن السادس عشر وإن كانت الزوجة أو العشيقة تلبس الحزام طواعية وتعطى المفتاح للزوج أو العشيق ضمانا لإخلاصها للزوج أو العشيق .

وازدهرت حياة الأسرة . ويحصى سجل تاريخى بارفوت ثمانية أو عشرة أولاد لكل زوجين فى المعدل ولم تكن الأسرة التى تضم خمسة عشر ولدا بالنادرة ، وهذه الأعداد تشمل أبناء السفاح لأن الأطفال غير الشرعيين ، الذين كثروا كانوا يؤخذون عادة إلى بيت الوالد بعد زواجه . وشاع استخدام الألقاب فى القرن الخامس عشر وكثيراً ما أشارت

إلى مهنة السلف أو إلى موطنه الأصلى وإن كانت بين آن وآخر تجمد دعابة لحظة فى صراحة الزمن . وكان يراعى الضبط والحزم فى البيت وفى المدرسه ، بل ان ماكس الذى صار امبراطورا فيما بعد كثيراً ما تلقى الصفعات ، ويبدو أن هذا لم يسبب ضررا إلا للأب أو المدرس . وكانت البيوت الألمانية وقتذاك (١٥٠٠ م) أكثر البيوت راحة فى أوربا إذ كانت درجاتها متسعة ولها درابزين متين وفيها أثاث ضخم ومقاعد وثيرة وخزائن منحوتة ونوافذها من الزجاج الملون وأسرة لها كلة وجدرانها مطنفسة وأرضيتها مكسوة بالسجاد وفيها مواقد منبعجة ورفوف تزخر بكتب أو أزهار أو آلات موسيقية أو عليها طبق فضى ومطابخ تتألق بكل الأوعية الصالحة لإقامة مأدبة ألمانية .

وشيدت البيوت من الخارج فى معظمها من الخشب ، وكثيراً ما شبت فيها الحرائق ، وكانت الطنف المتدلية والشرفات تظلل الطرقات ، ولم يكن فى المدن الكبيرة إلا قليل من الطرقات المرصوفة ، ولم تعرف إنارة الشوارع إلا فى ليالى الأعياد وكانت الحياة خارج البيوت غير مأمونة بالليل . وكان صغار المجرمين ينافسون فى الكثرة الخنازير والبقر التى كانت تهيم فى الطريق على غير هدى . ولم تكن هناك شرطة نظاميون ، وكانت توقع عقوبات صارمة لردع الجريمة فقد كانت عقوبة السرقة الموت أو قطع الأذنين فى حالة السرقة الخفيفة . وكانت تقطع ألسنة الكفار والمجدفين أما المنفيون الذين يعودون إلى نومبرج دون مبرر شرعى فكانت تسمل عيونهم . وكانت النساء اللاتى يقتلن أزواجهن يدفن أحياء أو يعذبن بملاقط تسخن إلى درجة الاحمرار ثم يشنقن . ومن بين آلات التعذيب التى عرضت فيما مضى فى شلوس أو قلعة نورمبرج صناديق ممتلئة بأحجار مدببة يسحق بها جسد الضحية وتروس تمد بها أطرافها ومواقد لحرق كعوب أقدامها وإطارات مدببة من الحديد لتثنيها من الجلوس أو الاستلقاء أو النوم ثم العذراء

الحديدية الملعونة التى كانت تستقبل المحكوم عليه بذراعين من الصلب وتحيطه بهما فى حضن شائك ثم ترخى ذراعيها وتدعه يسقط دامى الجسد من أثر اختراق المسامير محطم العظام ليموت موتا بطيئا فى جب تدار فيه مدى وقضبان مدببة .

وساوت الأخلاق السياسية الأخلاق العامة فى انحلالها . فتفشت الرشوة وبلغت أقصاها فى قمة الكيان الاجتماعى ، وشاع الغش فى السلع وذلك على الرغم من دفن رجلين وهما على قيد الحياة فى نورمبرج لغشهما النبيذ (١٤٥٦) ، وكانت التجارة — التضحية بالأخلاق فى سبيل المال — قوية فى جميع الأعمار ، فالمال لا الإنسان هو مقياس كل شىء ، ومع ذلك فإن هؤلاء الأوساط المتزاحمين المتدافعين من المواطنين تبرعوا بمبالغ كبيرة على سبيل الإحسان . وكتب لوثر : « فى العهود البابوية كان الناس يتبرعون بكلتا اليدين فى جذل وبولاء عظيم . كانت السماء تمطر صدقات وإنشاءات وهبات . كان أجدادنا من السادة والملوك ومن الأمراء وغيرهم من الشعب ، يتبرعون بسخاء ، أجل ، إلى درجة تغمر كل شىء ، للكنائس والأبرشيات والمنح الدراسية والمستشفيات ، ومن دلالات هذا العهد الدنيوى أن كثيراً من تركات المحسنين أوقفت » لا على الهيئات الدينية فحسب » ولكن على مجالس المدن لتوزيعها على الفقراء .

وأصبحت الاخلاق أشد جفاء فى فرنسا وإنجلترا وفى ألمانيا أيضا عند ما خلفت حكومة السراة بالمال حكومة الأرستقراطية بالميلاد فى السيطرة على الاقتصاد . وكان السكر رذيلة وطنية وقد ندد به كل من لوثر وهوتن على الرغم من أن هوتن فضله على « مخاتلة الإيطاليين وسرقة الأسبان وزهو الفرنسيين » ولعل بعض الانغماس فى الشراب يرجع إلى التوابل الحريفة التى استخدمت فى إعداد وجبات الطعام . ولقــد أعوز

التهذيب آداب المائدة ووصلت « الشوك » إلى ألمانيا فى القرن الرابع عشر ومع ذلك فقد آثر الرجال والنساء أن يستخدموا أصابعهم فى تناول الطعام . بل ان واعظا فى القرن السادس عشر أدان « الشوك » باعتبارها مخالفة لإرادة الله « الذى لو كان يريد منا أن نستخدم الشوك لما منحنا أصابع » .

وكان اللباس فخما ، أما العمال فكانوا يكتفون بارتداء قلنسوة أو قبعة من اللباد وقمصان قصيرة وسراويل متداخلة — أو تحشر فى أحذية طويلة الرقبة ، وكانت الطبقات الوسطى تضيف إلى هذه الملابس صديرية وسترة مفتوحة مبطنة أو تزين حوافها بالفراء . وكان ذوو الأنساب يدخلون فى منافسة محمومة مع جامعى الجلدرات فى روعة ثيابهم . وكانت قبعات الرجال عند هاتين الطبقتين عبارة عن لفائف معقدة متسعة من القماش الثمين تزين حافاتها أحيانا بالريش أو الشرائط أو اللآلئ أو الذهب ، أما القمصان فكانت من الحرير غالبا ، كما كانت الأثواب الخارجية الزاهية تبطن بالفراء وربما تخللتها خيوط من الفضة . وكانت الثريات من النساء يضعن على رؤوسهن تيجانا من الذهب أو قلانس مطرزة بالذهب ويضفرن شعورهن بخيط ذهبى ، وأما العذارى الخفيرات فكن يغطين رؤوسهن بمناديل من الموسلين يربطنها تحت الذقن .

وقد زعم جايلر فون كايزرسبرج أن النساء الأنيقات كن يمتلكن خزائن للملابس تقدر بنحو ٤٠٠٠ فلورين (١٠٠٫٠٠٠ دولار؟) وكان الرجال يحلقون ذقونهم ويعنون بشعر رؤوسهم ويعنون بتعهد ضفائرهم . لاحظ خصلات شعر ديرر التى كانت موضع اعتزازه وخصائل شعر ماكسمليان الجميلة . واتخذت الخواتم شعارا على الطبقة الاجتماعية أو للتخييل بالانتماء إليها كما هو الحال الآن ، وقد قال كونرادوس سيلتس ان الأزياء تغيرت فى ألمانيا بسرعة أكبر منها فى أى مكان آخر ، وحدث هذا كثيراً

فى أزياء الرجاء وفى أزياء النساء . وربما فاق الرجال النساء فى فخامة الزى فى مناسبات الأعياد .

وكانت المهرجانات متعددة وهى استمرار لروح القرون الوسطى المولعة بالتظاهر وعرض المرح مع تأجيل العمل والتحلل من الوصايا العشر . وكان عيد الميلاد لا يزال يتسم بالمسيحية على الرغم ممـــا صاحبه من الآثار الوثنية . وأما شجرة عيد الميلاد فإنها ابتدعت فى القرن السابع عشر .

وكانت كل مدينة تحتفل بمهرجان أو عيد لقديسها الحامى لها وكان الرجال والنساء يرقصون معا فى الشوارع ويسود المرح الجميع وكأنه أمر محتوم ، ولا يمكن لأى قديس أو واعظ أن يقلل من بهجة العربدة العنيفة . وكان الرقص يتحول أحيانا إلى جنون وبائى كما حدث فى متيز وكولونيا واكس عام ١٣٧٤ أو فى ستراسبورج عام ١٤١٢ . كان بعض من يعانون من رقصة سانت فيتوس فى بعض هذه الحالات يلتمسون الشفاء من كانوا يعتقدون أنه مس شيطانى وذلك بالرقص حتى يسقطوا من الإعياء كما يفعل بعض الشبان المتهوسين اليوم . ووجد الرجال متنفسا لغرائزهم فى الصيد والقنص أو فى ممارسة رياضة المبارزة القاتلة . وكان آلاف الرجال والنساء يسافرون متذرعين غالبا بحجة التردد على مزار وينتقلون فى ابتهاج أليم على صهوة الجياد أو على ظهور البغال أو فى عربات أو على مقاعد تحمل على الأكتاف ويتحملون مشاق الطرق غير الممهدة والخانات القذرة . وكان بعض الأشخاص المرهفى الحس يسافرون كلما أمكنهم ذلك ، بالقارب على صفحة نهر الراين ونهر الدانوب أو على غيرهما من مجارى الماء فى وسط أوروبا . وما إن حل عام ١٥٠٠ حتى كانت هناك خدمة بريدية متاحة للجميع تربط المدن الكبرى .

والكل معا فى الصورة رحل واحد من شعب قوى ناشط سعيد

لا يرضى بعد ذلك أن يرسف فى أغلال الإقطاع أو ظلم روما . وقد غلب بالاعتزاز بالقومية الألمانية كل انقسام سياسى ، وكبح جماح الأباطرة الذين رأوا أنفسهم فوق الوطن ، والبابوات الذين اعتقدوا أنهم فوق الطبيعة ، وهكذا قدر للإصلاح الدينى أن ينتصر على الإمبراطورية الرومانية المقدسة وعلى البابوية أيضا . وفى عام ١٥٠٠ نشبت الحرب بين التيوتون والرومان وكان النصر مرة أخرى حليف ألمانيا كما حدث فى القرن الخامس من قبل .

٤ — نضج الفن الألمانى

وقدوم هذا العهد الجديد إنما يتجلى مظاهره فى الفن . وربما كان من العسير علينا أن نصدق هذه الحقيقة . ولكن الشىء الذى لا شك فيه هو أن الطلب كان يتزايد على الفنانين الألمان فى أوربا بسبب تفوقهم فى كل فن حرفى ، فى أشغال الخشب والحديد والنحاس والبرونز والفضة والذهب والحفر والتصوير والنحت والعمارة ، وذلك فى أوج عصر النهضة الإيطالية من مولد ليوناردو (١٤٥٢) إلى وفاة رافاييل (١٥٢٠) . ولعل فيليبج فابرى الأولمى قد كتب عام ١٤٨٤ بدافع الوطنية أكثر منه بدافع عدم التحيز وها هو يقول : « عندما يريد أى امرئ أن يحصل على قطعة مصنعة من الدرجة الأولى من البرونز أو الحجر أو الخشب فإنه إنما يستخدم حرفياً ألمانيا . لقد رأيت صانعى مجوهرات وصاغة وقاطعى أحجار وصانعى عربات من الألمان وهم ينتجون آثارا رائعة بين الغزاة المسلمين بل إنهم فاقوا اليونان وبزوا الإيطاليين فى الفن . وبعد نحو خمسين عاما اكتشف إيطالى آخر أن هذا لا يزال صحيحاً فقد كتب پاولو جيوفو : « إن الألمان يكتسحون أمامهم كل شىء فى الفن ولا يسعنا نحن الإيطاليين الخاملين إلا أن نبعث لألمانيا فى طلب عمال مهرة » . واشتغل المهندسون المعماريون الألمان لحساب

فلورنسا وأسيسى وأورفييقو وسيينا وبرشلونة وبورجوس واستدعاهم ذوو الشأن لإتمام « القبة » فى كاتدرائية ميلان . وقد خلب فايت ستوس ألباب الأهلين فى مدينة كراكاو ، وحظى ديرر بتكريم البندقية ، واكتسح هولبين الصغير انجلترا .

وبلغت العمارة الكنسية أوجها فى القرنين الثالث عشر والخامس عشر . ومع ذلك فإن أبناء جيل واحد من المواطنين فى ميونخ شيدوا على الطراز القوطى الأخير ، كنيسة سيدتنا وقاعة المدينة القديمة « أولدتاون » . وفى العقدين الأولين من القرن السادس عشر أتمت فرايبورج فى ساكسونيا (منصة جوقة الترتيل) وشيدت أوجسبرج بيعة آل فوجر ، وانتهت كاتدرائية ستراسبورج من بناء بيعة لورانس ، وأضيفت مشربية جميلة إلى مقر كاهن الأبرشية فى كنيسة سيبالدوسكيرس فى نورمبرج . وفى مجال عمارة البيوت فى هذا العهد شيدت أكواخ جذابة بأسقفها من القرميد الأحمر ، وطبقاتها العليا مصنوعة من الخشب ، وشرفاتها تجملها الأزهار وطنف رحبة تحمى النوافذ من الشمس أو الجليد . وهكذا واجه الألمان ، بما عرف عنهم من إقدام ، ارتفاع جبال الألب البافارية فى مناخ ميتنفالد الصعب بجمال بيوتهم البسيط الحبيب .

وكان النحت من أمجاد هذا العصر . فازداد عدد صغار النحاتين ، وكان من الممكن أن يلمعوا ويصبحوا نجوماً كبيرة لو قدر لهم أن يكونوا فى مجرة أقل إشراقاً : نيكولاوس جيرهارت وسيمون لاينبرجر وتيلمان ريمنشنيدر وهانز باكوفن ، وها هى نورمبرج وحدها تنجب فى جيل واحد ثالوثا من الأساتذة لا يكاد يبزهم أحد فى عهد مماثل بأية مدينة فى إيطاليا . ولا شك أن حياة فايت ستوس تصلح أن تكون قصة مدينتين ؛ فقد تربى فى نورمبرج ، وحاز قصب الشهرة كمهندس وبان للجسور ومعمارى وحفار ونحات ومصور ، وعند ما بلغ الثلاثين من عمره ذهب إلى كراكاو وقام هناك بأحسن أعمال على الطراز القوطى الأخير المشع الذى عبر به عن ورع البولنديين وقابليتهم

للإثارة فى الوقت نفسه . وعاد إلى نورمبرج (١٤٩٦) ومعه ما يكفى من الأموال لشراء بيت جديد ولعقد قرانه على زوجة ثانية ، وقد أنجبت منه خمسة أطفال أضافتهم إلى أولاده الثمانية من زوجته السابقة . . . واعتقل فيت وهو فى أوج مجده لأنه شارك ، وربما كان هذا عن غير قصد ، فى عملية تزييف ، ودمغ بإحراق خديه معا وحرم عليــه أن يغادر نورمبرج مرة أخرى ، غير أن الإمبراطور ماكسمليان عفا عنه وأعاد له حقوقه المدنية (١٥٠٦) ومع ذلك فإن ستوس ظل منبوذاً من المجتمع إلى أن انتهت حياته الطويلة المؤلمة . وفى عام ١٥١٧ حفر مجموعة كبيرة من الأعمال تمثل بشارة التحية الملائكية ، وأحاط تمثالين — يعدان من أعظم أعمال النحت الخشبى وأقربها إلى الكمال — بإكليل من الورود وأحاط هذا بسبحة ألحق بها سبع رصيعات كبيرة تصور أفراح العذراء وتوج الجميع ، وهى كلها من خشب شجر الزيزفون ، برسم غير جذاب للرب لورنز . وهو لا يزال يتدلى منها كأثر نفيس من مخلفات الأيام السعيدة فى المدينة الكبيرة . وحفر ستوس لكنيسة سيبالدسكريش صليباً من الخشب لا يضارعه أبداً صليب آخر من نوعه (١٥٢٠) . وفى هذا العام حصل له ابنه أندرياس ، بصفته رئيس دير رهبان الكارميليت بنورمبرج ، على أتعاب مقابل تصميم مذبح لكنيسة فى بامبرج . وبينما كان الفنان منهمكاً فى هذا العمل استولى أنصار الإصلاح الدينى على نورمبرج واستبدل بأندرياس راهب آخر لأنه ظل كاثوليكيا . وتشبث فيت نفسه بالعقيدة النيرة التى استلهمها فى فنه . وتوقف دفع أتعابه عن عملية المذبح وظل العمل ناقصاً . وأمضى ستوس السنوات العشرة الأخيرة من حياته كفيفاً يعتزل الناس وهو كظيم . فقد ماتت قبله زوجتاه وهجره أولاده ، ونبذه الناس فى عصر استغرقتهم فيه دراسة اللاهوت ، ولم يدركوا أنهم إنما كانوا يفقدون عام ١٥٣٣ أعظم حفار على الخشب فى التاريخ وهو فى الثالثة والتسعين .

وعاش فى نفس المدينة وفى هذا العهد فنان فى اشغال البرونز مبرز أيضاً فى أسلوبه وإن كان قد عاش حياة هادئة هانئة . وقد صور بيتر فيشر الأكبر نفسه فى كوة بجدار ، وتعد هذه الصورة من أشهر إنتاجه ، ونراه بها عاملا بسيطاً جادا قصير القامة مكتنز الجسم ، ذالحية كاملة يرتدى مئزراً جلدياً حول وسطه ويمسك بيديه مطرقة وأزميلا . وقد كرس هو وخمســة من أبنائه أحد عشر عاماً (١٥٠٨ — ١٥١٩) لإتمام رائعتهم مقبرة زيبالد ، القديس الحامى لنورمبرج . وتكلف المشروع كثيراً ونفذت الأموال المخصصة له ، ومع ذلك لم يتم إنجاز العمل . وعندئذ حث أنتون توخر المواطنين على الاكتتاب فى مبلغ ٨٠٠ جيلدر (٢٠٠٠٠ دولار؟) كان يحتاجه للمشروع . وهذه الرائعة لا تثير الإعجاب لأول نظرة ، ويبدو أنها لا تضارع هيكل أوركانيا فى فلورنسا (١٣٤٨) ، ثم إن الحلزونات والدلفينات ، التى يرتكز على ظهورها البناء ، ليست على الأرجح حاملات لمثل هذا الثقل الهائل ، إلا أن فحصها عن قرب يكشف عن كمال مذهل فى أجزاء البناء . والتابوت الرئيسى المصنوع من الفضة مزين بأربع رسوم بارزة تمثل معجزات القديس . وترتفع حوله الأعمــدة البرونزية لظلة من الطراز القوطى ، عليها نقش دقيق من زخارف عصر النهضة ، وتتصل من أعلى بعقد معدنى جميل على الأعمدة ، حول القاعدة ، وفى الطنف ، وفى كوات الظلات العليا صور الفنانون سكانا حقيقيين من الوثنيين ، وتماثيل لعبريين أو مسيحيين — تريتونات (آلهة البحر) وقنطروسات ونيريدات (حوريات البحر) ، وسيرانات وموزيات والفاونات وهرقل وتيزيوس وشمشون والأنبياء وعيسى والرسل وملائكة يعزفون ألحاناً أو يلهون مع أسود أو كلاب ، وبعض هــذه التماثيل لا يزال فى صورة بدائية ، وكثير منها تم نحته بدقة دوناتيلو أو غيبرتى ، وهى كلها تسهم بوضوح فى إدراك متنوع للحياة . وتضارع

تماثيل بطرس وبولس ومتى ويوحنا لوحة (الرسل الأربعة) التى صورها ديرر بعد سبع سنوات فى نورمبرج نفسها .

ويقال إنه لم يأت إلى نورمبرج فى هذه العقود الأولى من القرن السادس عشر أمير أو حاكم إلا وزار مسبك بيتر فيشر . وقد ألح الكثيرون فى طلب أعماله الفنية . وعرض عدد كبير من الكنائس أعماله من الشمعدان النحاسى الكبير فى كنيسة لونز وقبر ماكسمليان الأول فى أنزبروك . وحذا أولاده الخمسة حذوه فى النحت وإن كان اثنان منهم قد وافتهما المنية قبله . ومعروف أن هرمان فيشر الأصغر الذى مات فى الحادية والثلاثين من عمره (١٥١٧) قد سبك زخرفاً بارزاً جميلا من البرونز لمقـبرة الكردينال كازيمير فى كاتدرائية كراكاو .

وكما تفوق آل فيشر فى أشغال البرونز وفيت ستوس فى أعمال الخشب فإن آدم كرافت بز كل معاصريه فى النحت على الحجر . وقد صـوره المؤرخون الألمان هو وبيتر فيشر الأكبر وسباستيان ليندبناست (الذى صمم تماثيل الأمراء المتملقين على ساعة كنيسة العذراء) فى صورة فنانين وأصدقاء أوفياء ، « كانوا مثل الإخوة . كانوا يلتقون كل يوم جمعة ، حتى عندما بلغوا من الكبر عتياً ، ويدرسون معاً كأنهم صبية يتمرنون حسبما تدل عليه التصميمات التى نفذوها فى اجتماعاتهم . ثم كانوا يفترقون وقد ألهاهم العمل عن تناول الطعام أو الشراب » . ولعل آدم ولد فى نفس العام الذى ولد فيه بيتر (١٤٦٠ ؟) وكان مثله فى البساطة والأمانة والورع والشغف برسم صورته الشخصية . ونحت عام ١٤٩٢ لكنيسة زيبالدوس مقبرة لزيبالدوس شرييار عليها نقوش بارزة تمثل آلام المسيح عند الصلب والبعث وأعجب هانز رامهوف ، وهو تاجر ثرى بهذه البراعة فعهد إلى كرافت أن يصمم كأساً يحمل خبز ونبيذ القربان المقدس فى كنيسة لورنتس

وقام آدم بصنع بيت القربان المقدس على هيئة هيكل رشيق عال من الطراز القوطى الأخير ويعد معجزة فى الصياغة الدقيقة للحجر يرتفع طبقة بعد طبقة حتى يبلغ ارتفاعه أربعة وستين قدماً ، ويستدق ليصبح قوساً يشبه رأس صولجان الأسقف ، وتنبض الأعمدة بالحياة إذ تزخر برسوم القديسين ، أما أبواب « البيت » فتحرسها الملائكة ، وأما الأوجه المربعة فقد نقش عليها رسوم بارزة تمثل مناظر من حياة المسيح ، ويرتكز البناء الطلق الهواء كله بطريقة غريبة على ثلاثة تماثيل جاثية — آدم كرافت واثنان من مساعديه . وليس فى الصورة الشخصية أى أثر للتملق ، فالملابس بالية ومهلهلة من أثر الكد والنصب ، والأيدى خشنة واللحية كثة والوجه العريض المرفوع إلى أعلا منكب على تصور العمل وتنفيذه . وعندما انتهت هذه الرائعة التى تأخذ بالألباب عاد كرافت إلى موضوعه الأثير فنحت سبع أعمدة من الحجر الرملى عليها مناظر تمثل آلام المسيح عند الصلب منها ستة موجودة الآن بالمتحف الألمانى وأحدها واسمها « الدفن » تمثل الفن التيوتونى الأنموذجى وتمتاز بواقعية جريئة لا تحتاج إلى استكمال وتنطوى على الورع والإيمان .

واستمرت الفنون الصغرى فى انتهاج نفس الصنع وطرق نفس الموضوعات وكان رسامو المنمنمات لا يزالون تنهال عليهم الطلبات للحفاظ على الطوائف الحرفية الناجحة . ورسم كبار الفنانين أمثال ديرر وهولبين تصميمات للزجاج الملون وليس من شك فى أن هذا الفن الذى تدهور فى فرنسا وانجلترا وصل آنذاك إلى ذروة الإتقان فى ألمانيا . وفى هذه الفترة حصلت كنيسة لونز وكاتدرائيات أولم وكولونيا على نوافذ لها شهرة عالمية ، ولم تكن هذه النوافذ مقصورة على الكنائس ، فقد كان فى دور النقابات الحرفية والقلاع بل وفى البيوت الخاصة بعض نوافذ من الزجاج الملون . وكانت المدن من أمثال نورمبرج وأوجسبورج وريجينزبورج وكولونيا وماينز تفخر بصناعها المهرة الفنانين : وهم صانعو الأدوات المعدنية الذين

رفعوا من شأن المشاعل والثريات والصحاف والجرار والأقفال والصوانى والصاغة الذين لقيت منتجاتهم ، من الملاعق إلى الهياكل ، تقديراً عظيماً فى أرجاء أوربا ، وعمال النسيج الذين نسجوا الطنافس والسجاجيد والثياب الكهنوتية والرداء المنمق لطبقة الأشراف ، والنساء المتعبدات ، وكن يبلين أناملهن ويرهقن عيونهن لكسوة الهياكل والقسس بالمطرزات والحرير . ولم يكن الحفارون قط فى أى عهد مضى أحسن حالا منهم فى هذا العهد ، فإن ميكائيل فوبلجيموت قد حفر من الخشب اثنى عشر محراباً من أروع الأعمال ، إلى جانب الرسم على نافذتين بديعتين لكنيسة لورنتس ، ثم علم ديرر كيف يفوقه فى هذا الفن .

وتطور فن الحفر بنقش رسم على الخشب أو النحاس فى القرن الخامس عشر حتى أصبح فناً ناضجاً يجله الناس تماماً كالتصوير . وهذبه كبار المصورين ووصل به مارتن شونجاور إلى درجة الكمال . وبعض أعماله فى الحفر — تعذيب المسيح وحمل الصليب والقديس جون فى ياتموس واغواء القديس أنتونى ، تعد من أعظم الأعمال الفنية فى كافة العهود .

وأصبح الفن الإيضاحى فى الكتب بوساطة النقوش مناسبا وشائعا وسرعان ما حل محل الزخرف وتضاعف عدد أشهر اللوحات فى هذا العهد بأعمال الحفر التى كانت تباع فى أكشاك فى المكتبات والأسواق والمهرجانات ، وأظهر لوكاس فان ليدن نبوغا مبكرا مذهلا فى هذا المجال . فقد حفر لوحته « محمد » وهو فى الرابعة عشرة من عمره ولوحته « المسيح وعلى رأسه إكليل الشوك » وهو فى السادسة عشرة من عمره (١٥١٠) وقارب الكمال فى صورة ماكسمليان التى نقشها على النحاس واستخدم الحفر الإبرى وذلك بآلة مدببة تقذف شظية أو حافة من المعدن المقتطع بطول خطوط الرسم ، فى صورة « سيد كتاب البيت » التى نقشها فنان مجهول حوالى عام

١٤٨٠ . أما الحفر بتغطية سطح معدنى بالشمع ونقش رسم بالحفر فى الشمع وصب حامض لينخر فى الخطوط البارزة فإنه تطور من النقش على السلاح إلى الحفر على ألواح معدنية يمكن أن تطبع بها النقوش ، ويبدو أن دانييل هوبفر وهو صانع سلاح قام بصنع أول « كايشيه » سجله التاريخ عام ١٥٠٤ ومارس بورجكماير وديرر الفن الجديد فى غير إتقان . ولعل لوكاس فان ليدن قد تعلم هذا الفن من ديرر غير أنه سرعان ما فاقه وملك ناصيته .

وكان هذا العصر أعظم عصور ألمانيا فى التصوير . وقد تأثر المصورون الألمان فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر بالمدرستين الهولندية والإيطالية كما تأثروا بمصورهم مملنج المبعد عن وطنه فتدرجوا من صرامة الفن القوطى وفظاظته إلى خط يتسم بمزيد من الرشاقة ، ورسم صور تتحرك فى يسر فى مناظر طبيعية تعكس الحياة المنزلية للبورجوازية الظافرة ؛ وظلت الموضوعات الدينية هى الغالبة ، وإن كانت الموضوعات الدنيوية قد أخذت تزحف قدما وأخلت النقوش الهيكلية الطريق للصور المرسومة على الخشب ولم يعد المحسنون الأثرياء يقنعون بالسير فى ركاب جماعة دينية ، فطلبوا أن ترسم لهم صور شخصية هم فيها كل شىء . وبرز المصورون أنفسهم من حالة إغفال الأسماء فى العصور الوسطى إلى الفرديات المتميزة ، وأخذوا يوقعون بإمضاءاتهم على أعمالهم تشبثا بالخلود .

ومع ذلك فإن صاحب لوحة « حياة العذراء » التى رسمت فى كولونيا حوالى عام ١٤٧٠ لايزال مجهولا ، وقد ترك هذا الفنان لوحة « العذراء والقديس برنار » ورسم فيها عذراء ألمانية حقيقية تعتصر من ثديها اللبن الطفل ، أمام راهب ورع لايكاد يومئ إلى كلب السماء الذى طارد ابيلارد .

ويعد ميكائيل باشير واحدا من أوائل الفنانين الذين نقلوا أسماءهم كما نقلوا أعمالهم . ولا تزال كنيسة سانت ولفجانج الأبرشية فى سالتسكا مرجوت

تعرض النقش الهيكلي الضخم الذى يبلغ طوله ستة وثلاثين قدما والذى حفره وصوره لها فى السنوات من ١٤٧٩ إلى ١٤٨١ وقد أسهمت دراسة المنظور فى هذه الصور المرسومة على الخشب وفى تعليم الفن الألمانى .

وأظهر مارتن شونجاور فى تصويره حذق حفار مثقف وحس روجير فان دير فيدن المرهف . وقد ولد شونجاور عام ١٤٤٥ فى أوجسبورج واستقر فى كولمار وطور هناك مدرسة للحفر والتصوير لعبت دوراً عظيما فى بلوغ الفنون إلى الأوج فى عهد ديرر وهولبين .

وفى كل عام كانت المدن النامية فى الجنوب تسلب زعامة الفن الألمانى من كولونيا والشمال . وفى أوجسبورج ، مركز التجارة مع إيطاليا ، أدخل هانز بورجكماير فى لوحاته لمسات زخرفية إيطالية ومزج هانز هولبين الأكبر الزخرف الإيطالى برصانة الطراز القوطى . وخلف هانز فنه لولديه أمبروز وهانز اللذين صورهما باعتزاز فى لوحاته . ولم يلمع اسم امبروز فى التاريخ ولكن هانز الصغير أصبح أحد أمجاد ألمانيا وسويسرة وإنجلترا ، وكان أعظم سلف لديرر هو ماتياس جوتهارت نايهارت الذى أصبح معروفا للخلف باسم ماتياس جرونيفالد بسبب خطأ ارتكبه أحد الباحثين . وقد تعلم سحر المصور من شونجاور فى كولمار وذلك فى مجال الوراثة الاجتماعية القديمة جدا للفن . ثم أضاف إليها تعطشه للشهرة والوصول إلى الكمال وتدرب فى أناة فى غنت وشبيار وفرانكفورت واختار ستراسبورج موطنا له (١٤٧٩) . ولعله رسم هناك أول رائعة له وهى صورة شخصية ثنائية لفيليب الثانى صاحب هانو — ايختنبرج وزوجته . والحق أن ديرر نفسه لايستطيع أن يبزها لما يتجلى فى هذه اللوحة من إدراك عميق وجمال فى التنفيذ . وعاد جرونيفالد للتجوال من جديد وعمل بعض الوقت مع ديرر فى بازل حيث رسم « صورة رجل » المعروضة الآن فى نيويورك ثم قام

مرة أخرى بأعمال حفر فى الخشب مع ديرر فى نورمبرج . واستقر عام ١٥٠٣ فى زليجنشتادت وهناك طور فى نهاية الأمر أسلوبه المتميز الناضج — رسم مناظر من الإنجيل بإحساس مرهف ومقدرة هائلة . وعينه كبير الأساقفة ألبرخت مصورا للبلاط فى ماينز (١٥٠٩) ولكنه عزل جرونيفالد عندما أصر على الثناء على لوثر (١٥٢٦) . وتزوج وصادفه سوء الطالع ثم انسحب وعاش فى عزلة تقبض الصدر لعلها ألقت بعض الظلال السوداء على التظليل فى فنه .

ومن أروع أعماله — وربما كان أعظم أعمال التصوير الألمانى — الهيكل المتعدد الثنيات الذى أعده لدير فى ايزن عام ١٥١٣ ويعرض اللوح الأوسط العذراء وابنها بلون ذهبى يشع بالضـياء على طريقة الفنان تورنر ، على مهاد من البحار النائية ، ولكن اللوح البارز الذى لا ينسى رسمت عليـه صورة بشعة لصلب المسيح : تمثله وهو فى النزع الأخير وقد غطت جسده الجروح والعرق الممتزج بالدم ، وأطرافه تتلوى من الألم ، ومريم مغشى عليها بين ذراعى القديس يوحنا ، وماجدالين تتميز غضباً ويرتسم على أساريرها حزن مريب ، ولا تزال هناك ألواح أخرى يمكن أن تكون فى ذاتها لوحات عظيمة : جوقة من الملائكة بأسلوب قوطى فى البناء المعمارى تتداخل فيه الألوان الحمراء والبنية الزاهية ، ولوحة مرعبة اسمها « إغواء القديس أنتونى » وصورة للقديس نفسه ، وناسك فى غابة تزخر بالأرواح الشريرة والأشجار التالفة ، وكابوس بوشى يبدو أنه يرمز إلى أحلام أنتونى . وفى غلبة اللون والضوء والإحساس بالخط والشكل والتصور فإن هذه السورة المسرحية فى المقدرة التصويرية هى ذروة التصوير الألمانى القوطى قبيل انتصار الخط والمنطق فى فن ديرر الذى مد يديه فى اشتياق إلى إنسانية وفن عصر النهضة الإيطالى على الرغم من تشبثه بصوفية ألمانيا فى العصور الوسطى .

٥ – ألبرخت ديرر (١٤٧١ – ١٥١٧)

لم يسبق لأمة أخرى غير ألمانيا أن اختارت بالإجماع أحد أبنائها ليكون ممثلا لها فى الفن — فقد وقع اختيار البروتستانت والكاثوليك وأهل الشمال وأهل الجنوب على الفنان ديرر . وفى اليوم السادس من أبريل عام ١٩٢٨ ، وبمناسبة الذكرى السنوية الأربعمائة لوفاته طرح الريخستاج فى برلين ومجلس المدينة فى نورمبرج الأمور السياسية والمذهبية جانباً ، وذلك لتكريم فنان تحبه ألمانيا أكثر من أى فنان آخر . وفى غضون ذلك عرض خبراء الفنون دون طائل مبلغ ١٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار لشراء لوحة — اسمها « عيد أكاليل الورد » ، وهى لوحة تقاضى عنها ديرر مبلغ ١١٠ جيلدر (٢٫٧٥٠ دولار ؟) .

وكان والده الهنغارى صائغا استقر به المقام فى نورمبرج : وكان ألبرخت الابن الثالث من ثمانية عشر ولدا مات معظمهم فى سن الطفولة وتعلم الولد فى مرسم أبيه كيف يرسم بالقلم الرصاص والفحم والريشة وكيف يحفر بالنقاش ، ودرب نفسه على قوة الملاحظة وتمثيل الأشياء والموضوعات بتفصيل لا يعرف الكلل ، حتى إن كل شعرة تقريباً فى بعض لوحاته تبدو وكأنها تلقت ضربة خاصة بها وحدها من الفرشاة . وكان الوالد يأمل أن يخلفه ابنه فى حرفته كصائغ إلا أنه أذعن لرغبة الشاب فى أن يتوسع فى نطاق فنه . فأرسله إلى فولجيموت ليتمرن هناك (١٤٨٦) وتدرج ألبرخت فى عمله ببطء ومكنت له عبقريته فى الطموح والمثابرة والصبر . وقال : « لقد حبانى الله بفضيلة الجد فحسن تعليمى ولكنى اضطررت أن أتجاوز عن قدر كبير من الإزعاج الذى سببه لى أعوانه » ونظراً لأنه لم تسنح له فرصة كبيرة لدراسة الجسم العارى فإنه تردد على الحمامات العامة ورسم أجساماً فى جمال أبولو وذلك بقدر ما سمحت له الظروف هناك . وكان هو نفسه يحاكى

أبولو بعض الشىء فى تلك السنوات . وقد وصفه احد أصدقائه فى اعتزا بقوله : له جسم رائع متين البناء معتدل القوام جدير بما يحمله من عقل نبيل . . . وجه ذكى الملامح وعينان تلمعان وجيد طويل وصدر عريض وخصر نحيل ومنكبان قويان وساقان ثابتتان ، أما يداه فنى وسعك أن تقول إنك لم تر قط يدين تبزهما فى الرشاقة . أما حديثه فعذب شائق حتى ليتمنى المرء ألا ينتهى أبدا .

واجتذبته أعمال الحفر التى قام بها شونجاور فاتخذ طريقه إلى كولمار (١٤٩٢) وإذا به يجد الأستاذ قد مات فتعلم قدر المستطاع من إخوة شونجاور ثم رحل إلى بازل حيث تعلم من جرونيفالد أسرار الفن الدينى الخالص وكان قد أصبح رساماً بارعاً . وتحمل طبعة من رسائل سان جيروم نشرت فى بازل عام ١٤٩٢ على صفحتها الأولى صورة شخصية للقديس رسمها ديرر ، ونالت هذه الصورة استحسان النقاد حتى تنافس ناشرون عديدون للحصول على أعماله المستقبلة . ومهما يكن من أمر فإن أباه حثه على العودة للوطن ليتزوج من الفتاة التى اختارها له إبان غيابه . وعاد إلى نورمبرج واستقر هناك وعاش مع زوجته أجنس فراى (١٤٩٤) .

وقد رسم نفسه قبل ذلك بعام فى صورة شاب يرتدى زياً يكاد يكون زى امرأة ويصفف شعره مثلها تقريبا ، معتزا بنفسه وخجولا فى الوقت ذاته يرتاب فى العالم ويتحداه ، وفى عام ١٤٩٨ وكان لا يزال معجباً بوسامته ولحيته أيضاً رسم لنفسه صورة شخصية فى زى نبيل شاب يرتدى ملابس فاخرة وعلى رأسه قلنسوة لها شرابة تبرز منها خصل طويلة من الشعر البنى ، وتعد هذه اللوحة من أعظم الصور الشخصية التى رسمها فنان لنفسه فى جميع العصور . ورسم نفسه مرة أخرى عام ١٥٠٠ فى ملابس أكثر بساطة والوجه مستطيل بين خصل غزيرة من الشعر تتهدل فوق الكتفين ، وفى العينين النافذتين بريق غامض ويبدو أن ديرر رسم نفسه هنا فى صورة خيالية تشبه صورة

المسيح لا عن زهو يتسم بالزندقة ولكن لأن له رأياً يردده كثيرا كأمر مسلم به وهو أن أى فنان عظيم هو الناطق بلسان الله وبوحى منه تعالى . وكان الغرور هو الدعامة التى يستند إليها فى عمله ، إذ أنه لم يضاعف من عدد صوره الشخصية فحسب ، ولكنه أفسح لنفسه أيضاً مكاناً فى كثير من لوحاته . وكان فى بعض الأوقات يتمسك بأهداب التواضع ويدرك فى أسى أن قدراته محدودة ، وقال لبيركهايمر « عندما يثنى علينا فإننا نشمخ بأنوفنا ونصدق كل ما قيل عنا ولكن من يدرى ؟ لعل أستاذا ساخرا يضحك علينا من وراء ظهورنا » . أما بالنسبة لغير هذا فقد كان سليم الطوية ورعاً مخلصاً كريماً سعيدا بقدر ما تسمح الظروف .

ولم يستطع أن يعيش مسلوب اللب مع زوجته . فقد انطلق إلى إيطاليا بعد زواجه بوقت قصير وخلفها وراءه . وكان قد سمع عما يطلق عليه « النمو الجديد » للفنون فى إيطاليا بعد أن ظلت دفينة ألف عام . وعلى الرغم من أنه لم يسهم مطلقاً فى هذا البعث للأدب الكلاسى والفلسفة والفن التى واكبت عصر النهضة فإنه كان تواقاً لأن يرى من المصدر الأصلى مباشرة ما الذى حبا الإيطاليين بهذا التفوق فى الرسم والنحت والنثر والشعر . وأقام بصفة أساسية فى البندقية ولم تكن النهضة قد بلغت فيها أوج الازدهار ولكنه عند ما عاد إلى نورمبرج (١٤٩٥) كان قد تلقى بوسيلة ما الحافز الذى أضفى شرارة طاقة الإنتاج السريعة فى خلال السنوات العشر التالية . وفى عام ١٥٠٧ ذهب إلى إيطاليا مرة أخرى بعد أن اقترض مبلغ مائة فلورين (٢٥٠٠ دولار ؟) من بيركهايمر وأقام فيها هذه المرة عاماً ونصف عام .

ودرس أعمال مانتيا وسكوارسيونى فى بادو ونسخ فى تواضع بعض الرسوم وسرعان ما اعترف به بلينى وفنانون آخرون من البندقية رساما بارعا ونالت لوحة « عين أكاليل الورد » ، التى رسمها لكنيسة ألمانية ، الاستحسان حتى من الإيطاليين ، وكانوا لا يزالون يعدون معظم الألمان

برابرة . وعرض عليه سيد البندقية منصبا دائماً إذا أقام هناك ولكن زوجته وأصدقاءه ألحوا عليه فى العودة إلى نورمبرج . ولاحظ أن الفنانين فى إيطاليا أحرزوا مكانة اجتماعية رفيعة تفوق مكانة زملائهم فى ألمانيا وقرر أن يطالب بمنزلة اجتماعية مماثلة عند عودته وكتب يقول : « إنى هنا سيد مهذب أما فى الوطن فأنا طفيلى » أى غير منتج لسلع مادية . وأبهجه الاهتمام بالفن فى إيطاليا وكثرة الفنانين وما يدور بينهم من صراع والمناقشات الذكية والحادة التى تدور حول نظريات الفن . وعندما شرح له جاكوبو دى باربارى مبادئ بييرو ديلا فرانشسكا وغيره من الإيطاليين عن النسب الرياضية للجسد البشرى الكامل قال ديرر إنه « يؤثر أن يشرح له هذا فهو خير عنده من أن يتلقى مملكة جديدة » . واعتاد فى إيطاليا رسم « الجسم العارى » فنيا ، وقد ثقف ذلك بدراسة التماثيل القديمة وفى الوقت الذى حافظ فى أعماله على الطابع التيوتونى والمسيحى فإنه شغف بالفن الوثنى الذى يعجب به الإيطاليون وسعى فى سلسلة طويلة من المقالات أن يعلم مواطنيه من الفلاحين أسرار المنظور والنسب والتلوين . وانتهى الأسلوب القوطى فى الرسم الألمانى بهاتين الرحلتين اللتين قام بهما ديرر إلى إيطاليا ، وهكذا قبل الجيل الألمانى ، الذى رفض أن يتبع روما فى الدين ، أن يسير على نهج إيطاليا فى الرسم .

وظل ديرر نفسه فى حالة توتر خلاق ، وإن اتسم بالتردد بين العصور الوسطى وعصر النهضة ، وبين الاتجاه الصوفى الألمانى والإقبال الإيطالى على الدنيا ولم تتغلب فى روحه قط بهجة الحياة التى رآها فى إيطاليا على التأمل فى الموت . وإذا استثنينا صوره الشخصية فإن موضوعاته ظلت برمتها تقريبا دينية . وكان كثير منها صوفيا . ومع ذلك كان الفن دينه الحقيقى . كان يعبد الخط الكامل ويؤثره بالعبادة على محاكاة المسيح . وقد أظهر حتى فى أعماله الدينية اهتمام الفنان الشديد بكل الأشياء التى تعرض له حتى فى

الحياة اليومية العادية ورسم مثل ليوناردو كل شيء تقريبا . . صخورا وجداول ماء وأشجارا وجيادا وكلابا وخنازير ، وجوها قبيحة وأشكالا قميئة وكائنات خيالية لها شكل عجيب أو مروع . ورسم ساقه اليسرى كما ترى فى أوضاع مختلفة وبعج وسادة لتتخذ سبع أشكال مختلفة لدراستها بريشته التى لا تعرف الكلل . وحشد فى عمله معرضا حقيقيا للحيوان ورسم أحيانا مدينة كاملة لتكون مهادا لإحدى لوحاته . وصور حياة الناس وأعمالهم فى الريف بنشوة وفكاهة . وكان يحب الألمان فرسم رءوسهم الضخمة وسمات وجوههم التى تنزع إلى الحمرة دون احتجاج وعرضهم فى البيئات غير المتوقعة حتى فى روما أو فلسطين وهم يرتدون دائما ملابس فاخرة مثل أبناء الطبقة الوسطى من السراة ويتدثرون ويتلفعون وكأنهم يتقون برد ألمانيا . ورسمه وصف اثنوجرافى لأجيال نورمبرج ، وكان هم عملائه الأثرياء من التجار الذين خلد ذكرهم فى لوحاته — ومع ذلك فقد تلقى مكافآت من الدوقات والأمراء المختارين فى الإمبراطورية ، وأخيرا من ماكسمليان نفسه ، وكما كان تيسيان يحب أن يصور طبقة الأشراف والملوك ، فإن ديرر كان يألف تصوير أبناء الطبقة الوسطى ، ولقد جعلت هذه الصورة ، التى حفرها على الخشب ، الإمبراطور يبدو كما وصفه لويس الثانى عشر « عمدة أوجسبورج » . ورسم ديرر مرة واحدة فى حياته النبالة فى صورة — وهى صورة خيالية لشارلمان .

وله ست وثلاثون صورة شخصية تعد من أحسن أعماله التى تقربها العين ويسر بها الفؤاد ، لأنها بسيطة وحسية دنيوية زاخرة بما يميزها من شخصيات . انظر إلى صورة هيرونيموس هولتسشوهر عضو مجلس الشيوخ فى نورمبرج ، رأس ينم على القوة ووجه صارم الملامح وشعر ناحل على جبهة عريضة ولحية مهذبة فى تناسق تام وعينان حادتان كأنه يرقب بهما السياسيين ، ومع ذلك فإن فيهما شروع فى بريق . نحن أمام رجل طيب القلب

مرح حسن الشهية . أو تأمل صورة ويليبالد بيركهايمر ، وهو أعز أصدقاء ديرر ، رأس ثور يخفى عقل علامة ويشير إلى شهوات معدة جارجانتوا . ومن كان يتوقع أن وجه فردريك الحكيم الضخم ، حــكيم ساكسونيا ، بتقاطيعه المتغضنة المهدلة ، يخفى وراءه الأمير المنتخب الذى تحدى البابا ليحمى لوثر ؟ إن كل صور الأشخاص تقريباً تخلب اللب . صورة أوزفولت كريل الذى يبــدو تركيزه الحاد حتى فى عروق يديه أو صورة برناردفون رستن بالصدار الأزرق الرقيق والقبعة العريضة الفخمة والعينين المتأملتين لفنان مستغرق أو صورة جاكوب موفيل عمدة نورمبرج . وهى استغراق فى الفكر للتعبد الجاد ، وهى تلقى بعض الضوء على عظمة المدنية وثرائها ، أو صورتا والد ديرر وهو يبدو فى إحداهما منهوك القوى من النصب عام ١٤٩٠ ، وفى الثانية خائر القوى إلى أقصى حد عام ١٤٩٧ ، أو صورة سيد مهذب فى البرادو — رجولة مجسمة تدنسها القسوة والجشع ، أو صورة اليزابث توخر وهى تحمل خاتم زواجها متطلعة إلى إتمام الزواج فى خفر ، أو صورة سيدة من البندقية التى اضطر ديرر من أجلها أن يسافر إلى إيطاليا ليجد الجمال والقوة . وقلما تجد فى صور من رسمهم من الذكور رقة ، وهى تخلو من الرشاقة ، وإن بدت فيها دائماً قوة الشخصية . قال : « إن ما لا يفيد فى الرجل ليس جميلا » ، وكان يهتم بالواقع وحكايته بأمانة أكثر من اهتمامه بجمال القسمات أو الشكل ، وقد أشار إلى أن الفنان يستطيع أن يرسم بالرصاص أو يصور بالزيت صورة جميلة لشىء قبيح أو لموضوع كريه . كان تيوتونيا فطر على الجد وتقديس الواجب والإخلاص ، وقد ترك الجمال والرشاقة للسيدات وركز على القوة فى الرجال .

ولم يكن مبرزاً فى التصوير ، ولم يكن الرسم ينسجم مع ذوقه ، ولكن زيارته لإيطاليا أثارت فيه الرغبة فى أن ينشد اللون والخط معاً . وصور هيكلا متعدد الثنيات عرف فيما بعد باسم مذبح درسدن ، وذلك لفردريك صاحب ساكسونيا

والكنيسة الملحقة بقصره فى فيتنبرج . وهنا نجد أن الأساليب الإيطالية فى النسبة والمنظور قد شكلت إطار الأجسام بأسلوب ألمانى بحت : سيدة ألمانية تمثل العذراء ، وأستاذ يمثل القديس أنتونى ، وشماس معمدانى ألمانى يمثل القديس سباستيان ، والنتيجة صورة فذة . وأبدع منها الصـــور والنقوش الهيكلية لبانومجارتنر فى ميونخ : صورة رائعة للقديس يوسف والعذراء مريم فوق مهاد معمارى من الأطلال الرومانية . ولكن صادر الصورة قد شوهته أقزام سخيفة ؛ أما صورة عبادة المجوس فى الأوفيزى فهى انتصار للون يتمثل فى رداء العذراء الأزرق والثياب الفخمة التى يرتديها الملوك الشرقيون ؛ ولوحة المسيح بين الأطباء تبين عيسى الوسيم ، له خصلات شعر فتاة ، ويحيط به ثقات نحارير من ذوى اللحى والوجوه المتغضنة — أحدهم يشبه صورة هزلية كله أنف وأسنان . وصورة عيد أكاليل الورد تضارع أروع الصور الإيطالية فى هذا العهد ، بتكوينها البارع وجمال الأم والطفل معا وروعة اللون بصفة عامة ، وتعد أعظم لوحة لديرر ، ولكن على المرء أن يجازف بقطع كل الطرق إلى براغ ليشاهدها . وفى فينا وبرلين لوحات جذابة من عمل ديرر لمريم العذراء ؛ وفى نيويورك لوحة للعذراء والطفل مع القديسة آن ، وهى تقدم لنا فتاة ألمانية رقيقة ، تمثل العذراء ، وسيدة سامية سمراء تمثل أمها ، وما أروع اللوحات فى البرادو التى تصور آدم وحواء ، فهنا نتوقف لحظة لنجد فناناً ألمانيا يظهر لنا جمال أنثى صحيحة البدن وهى عارية . ولقد ثبط من همة ديرر المكافأة القاصرة التى حصل عليها من التصوير ، وربما أوهن من عزيمته اضطراره إلى تكرار الموضوعات الدينية القديمة ، فتحول بصورة متزايدة إلى عمل يدر عليه ربحاً أكثر . ويتسم بمزيد من الأصالة ، وهو نحت الخشب والحفر ، لأن لوحا واحداً فى هذه الحالة يكفى لصنع ألف نسخة يمكن نقلها بسهولة إلى كل سوق فى أوروبا . ويمكن أن تزود ألف مجلد مطبوع بالرسم نفسه .

كانت براعة ديرر تتجلى فى رسم الخط وكان الرسم مملكته التى لا يبزه فيها رجل من الأحياء وقتذاك ، بل إنه فى هذا المجال أذهل برقته المتناهية الإيطاليين المزهوين بأنفسهم . ولقد شبهه ارازموس كرسام بأستاذ قديم بارع فى الخط فقال : إن أبيلز كان يستعين باللون . . . أما ديرر فما الذى لا يستطيع أن يعبر عنه بلون واحد ؟ . . . والنسب والإيقاعات المنسجمة ؟ كلا إنه يرسم ما لا يمكن تصويره — النار وأشعة الضوء والرعد . . والبرق . . وكل الأحاسيس والانفعالات فى رقة ، وعقل الإنسان بأسره وهو يعكس نفسه بسلوك الجسد ، بل إنه يكاد يرسم الصوت نفسه ، وهو يضع هذه الأشياء أمام الأعين بأصلح الخطوط خطوط ، سوداء ، ومع ذلك فإنك لو نشرت عليها ألواناً لأضررت بالعمل الفنى . ثم أليس عجيباً أن يحقق فنه دون أن يتوسل باللون ما حققه أبيلز متوسلا بها ؟

ورد ديرر على هذا الإطراء بحفر صورة شخصية لارازموس (١٥٢٦) ولم يجلس من أجلها ارازموس أمامه ولكنه رسمها عن صورة من عمل ماسيس ، وهى إن كانت لاتضارع هذه الصورة الشخصية ، ودون الصورة التى رسمها هولبين ؛ فإنها من روائع الرسم مع هذا كله ، وذلك للبراعة فى تصوير ثنيات العباءة وظلالها وتجاعيد الوجه واليدين والأوراق المطوية للكتاب المفتوح .

وقد خلف لنا ديرر أكثر من ألف صورة معظمها يعـد معجزات من التصميم الواقعى أو المعبر عن الورع أو الخيالى الخارق ، وبعضها صور هزلية صريحة ، وإحداها تصور السن والحكمة فى دقة متناهية ، ومن آن لآخر يكون الموضوع من ذلك النوع الذى لا ينبض بالحياة ، كما فى لوحة الطاحونة ، أو مجرد خضرة خالصة مثل لوحة « المرج » ، أو حيواناً مثل صورة رأس فيل البحر . وتحتشد عادة النباتات والوحوش حول أشخاص أحياء ، كما فى اللوحة المركبة « السيدة العذراء مع حشد من الحيوانات » ، أما الموضوعات الدينية فهى أقل أعماله نجاحاً ، ومع ذلك فإننا يجب أن نستثنى وتقدر اللوحة الرائعة المسماة

« يدا رسول يصلى » . وأخيراً فثمة دراسات رائعة فى الأساطير القديمة مثل لوحة أبولو وصورة أورفيوس .

وقد حول ديرر نحو ٢٥٠ من رسوماته إلى أعمال من الخشب المحفور المنحوت ومائة إلى حفر ، وهاتان المجموعتان تمثلان أروع جانب يستحق التقدير من تراثه . ولقد حفر بنفسه التصميمات حتى مدار القرن ، ثم عهد فيما بعد بحفر الخشب إلى آخرين . وما كان ، بغير هذا التعاون ، ليستطيع أن يصور مثل هذا القطاع الواسع من الحياة . وقد بدأ بتصوير رسوم لكتب مثل الفارس « فون تورن » و « الطيش » لسباستيان برانت ، ورسم بعد عشرين عاماً صوراً هامشية لكتاب الصلوات الخاص بماكسمليان . وجرب ريشته فى رسم الجسم العارى ، ونجح نجاحاً عظيماً فى لوحة «حمام الرجال» ولم يبلغ الشأو نفسه فى صورة «حمام النساء» ، وقد أفاد فى كليهما كدافع ثورى للفن الألمانى الذى كان قد أعرض عن رسم الجسم العارى باعتباره عملا فاضحاً أو تبديداً للأوهام . واشتهرت أعمال الحفر فى الخشب ، التى صورت حياة العذراء وآلام المسيح عند الصلب ، فقد غدا فى وسع النساء المتعبدات وقتذاك أن يتأملن ، وهن يصطلين بجوار مدافئهن ، صورة مطبوعة تبين خطبة يوسف ومريم ، وكان الألمان العمليون يسرهم أن يجدوا فى صورة إقامة العائلة المقدسة فى مصر كل التفاصيل المريحة للألفة والجد اللذين عرف بهما الشعب التيوتونى — مريم تحيك الثياب ، ويوسف يعمل وهو جالس على دكته ، وأطفال عليهم مسحة ملائكية يحضرون الحطب دون أن يطلب أحد ذلك منهم . وثمة سبع وثلاثون صورة من أعمال حفر الخشب الصغير — « آلام المسيح الصغرى » — وإحدى عشرة صورة أكبر — « آلام المسيح الكبرى » — عرضت قصة تعذيب المسيح ووفاته فى آلاف البيوت ، ونبه شوق الرأى العام لترجمة لوثر للعهد الجديد . وثمة سلسلة أخرى من الصور زينت سفر الرؤيا وبعضها حفر على الخشب مثل « الفرسان الأربعة فى سفر الرؤيا » والقديس مايكل يقاتل التنين وكانت من النضارة والوضوح

بحيث ظل الذهن الألمانى قرونا طويلة يفكر فى سفر الرؤيا كما عبر عنها ديرر برسومه .

وتجاوز مرحلة حفر الخشب إلى فن يحتاج إلى مزيد من الجهد هو فن النقش ، وحاول بين الفينة والفينة النقش بالحفر الإبرى ، كما فى الصورة المظللة « العائلة المقدسة » وكان عادة يعمل بإزميل . و « سقوط الإنسان » نقش على النحاس فى أشكال تليق باليونان وفى نسبة وتناسق جديدين بالإيطاليين مع ما عهد فى ديرر من إسراف فى رسم الحيوان والنبات ، حيث نجد أن لكل وحدة تقريباً دلالة رمزية بالنسبة له ولجيله . وبرزت إناث عاريات فى روعة لم يسبق لها مثيل فى الفن الألمانى من المعدن ، وذلك فى صورة « وحش البحر » و « الصراع بين الفضيلة واللذة » ، بخلفية من المناظر الخلوية رسمت ببراعة .

أما الستة عشرة صورة من الحفر والتى تكون « آلام المسيح منقوشة » فإنها أقل تأثيراً من صورة « تعذيب المسيح » المحفورة على الخشب ، ولكن صورة القديس ايوستاس فهى مجموعة من الرسوم الحية : خمس كلاب وجواد وغابة ، وحشد من الطيور وسلسلة من القلاع فوق تل ، وغزال يحمل صليباً بين قرنيه ، ويتوسل إلى الصياد أن يعفيه من القتل ويغريه بأن يصبح قديساً .

وبلغ ديرر فى عامى ١٥١٣ و ١٥١٤ الذروة كرسام فى ثلاث رائعات من الحفر ، فالفارس والموت والشيطان نسخة قوية من موضوع كئيب من القرون الوسطى . . فارس صارم الملامح مسربل بالدروع والسلاح ، يمتطى صهوة جواد فيروكشي ، تكتنفه صورة قبيحة للموت والشيطان ، ومع ذلك فإنه يتقدم إلى الأمام فى إصرار منتصراً للفضيلة على كل شيء ، ويبدو أن أحداً لا يصدق أنه يمكن نقش صور فى المعدن بمثل هذه المبالغة والدقة فى التفاصيل . فصورة القديس جيروم فى قاعة درسه ، توضح مرحلة أهدأ من انتصار

المسيحى . القديس العجوز الأصلع منحن فوق مخطوطته يكتب على ما يبدو فى ضوء هالته وعلى الأرض ، ومعه فى هدوء أسد وكلب ، وعلى أسكفة النافذة تجثم جمجمة فى سكون مبين ، وما يبدو فى نظر كل الناس قبعة زوجته معلقة على الحائط ، وكل الحجرة مرسومة بمنظور روعيت فيه القواعد ، ورسمت فيها كل الظلال وأشعة الشمس بدقة فائقة . وأخيراً فإن النقش ، الذى أطلق عليه ديرر اسم « السوداء » ، يكشف عن ملاك يجلس وسط أنقاض مبنى لم يتم ، وتحت قدميه خليط من الأدوات الميكانيكية والآلات العلمية ، ويتدلى من منطقته كيس ومفاتيح رمزاً للثروة والسلطان ، ويستند برأسه مفكراً على إحدى راحتيه ، وعيناه تحملقان حولها فى شيء من الدهشة وشيء من الفزع . أتراه يتساءل لأى غرض يبذل كل هذا الجهد ، وما فائدة هذا البناء ، والهدم والبناء ، وهذا السعى الحثيث وراء الثروة والسلطان والجرى وراء السراب الذى يسمى الحقيقة ومجد العلم هذا وبلبلة ذوى الفكر وهم يكافحون عبثا الموت المحتوم ؟ وهل يمكن أن يكون ديرر فى بداية العصر الحديث نفسه قد أدرك المشكلة التى واجهها العلم الظافر وهى مشكلة الوسائل التقدمية التى أساءت استخدامها الغايات التى لا تتغير ؟

وهكذا دخل ديرر عصر لوثر بالرسم تلو الرسم والتصوير وراء التصوير ، بدأب جهيد وصبر يختلفان عن تسويف ليوناردو وترف رافائيل ، واشترى حوالى عام ١٥٠٨ البيت الذى أضفى الشهرة على نورمبرج ؛ وقد دمر فى الحرب العالمية الثانية ، ثم أعادت هيئة السياحة بناءه صورة طبق الأصل منه . وكان الطابقان السفليان فيه من الحجر ، أما الطابقان الثالث والرابع فمن الخشب المكسو بالملاط ، وفوق طنف بارز يجثم طابقان آخران تحت السقف الهرمى . وهناك عاش ديرر تسعة عشر عاماً فى بؤس غير مفرط مع زوجته العقيم . وكانت أجنس ربة بيت بسيطة وتعجب لماذا يمضى ألبرخت هذا الوقت الطويل فى دراسات لا تسمن ولا تغنى من جوع ، أو مع أصدقاء يدمنون

الشراب . كان يتحرك فى دوائر لا تستطيع أن تدركها بعقلها القاصر وكان يهملها من الناحية الاجتماعية ، وكثيراً ما كان يسافر دون أن يصحبها معه ، ولكنه عندما اصطحبها معه إلى الأراضى الواطئة ، كان يتناول غذاءه مع الشخصيات المشهورة أو مع أحد ضيوفه ويترك زوجته تتناول طعامها فى (المطبخ الأعلى) مع خادمتهما . وفى عام ١٥٠٤ انضمت إلى ديرر والدته الأرملة لتعيش معهما فى البيت واستمرت معهما عشر سنوات . والصورة التى رسمها لها تثير عطفنا على الزوجة — ولم تكن جد فاتنة — ولقد رأى أصدقاؤه فى أجنس امرأة سليطة اللسان ، لا تستطيع أن تشارك ديرر حياته الفكرية المستغرقة .

وفى سنواته الأخيرة تمتع أستاذ نورمبرج بشهرة تعم قارة أوربا ، باعتباره رائداً للفن الألمانى ومفخرة له . وفى عام ١٥١٥ منحه الإمبراطور معاشاً متواضعاً قدره مائة فلورين فى العام (٢٫٥٠٠ دولار؟) ، وكان يدفع له بصورة غير منتظمة ، لأن دخل ماكسمليان كان لا يتفق أبداً مع خططه .

وعندما مات ماكسمليان توقف المعاش ، فقرر ديرر أن يزور الأراضى الواطئة ويطلب تجديد معاشه من شارل الخامس . وأخذ معه مجموعة منوعة من الرسوم والصور الزيتية ليبيعها أو يقايض عليها فى هولندا أو فى الفلاندرز . واستطاع بذلك أن يدفع كافة نفقات الرحلة تقريباً . وتكاد تبدو فى اليوميات التى احتفظ بها عن جولته (يوليو ١٥٢٠ — يوليو ١٥٢١) وإن لم تكن تماماً — شخصية مثل التى كتبها بوزويل بعد قرنين آخرين ، فهى تسجل نفقاته ومبيعاته ومشترياته وزياراته وحفلات تكريمه ، وتكشف عن عناية ابن الطبقة الوسطى بالتفاصيل المالية ، وابتهاج الفنان بالاعتراف بعبقريته ، وهو أمر يغتفر له . ولقد حصل ديرر على الحق فى تجديد معاشه بعد مطاردة شارل فى اثنتى عشرة مدينة ، وهكذا استطاع أن يخصص باقى رحلته لمشاهدة مناظر الأراضى الواطئة وأبطالها . وأذهلته ثروة غنت وبروكسل وبروجز وروعتها ،

ومذبح آل فان أيك المتعدد الطيات فى كنيسة سانت بافون . وكاتدرائية أنتورب « التى لم أر لها مثيلا فى الأراضى الألمانية » . والتقى بارازموس ولوكاس فان ليدن وبرنايرت فان أورلى وآخرين من وجهاء الأراضى الواطئة ، ورحبت به طوائف الفنانين فى تلك المدن ، وأصيب بالملاريا فى مستنقعات تسيلاند المليئة بالبعوض فأتلفت صحته فيما بقى له من عمر .

ويقول فى صفحة من يومياته : « لقد اشتريت كراسة لوثر الدينية بخمس بنسات فضية وأعطيت واحدة لإدانة هـذا الرجل القوى » . وفى أنتورب (مايو ١٥٢١) سمع شائعة تقول إن لوثر « قبض عليه غدرا » وهو يرحل عن مجلس نواب (دايت) ورمز ، ولم يعـرف ديرر أن هذا الإبعاد إنما قصد به حماية هذا المصلح العظيم وخشى أن يكون لوثر قد قتل فكتب فى يومياته دفاعاً حاراً عن الثائر متوسلا بارازموس أن يخف لنجدة أنصاره : « إذن فقد اختفى هذا الرجل الذى أنار عقله الروح القدس ليتابع العقيدة الحقة . . . وإذا كان قد تعذب فإن هـذا فى سبيل الحقيقة المسيحية ضـد البابوية غير المسيحية التى تعمـل ضـد حرية المسيح وتستنزف دماءنا وعرقنا لتقتات به وتعيش فى ترهل فى الوقت الذى تحيا فيه الشعوب فى مسغبة . رباه ! إن الناس لم تسحق قط بمثل هذه القسوة تحت وطأة القوانين التى من صنع البشر ، كما حدث لهم تحت كرسى الأسقفية الرومانية . . . إن كل إنسان يرى مدى الوضوح الذى أعلنت به العقيدة فى كتب لوثر وكيف أنها تطابق ما ورد فى الإنجيل المقدس . إننا يجب أن نصون هذه الكتب من أن تحرق بل دعونا نقذف فى النار الكتب التى تعارضه . . . وأنتم أيها المسيحيون الأتقياء جميعاً ابكوا معى حزنا على فقد هذا الرجل، وصلوا للرب أن يرسل لنا هادياً آخر . وأنت يا أرازموس الروتردامى أين تقيم ؟ ألا ترى الظلم والاستبداد الأعمى للسلطات الحاكمة الآن ؟ استمع إلى يا فارس المسيح واركب بجانب سيدنا كما هو حالك . . . أنت أيضا تستطيع أن تفوز

بتاج الشهيد . اجعل صوتك مسموعاً يا ارازموس ، نعسى الله الذى يحكم على أعمالك أن يظهر تمجيده فيك » :

وعندما عاد ديرر إلى نورمبرج وقف حياته كلها تقريبا على الفن الذى يتسم بالطابع الدينى ، مع الاهتمام الفائق بالأناجيل من جديد . وأتم عام ١٥٢٦ أعظم مجموعة من لوحاته — الرسل الأربعة — وهى تسمية غير صحيحة لأن مرقس المبشر الإنجيلى لم يكن واحدا من الحواريين الاثنى عشر ، ولكن لعل هذا الخطأ يشير إلى البروتستانت فى العودة من الكنيسة إلى الأناجيل . واللوحتان من بين الممتلكات التى يعتز بها « بيت الفن » والذى جمعت فيه ميونخ ، التى أضرت بها الحرب ، مجموعتها الفنية الشهيرة . وإحدى اللوحتين تصور يوحنا وبطرس ، والأخرى تصور مرقس وبولس ، والأربعة كلهم يرتدون ثياباً زاهية اللون ، لا تكاد تتفق مع قديسين من عامة الصيادين ، وفى هذه الملابس عكف ديرر على تصوير المثال الإيطالى بينما أكد تأثير بيئته الألمانية فى الرءوس العريضة الضخمة . ولعل هذه الصور المهيبة قصد بها أن تكون أجنحة لمذبح ثلاثى الطيات فى كنيسة كاثوليكية . ولكن مجلس نورمبرج أعلن عام ١٥٢٥ تأييده للإصلاح الدينى . فتخلى ديرر عن فكرة عمل صورة مذبح ، وقدم اللوحات إلى المدينة ، وألحق بكل لوحة نقوشا تؤكد بإصرار أهمية الأناجيل ؛ وعلى الرغم من وجود المفاتيح فى يد بطرس — وهى تعد عادة أداة تمثل الكنيسة الرسمية المقدسة وسلطات الكنيسة — فإن من الممكن تفسير هذه اللوحات بأنها عهد ديرر البروتستانتى .

ولم يبق من عمره آنذاك إلا عامان وكان يعانى من نوبات متعاقبة من حمى الملاريا حطمت صحته وروحه معا . ولقد رسم فى عام ١٥٢٢ آخر صورة له باسم رجل الأحزان ، وتصوره عاريا أشعث الشعر شاحب الوجه ، عليلا يقاسى من الألم ، ويمسك فى يديه سوط تعذيب المسيح ، وظل مع ذلك

يعمل إلى النهاية وعندما مات (٦ ابريل سنة ١٥٢٨) بالغاً من العمر سبعة وخمسين عاما ترك من الرسوم والصور المحفورة فى الخشب والنقوش إلى جانب ٦٠٠٠ فلورين — ما يكفى لإعالة أرملته فى يسر كثيب ، وذلك فيما تبقى لها من العمر . وها هو بيركهايمر يقول فى رثائه : « خير صديق لى فى حياتى » وكتب نقشا تذكاريا متواضعا على القبر : « ما كان فانيا من ألبرخت ديرر يرقد تحت هذه الربوة » .

ولقد افتقد ديرر الغاية السامية باعتباره فناناً ، ذلك لأنه ضحى بمهمة الفن العظمى فى سبيل مهمة أقل وزنا . . كان يفتتن برؤية الأشكال العابرة للأشخاص والأماكن والأشياء ، وهى تدب فيها الحياة تحت يديه إلى حد جعله يستغرق بصفة أساسية فى تصوير الواقع — سواء أكان جميلا أم قبيحاً ، له معنى أو لا معنى له — ولم يكن يمزج إلا عرضا العناصر المتناثرة للإدراك الحسى لتكتمل فى خيال خلاق ، ثم تعود مجسمة فى خط أو لون وجمال مثالى ، يكشف لنا عن أهداف يسعى إلى تحقيقها أو يكشف لنا عن رؤى تيسر الفهم أو تحقق الهدوء ، ولكنه ارتفع إلى مستوى نداء عصره فحفر فى الخشب أو نقش على النحاس سيرة ذاتية لجيله المترصد المنتج وأن ريشته أو قلمه الرصاص ومنقاشه أو فرشاته استدعت الأرواح الخفية للرجال المقتدرين الذين وطأوا بأقدامهم مسرح ذلك العصر .

ولقد جعل ديرر تلك الحقبة من الزمن تعيش لنا أربعة قرون بكل ما فيها من حماسة وولاء وخوف ووهم ، واحتجاج وحلم وورع . . . كان ألمانيا .

٦ — علماء الإنسانيات الألمان

كانت ألمانيا بلدا فتيا فى الآداب مثلما كانت فى الحياة والفن . . . وانتشر تعلم القراءة والكتابة ، وصدرت الكتب متدفقة من ستة عشر ناشرا

فى بازيل ، وعشرين فى أوجسبورج ، وواحد وعشرين فى كولونيا ، وأربعة وعشرين فى نورمبرج . ولقد كان هناك أنطون كوبيرجر الذى استخدم وحده أربعا وعشرين مطبعة ومائة رجل ، وكان الاتجار فى الكتب يحتل جانبا كبيرا من التجارة الرائجة بالأسواق فى فرانكفورت وسالزبورج ونوردلينجن وأولم ، حتى قال أحد المعاصرين الألمان « إن كل إنسان اليوم يريد أن يقرأ ويكتب » . وكتب آخر يقول : « لا نهاية للكتب الجديدة التى تؤلف » . وتضاعف عدد المدارس فى المدن ، وكانت كل مدينة تقدم مكافآت أو منحا دراسية للطلبة الفقراء من الممتازين ، وأنشئت تسع جامعات جديدة فى هذه السنوات للتعليم الجديد . ونهضت أكاديميات أدبية فى ستراسبورج وأوجسبورج وبازيل وفيينا ونورمبرج ومانيز ، وفتح أبناء الطبقة الوسطى الأغنياء أمثال بويتنجر وبيركهايمر بل والإمبراطور ماكسمليان نفسه مكتباتهم وعرضوا مجموعاتهم الفنية للناس ، وتبرعوا بأموالهم للدارسين المتلهفين للدرس ، وكان كبار رجال الدين أمثال جوهان فون دالبرج أسقف ورمس وألبرخت البراندنبرجى ، كبير أساقفة ماينز ، أنصارا مستنيرين للدراسة والشعر والفن ، ورحبت الكنيسة فى ألمانيا بعصر النهضة ، وهى فى هذا كانت تحذو حذو البابوات ، ولكنها تشددت فى الدراسات اللغوية لنصوص الكتاب المقدس وآباء الكنيسة . وطبعت النسخة اللاتينية من الكتاب المقدس ستا وعشرين طبعة فى ألمانيا بين عامى ١٤٥٣ و ١٥٠٠ ، وكانت هناك عشرون ترجمة للكتاب المقدس قبل ترجمة لوثر . وليس من شك فى أن انتشار العهد الجديد بين الناس قد أعدهم لتقبل ما أعلنه لوثر متحديا لتناقض الأناجيل مع الكنيسة ، وأن قراءة العهد القديم أسهمت فى تهويد البروتستانت للمسيحية من جديد .

وكانت الحركة الإنسانية فى ألمانيا بادىء الأمر — وبعد شغفها بلوثر — أكثر مطابقة للعقيدة كما عرفها علم اللاهوت منها فى إيطاليا ، ولم يكن لألمانيا ماض قديم مثل إيطاليا ولم يتح لها أن أفادت من غزو روما الإمبراطورية

لها وتعليمها ، ولم يكن هناك رباط مباشر بينها وبين العهد القديم غير المسيحى . وكانت ذاكرتها لا تكاد تتجاوز القرون التى دانت فيها بالمسيحية ، وكان تضلعها فى العلم لا يكاد يقتحم ما قبل عهد آبائها المسيحيين ، وكانت نهضتها إحياء للمسيحية الأولى أكثر منها إحياء للآداب والفلسفة الكلاسية .. وطوى الإصلاح الدينى النهضة فى ألمانيا .

ومع ذلك فإن مذهب الإيمان بالإنسان فى ألمانيا اقتدى بزعامة إيطاليا ، إذ أن بوجيو براتشيوليني وإنياس سيلفيوس وآخرين من علماء الإنسانيات جاءوا معهم بالبذرة عند زيارتهم لألمانيا ، كما أن الألمان من الطلبة والحجاج ورجال الدين والتجار والدبلوماسيين الذين زاروا إيطاليا عادوا وهم يحملون معهم — ولو عن غير قصد — لقاح عصر النهضة . ولقد تلقى رودولفوس اجريكولا ، وهو ابن قسيس هولندى يرعى أبرشية ، الكثير من التعليم فى ارفورت وكولونيا ولوفان ، ووقف سبع سنوات من عمره على التعمق فى دراسات اللاتينية واليونانية فى إيطاليا ، ثم عاد ليدرس فى جروتنجن وهيدلبرج وورمس . وتعجب أهل العصر من فضائله غير المألوفة من الجماهير . التواضع والبساطة والأمانة والورع والعفة . وكتب باللغة اللاتينية ما يكاد يكون جديراً بشيشرون ، وتنبأ بأن ألمانيا سوف « تبدو يوما وهى لاتقل لاتينية عن اللاتيوم » . والحق أن هولندة أجريكولا قد أنجبت فى الجيل التالى ارازموس وهو عالم باللغة اللاتينية إلى حد يتيح له أن يحس بأنه فى وطنه لو قدر له أن يعيش فى روما تاسيتوس وكوينتيليان .

وأصيب أجريكولا فى رحلة قام بها إلى روما بالحمى التى قضت عليه فى هيد لبرج وهو فى الثانية والأربعين من عمره (١٤٨٥) .

وكان يضارعه فى النفوذ — لا فى دماثة الطبع — جاكوب ويمفيلنج ، وكان مزاجه حادا بقدر ما كانت لاتينيته رقيقة . وقرر ناظر المدرسة الألمانى

هذا أن يرفع ألمانيا إلى مستوى إيطاليا فى التعليم والآداب ، فوضع خططا لإنشاء نظام المدارس العامة ، وأسس جمعيات من المتعلمين ، وأدرك مع ذلك مدى الخطورة إذا تحقق التقدم الفكرى دون أن يصحبه تطور أخلاقى . وتساءل قائلا : « ما فائدة تعليمنا إذا كانت أخلاقنا غير شريفة بفعل التناظر أو صناعتنا كلها لا تقترن بالورع ، أو معرفتنا كلها لا تحث على حب جارنا ، أو كانت كل حكمتنا تفتقر إلى التواضع ؟ .

ويعد جوهانس تريثميوس راهب سبونهايم آخر علماء الإنسانيات المحافظين وهو الذى كتب عام ١٤٩٦ : « لقد ولت إلى غير عودة أيام تشييد الأديرة ، أما أيام هدمها فآتية لاريب فيها » . ووصف سيلتس ، وهو عالم إنسانيات أقل إخلاصاً زميله تريثميوس بأنه « زاهد فى الشراب ، يزدرى لحم الحيوان ويعيش على الخضر والبيض واللبن ، كما كان يفعل أسلافنا فى الوقت الذى . . . . لم يكن هناك أطباء يشرعون فى تركيب أدوية لداء النقرس والحمى » . وأصبح فى خلال حياته القصيرة متفننا فى علوم جمة ، بارعا فى اللغات اللاتينية واليونانية والعبرية وآدابها ، وقد قام بمراسلة ارازموس وماكسمليان والأمراء الإمبراطوريين المختارين ، وشخصيات مشهورة أخرى وفسر عامة الناس فى هذا العهد معارفه المكتسبة على أساس نظرية تذهب إلى أنه كان يملك قوى خفية خارقة . ومهما يكن من أمر فإنه مات وهو فى الرابعة والخمسين من عمره (١٥١٦) .

وكان كونرادوس سيلتس أقوى علماء الإنسانيات الألمان غيرة وأعظمهم أثراً . ولقد كان ينتقل من مدينة إلى مدينة وكأنه أديب جوال عجول يدرس فى إيطاليا وبولنده وهنغاريا ، ويعلم فى كولونيا وهيدلبرج وكراكاو وبراغ وماينز وفيينا وانجولستادت وبادوا ونورمبرج ، وكشف عن مخطوطات ثمينة كانت مهملة مثل مسرحيات هورتسويذا ، وخرائط قديمة مثل تلك الخريطة

التى أعطاها لبويتنجر وحملت اسمه . وكان يجمع حوله الدارسين أينما ذهب ويبث فيهم شغفه بالشعر والأدب الكلاسى والآثار الألمانية القديمة . وفى عام ١٤٤٧ توّجه الإمبراطور فردريك الثالث فى نورمبرج أميراً للشعراء فى ألمانيا. وأسس سيلتس فى ماينز (١٩٤١) جمعية الراين الأدبية الواسعة النفوذ وكانت تضم علماء وفقهاء فى الدين وفلاسفة وأطباء ومؤرخين وشعراء ومحامين ، أمثال أولريخ تسازيوس الفقيه القانونى الضليع وعلماء أمثال بيركهايمر وتريثموس ورويخلين وويمفيلنج . وأنشأ فى فيينا ، بأموال زوده بها ماكسمليان ، أكاديمية للشعر أصبحت فيما بعد قسما محترما من الجامعة يعيش فيه الأساتذة والطلبة معاً فى البيت نفسه وينهضان بالعمل ذاته . ويبدو أن سيلتس خسر عقيدته الدينية فى خلال دراساته : فقد أثار مثل هذه الأسئلة : « هل تحيا الروح بعد الموت ؟ » و « هل هناك إله حقاً ؟ » وفى أسفاره اصطحب نماذج كثيرة من الجنس اللطيف ولكنه لم يصحب واحدة منهن إلى المذبح ، وانتهى أمره إلى أن يقول فى غبطة : « ليس هناك تحت الشمس أحلى من عذراء جميلة بين ذراعى رجل تبدد همومه » .

ولقد انتشر هذا الانحلال المريب وأصبح بدعة بين علماء الإنسانيات الألمان فى العقود الأخيرة قبل لوثر : وكتب ايوبان هيسى Heroides Christiane « الاستشهاد المسيحى » (١٥١٤) بلغة لاتينية سليمة ، وقلد فيه أوفيد فى المجون أكثر مما قلده فى الشكل ، وتضمن خطابات حب من المجدلية إلى عيسى ، ومن مريم العذراء إلى الأب المقدس ، ولكى يقرن الفعل بالقول عاش فى انحلال مثل تشليني وفاق فى الشراب جميع من نافسوه ولم ير بأساً فى أن يفرغ فى بطنه دلوا من الجعة فى جرعة واحدة .

ومهما يكن من أمر فإن كونرادوس موتيانوس روفوس استطاع أن يوفق فى رفق بين مذهب الشك والدين ، ولقد اكتفى بعد أن فرغ من الدراسة فى ديفنتر وارفورت وفى إيطاليا : بمنصب دينى متواضع فى جوتا ووضع

على بابه هذا الشعار : « أيها السكون المقدس السعيد » Beata tranquilte ، وجمع حوله الطلبة المعجبين وعلمهم « أن يقدروا أحكام الفلاسفة وأن يضعوها فوق أحكام القساوسة » ولكنه حذرهم ، بأنهم يجب أن يخفوا شكوكهم فى العقيدة المسيحية عن الجمهور بالإقبال بأسلوب مهذب على إقامة الشعائر والمراسيم الدينية وقال : « إننا لا نقصد بالإيمان مطابقة ما نقول للواقع بل نعنى رأياً بأن الأمور المقدسة تقوم على الفطرة والإقناع الذى ينشد المنفعة » . واعترض على إقامة القداس للموتى باعتباره أمراً لا فائدة منه وعلى الصيام باعتباره شيئاً غير مرغوب فيه وعلى الاعتراف السرى باعتباره عملا يثير الارتباك . ورأى أن الكتاب المقدس يحتوى على حكايات خرافية كثيرة مثل حكاية يونان وأيوب ، ومن يدرى ؟ لعل المسيح لم يمت حقاً على الصليب ! فقد كان اليونان والرومان مسيحيين دون أن يحسوا ما داموا قد عاشوا فى استقامة ، وليس من شك فى أنهم ذهبوا إلى الجنة . ويجب أن يكون الحكم على العقائد والشعائر مبنياً لا على أساس دعاواها الحرفية ولكن على أساس آثارها الأخلاقية . فإذا كانت ترقى بالنظام الاجتماعى والفضيلة عند الفرد فيجب أن يتقبلها الجمهور دون مناقشة ، وطلب موتيانوس من مريديه أن يعيشوا حياة طاهرة ، وأقسم فى سنواته الأخيرة قائلا : لسوف أحول دراساتى إلى ورع ولن أتعلم من الشعراء أو الفلاسفة أو المؤرخين إلا ما يرقى بالحياة المسيحية . وبعد أن عاش بكل ما تقدمه الفلسفة من عزاء مات تحفه بركات الكنيسة (١٥٢٦) .

وليس من شك فى أن استياء المحافظين من مذهب الشك الذى شاع بين علماء الإنسانيات المتأخرين قد بلغ عنفوانه عند أرق علماء هذا العصر وأرحبهم صدراً فقد لاحظ جوهانس رويخلين التقليد الذى درج عليه الناس فى العصور الوسطى من جمع المعارف من اثنى عشر مركزا بفضل انتشار اللغة اللاتينية باعتبارها لغة التعليم فى أوربا الغربية . وفى مدرسة النحو ببلدته

فورتسهايم وفى جامعات فرايبورج وباريس وبازيل وأورليانز وبواتييه، وفى لينز وميلان وفلورنسا وروما تابع دراسة اللاتينية واليونانية والعبرية والقانون بحماسة تصل تقريباً إلى حد التعصب ،ولقد غير اسمه على عادة علماء الإنسانيات الألمان — وهو مشتق من كلمة rauchen الألمانية بمعنى يدخن — إلى كابينو المأخوذة من كلمة kapnos اليونانية بمعنى التدخين . وألف وهو فى العشرين من عمره معجماً للغة اللاتينية طبع مرات . وفى روما أعطاه جوهانس أرجيروبولس قطعة صعبة من كتاب المؤرخ ثوسيديدس ليترجمها ، فما كان من رويخلين إلا أن استجاب فوراً حتى صاح اليونانى العجوز : « الآن يفر اليونان وراء الألب » . ولم يكن الطالب الشهم يترك حاخاما يمر دون أن يتعلم منه شيئاً من العبرية ، ويزعم موتيانوس أنه سمع أن رويخلين أعطى دارساً يهوديا عشر قطع ذهبية ليشرح له معنى عبارة عبرية ، وربما كان هذا حلم عالم بالإنسانيات .

وأقنع بيكو ديلا ميراندولا ، رويخلين أن ينشد الحكمة فى كابالا . وبمقارنة ترجمة جيروم للعهد القديم بالنص العبرى الأصلى أشار « كابنيو » إلى كثير من الأخطاء فيما اعتاد علماء اللاهوت الاستشهاد به كنص لا يرقى الشك إليه . وعندما بلغ الثانية والثلاثين من عمره عين أستاذاً للعبرية فى جامعة هيدلبرج . وليس من شك فى أن معجم اللغة العبرية وكتاب قواعد هذه اللغة اللذين ألفهما قد أتاحا دراسة اللغة العبرية والعهد القديم على أساس علمى وأسهما فى أن يكون للكتب المقدسة المدونة بالعبرية تأثير قوى على الفكر البروتستانتى .

وحجب إعجابه بالعبرية شيئاً فشيئاً شغفه بالكلاسيات ، فقد كتب يقول « إن اللغة العبرية لم يمسها الزيف وهى جامعة تؤثر الإيجاز إنها اللغة التى تحدث بها الله للإنسان وهى التى تحدث بها الإنسان للملائكة وجها لوجه »

واحتفظ بعقيدته السلفية أثناء دراساته جميعاً وإذا كان قد شابها قليل من التصوف فإنه قدم كل كتاباته وتعاليمه بإخلاص إلى سلطان الكنيسة .

وتحالفت طائفة من الظروف الغريبة فجعلت منه بطلا لعصر النهضة الألمانية ، إذ حدث فى عام ١٥٠٨ أن أصدر جوهانس بفيفر كورن ، وهو حاخام تحول إلى قسيس ، كتاب « مرآة اليهود » أدان فيه اضطهادهم وبرأهم من الجرائم الاسطورية التى شاع اتهامهم بها ولكنه حثهم فى الوقت نفسه على أن يتخلوا عن إقراض النقود وعن التلمود وأن يدخلوا فى المسيحية وقدم إلى الإمبراطور — وكان يؤازره فى ذلك رهبان الدومينيكان فى كولونيا — توصية بمصادرة جميع الكتب العبرية ما عدا العهد القديم ، فأمر ماكسمليان بتسليم جميع كتب الأدب اليهودى ، التى تنتقد المسيحية إلى بفيفر كورن لكى تفحصها جامعات كولونيا وارفورت وماينز وهيدلبرج وجاكوب فان هوجسترايتن رئيس محكمة التفتيش فى كولونيا وروبخلين بفضل تضلعه فى اللغة العبرية ، وأشار الجميع ما عدا روبخلين بمصادرة الكتب وإحراقها ، وهكذا أثبت رأى الأقلية الذى يمثله روبخلين أنه معلم من معالم تاريخ التسامح الدينى ، فقد قسم الكتب اليهودية إلى سبع طوائف ، إحداها يتكون من أعمال تسخر صراحة من المسيحية وهذه يجب أن تحرق أما الباقى وتشمل التلمود فيجب الحفاظ عليها حتى ولو كان هذا لمجرد أن لها قيمة كبيرة بالنسبة للمعرفة المسيحية ، وقال بفيفر كورن إن لليهود حقا فى أن تكون لهم الحرية فى الرأى كمواطنين بالإمبراطورية ولأنهم لم يرتبطوا بأى التزام نحو المسيحية .

وتحدث روبخلين فى رسائله الخاصة عن بفيفر كورن فقال إنه « حمار » لم يتيسر له أن يحسن فهم الكتب التى اقترح إتلافها . وكان رد بفيفر كورن على هذه المجاملات أن أصدر كتاب « مرآة اليد » ، وقد هاجم فيه روبخلين

وعده أداة رشاها اليهود . فرد عليه رويخلين طعنة بطعنة وأصدر كتاب « مرآة العين » الذى أثار عاصفة بين المحافظين . وشكت كلية اللاهوت فى كولونيا إلى رويخلين أن كتابه قد أسعد اليهود كثيراً وطالبوه أن يسحبه من التداول . وحرم ماكسمليان بيعه فاستغاث رويخلين بالبابا ليو العاشر فأحال الأمر إلى مستشارين مختلفين فقرروا أن الكتاب لا ضرر منه ، فما كان من ليو إلا أن أوقف الدعوى وأكد لعلماء الإنسانيات حوله أنه لن يلحق رويخلين أى أذى .

وفى غضون ذلك اتهم بفيفركورن وأنصاره من رهبان الدومينيكان رويخلين أمام محكمة التفتيش فى كولونيا بأنه كافر بالمسيحية وخائن لعهدها ، فتدخل كبير الأساقفة وأمر بإحالة القضية إلى روما التى أحالتها بدورها إلى محكمة سبيير الأسقفية فبرأت ساحة رويخلين . ولجأ الدومينيكان بدورهم إلى روما وأمرت الكليات الجامعية فى كولونيا وارفورت وماينز ولوفان وباريس بإحراق كتب رويخلين .

وإنه لأمر عجيب — ودليل مبين على الحيوية الثقافية فى ألمانيا فى هذا العصر أن يتصدى للدفاع عن رويخلين عدد كبير من المشهورين وقتذاك : ارازموس وبيركهايمر وبويتنجر وأويكولا مبادوس البازيلى وفيشر أسقف روشستر وأولريخ فون هوتن وموتيانوس وايوبان هس ولوثر وميلانكستون ، بل ودافع عنه بعض كبار رجال الدين من أنصار علماء الإنسانيات كما كان الحال فى إيطاليا . وأعلن الأمراء الامبراطوريون المختارون والأمراء وثلاثة وخمسون مدينة تأييدهم لرويخلين . وجمعت رسائل من المدافعين عنه ونشرت ، وذلك مثل « رسائل من رجال مشهورين إلى يوحنا رويخلين » Clarorum virorum pistolae ad Johnnem Reuchlin . وفى عام ١٥١٥ أصدر علماء الإنسانيات كتابا أشد خطرا هو صفحة ٣٢٤ (آخر الصفحة)

أى رســائل من رجال مغمورين إلى الأستاذ المبجل أورتونيوس جراتيوس أستاذ الأدب فى كولونيا . وتعد هذه الرسالة من أعظم رسائل فى تاريخ الأدب . وأحرزت نجاحا كبيراً إلى حد أن طبعة موسعة صدرت منها عام ١٥١٦ ثم نشر ملحق لها بعد عام . وادعى المؤلفون أنهم رهبان أتقياء معجبون بجراتيوس وأعداء لرويخلين ، وأخفوا شخصياتهم تحت أسماء مستعارة عجيبة — نيكولاوس كابريمولجيوس ([illegible] لبن الماعز) ويوهانس بيليفكس (صانع الجـلد) وسيمون فورست (السجق) وكونرادوس أونكيبونك . واشتكى الكتاب من السخرية التى وجهها إليهم الشعراء (كما كان يطلق على علماء الإنسانيات الألمان) وذلك بلغة لاتينية أسيئت صياغتها عمدا ، قلدوا فيها أسلوب رجال الأديرة ، وطالبوا فى إلحاح بمقاضاة رويخلين : وفى الوقت نفسه فضحوا جهلهم المطلق وفظاظة أخلاقهم وغلظة عقولهم ، وناقشوا مسائل تدعو للسخرية فى رصانة على نحو ما يفعل أنصار فلسفة الكلام واستشهدوا بآيات من الكتاب المقدس لتخفيف العبارات البذيئة — وسخروا بلا تيقظ من الاعتراف السمعى وبيع صكوك الغفران وتبجيل مخلفات القديسين ومن سلطة البابا ، وهى الموضوعات نفسها التى تناولها الإصلاح الدينى . وحارت كل الأوساط الأدبية فى ألمانيا فى التعرف على شخصيات مؤلفى هذه المجلدات : ولم يسلم الناس إلا فيما بعد بأن كروتوس روبيانوس الارفورتى وهو أحد مريدى موتيانوس ، قد كتب معظم ما ورد بالطبعة الأولى وأن هوتن كتب معظم ما ورد بالملحق . وتميز ليو العاشر غضبا فحرم قراءة أو حيازة الكتاب وأدان رويخلين ولكنه أحل له نفقات محاكمة سبير (١٥٢٠) ، وانسحب رويخلين وهو شيخ منهوك القوى فى الخامسة والستين ليعيش فى الغمرات ونسبه الناس بغير صخب فى غمار تألق الإصلاح الدينى .

واختفت حركة علماء الإنسانيات الألمانية بدورها فى وهج هذه النار التى أضرمت كل شىء وتعرضت لحرب شعواء من معظم الجامعات من ناحية ومن رجال الإصلاح الدينى الذين دخلوا معها فى صراع من أجل الحياة من ناحية أخرى ، فدعموا قضيتهم بعقيدة دينية ركزت على خلاص الروح فى العالم الآخر . ولم تترك للناس إلا فسحة ضئيلة من الوقت يتدارسون فيها الحضارة الكلاسية أو يصلحون من أحوالهم فى هذه الحياة الدنيا ، وحكم علماء الإنسانيات الألمان على أنفسهم بالهزيمة عندما فشلوا فى الارتقاء بالأدب اليونانى إلى مستوى الفلسفة اليونانية .

وبالدخول فى جدل عقيم أو الإغراق فى صوفية أقل نضجا من صوفية اكهارت ، لم يتركوا أعمالا عظيمة إذ أن كتب قواعد اللغة والمعاجم التى كان رويخلين يؤمل أن تكون « أثرا خالدا له يبقى أكثر من النحاس الأصفر » سرعان ما طويت فى غياهب النسيان . ومع ذلك فمن يدرى أن لوثر كان يجرؤ على أن يطلق قذائفه التى تشبه قذائف داود على تيتزل والبابوات إذا لم يكن عقل ألمانيا قد تحرر إلى حد ما من الرعب من أنصار الكنيسة الرومانية الكاثوليكية على يد علماء الإنسانيات . لقد كان أتباع رويخلين وموتيانوس أقلية قوية فى أرفورت حيث درس لوثر لمدة أربع سنوات وأصبح أعظم شاعر ألمانى فى هذا العهد وتغذى بلبان علم الإنسانيات رسولا متحمسا للإصلاح الدينى .

٧ — أولريخ فون هوتن

لم يكن هناك عمالقة فى عالم الأدب الألمانى فى هذا العهد قبل لوثر ، إذ لم يكن هناك سوى حيوية وخصب عجيبين : وكان الشعر يكتب ليقرأ جهرة . ومن ثم كان يلقى ترحيباً فى الكوخ وفى القصر . واستمر تمثيل

مسرحيات العشاء الربانى وآلام المسيح ، التى يغشاها ورع شديد مموه باهتمام قوى بالفن الدرامى .

وما أن حل عام ١٤٥٠ حتى كانت الدراما الشعبية الألمانية قد تحولت نحو التعلق بالدنيا إلى حد كبير . وتضمنت حتى فى خلال التمثيليات الدينية ، هزليات ساذجة ، وأحياناً فاضحة ، من « الفارس » ، وشاع المرح فى الأدب وانتشرت نوادر تيل أولنشبيجل وهذره فى ألمانيا وقتذاك ، وهو المخادع الجوال ، (ومعنى اسمه حرفيا مرآة البومة) ، ولم ينج من حيله المرحة عامى أو قسيس ؛ ففى عام ١٥١٢ نشرت نوادره وأظهر العصر والأدب بل والفن ، الرهبان والقسس وهم يسحبون إلى جهنم ، وازدهر الهجاء فى جميع الأشكال الأدبية .

وأشد هجاء فى هذا العهد تضمنته مسرحية سفينة الحمقى بقلم سباستيان برانت ، ولم يكن فى وسع أحد أن يتوقع عملا يشيع فيه مثل هذا المرح من أستاذ فى القانون والأدب الكلاسى فى بازيل ؛ فقد تخيل برانت أسطولا (نسيه فى رحلة وأطلق عليه فيما بعد اسم سفينة) مزوداً برجال بلهاء ، ويحاولون أن يشقوا عباب بحر الحياة ، ويحاول أبله وراء الآخر أن يسير فى اختيال على المسرح ، وتتحمل طائفة تلو أخرى سوط لذعات كلمات المحامى الغاضبة — الفلاح والميكانيكى والشحاذ والمقامر والبخيل والمرابى والفلكى والمحامى ومدعى العلم والمحتال والفيلسوف والقسيس . ومثّلت المسرحية أيضاً زهو الرجال الجشعين وكسل الطلبة وخسة التجار وخيانة الأجراء — كل هؤلاء ينالون نصيبهم من الضربات ، ويحتفظ برانت باحترامه للكاثوليكى الورع المستمسك بعقيدته والذى يرقب حياته على أساس الظفر بالجنة .

وقد طبع هذا الكتاب طبعة فاخرة ، وزين بالصور التى توضح كل فقرة هجاء لاذعة فى الحكاية ، وحاز الكتاب قصب السبق فى غرب أوروبا ، وترجم

إلى اثنتى عشرة لغة ، وكان أوسع الكتب انتشاراً فى هذا العهد بعد الكتاب المقدس .

وإذا كان برانت قد مس بسوطه رجال الدين برفق فإن توماس مورنر ، وهو راهب فرنشسكانى، هاجم الرهبان والقسس والأساقفة والراهبات بهجاء مقنع فاق فى حدته وغلظته وذكائه هجاء برانت . ولقد قال مورنر إن القس يعنى بالمال أكثر مما يعنى بالدين، وهو يتملق رعايا أبرشيته من أجل الحصول على كل دانق، ثم يدفع مقداراً مما جمعه إلى الأسقف التابع له ليسمح له باتخاذ خليلة ، أما الراهبات فإنهن يمارسن الحب خفية ، والراهبة التى تنجب أكبر عدد من الأولاد تختار رئيسة للدير . ومهما يكن من أمر فإن مورنر اتفق فى الرأى مع برانت على وجوب الإخلاص للكنيسة واتهم لوثر بأنه أشد بلاهة . ورثى لضعف الإيمان عند المسيحى والفوضى الضاربة أطنابها فى العالم الدينى ، وذلك فى قصيدة مؤثرة بعنوان « ضعف الإيمان عند المسيحيين » .

وإذا كانت الشعبية الهائلة التى حظيت بها هذه القصائد الهجائية قد أماطت اللثام عن الاحتقار الذى يكنه حتى الكاثوليكيين المخلصين لرجال الدين ، فإن أدب الهجاء العنيف الذى تميز به أولريخ فون هوتن قضى على كل أمل فى أن تصلح الكنيسة من نفسها ، ودعا إلى الثورة الصريحة . وقد ولد أولريخ من أسرة تنتمى إلى الفرسان فى فرانكونيا، وعند ما بلغ الحادية عشرة من عمره أرسل إلى دير فولدا على أمل أن يصبح راهباً . وبعد وضعه بست سنوات تحت الاختبار هرب (١٥٠٥) وعاش عيشة طالب متجول وأخذ يؤلف الشعر ويلقى القصائد يستجدى بها العيش ، وكثيراً ما يقضى ليلة بلا مأوى ، وإن كان لا يعدم الوسائل لمطارحة فتاة الغرام وهى فتاة تركت بصمتها فى دمه . وأنهكت الحمى جسده أو كادت ، وكثيراً ما كانت تشل ساقه اليسرى من أثر القروح والأورام، وكان حاد الطبع يستثار بسهولة ، مثله فى ذلك مثل كل عليل ، ومع ذلك وجده أيوبان هسى محبوبا كما هو ، واصطحبه أسقف

كريم إلى فيينا حيث رحب به علماء الإنسانيات ، ولكنه اختلف معهم وانتقل إلى إيطاليا . ودرس فى بافيا وبولونيا، وصوب قذائف من القصائد الساخرة ضد البابا جوليوس الثانى ، وانضم إلى جيش ألمانى من الغزاة لكى يحصل على الطعام ، ثم قفل أدراجه عائدا إلى ألمانيا وهو فى أقصى حالات الإعياء .

وابتسم له الحظ إلى حين فى ماينز : فقد كتب قصيدة مدح فى كبير الأساقفة الشاب ألبرخت فتلقى منه ٢٠٠ جيلدر (٥٠٠٠ر٥ دولار ؟) اعترافاً بالجميل . وكان بلاط ألبرخت وقتذاك يعج بعلماء الإنسانيات، وكان الكثيرون منهم من المفكرين الأحرار الذين لا يتمتعون بالاحترام . وبدأ هوتن هناك يكتب مقالته فى كتاب « رسالة من رجال مغمورين » ، والتقى هناك أيضاً بارازموس ، وخلب العالم الكبير لبه بسعة اطلاعه وذكائه وسحره . وبدأ مرة أخرى ينشد شمس إيطاليا مستعيناً بالمال الذى حصل عليه من ألبرخت والمعونة التى تلقاها من والده الذى رق لحاله ، وكان فى كل محطة يتوقف فيها ينسف طائفة علماء اللاهوت والرهبان المنافقين الفاسدين . « وأرسل من عاصمة البابوية إنذارا إلى كروتوس روبيانوس هذا نصه : أرجو أن تتخلى يا صديقى عن رغبتك فى مشاهدة روما ، فإن ما تنشده هناك لم يعد موجودا ... قد تعيش من السلب والنهب ، وقد ترتكب جريمة قتل أو تنتهك حرمة المعابد ... وقد تعربد وتستسلم للشهوات وتنكر وجود الله فى السماء ، ولكن إذا أتيت إلى روما محملا بالمال فثق بأنك ستلقى من الناس أعظم احترام . إن الفضيلة وبركات السماء تباع هنا ، بل إن فى وسعك أن تشترى الحق فى أن ترتكب ماشئت من الخطايا فى المستقبل،وليس من شك فى أنك تكون معتوهاً لو تمسكت بالأخلاق الطيبة ؛ فالناس العقلاء سيكونون أشراراً » .

وفى سخرية مرحة أهدى إلى ليو العاشر (١٥١٧) طبعة جديدة من رسالة فالا المدمرة عن « هبة قسطنطين » الخيالية ، وأكد للبابا أن أغلب أسلافه من البابوات كانوا طغاة مستبدين ولصوصاً ومغتصبين ، وأنهم حولوا

الجزاء فى العالم الآخر إلى دخل لأنفسهم ، وقد وقع هذا العمل فى يد لوثر فزاد من سخطه على البابوية .

وعلى الرغم مما تتسم به كثير من قصائد هوتن من عنف وقدح ، فإنها حققت له شهرة موزعة على أنحاء ألمانيـــا . وعندما عاد إلى الوطن عام ١٥١٧ أضافه كونراد بويتنجر فى نورمبرج وتوج ماكسمليان ، بناء على اقتراح هذا العالم الثرى ، هوتن أميراً للشعراء . وألحقه ألبرخت وقتذاك بخدمته الدبلوماسية وأرسله فى بعثات مهمة وصلت إلى باريس . وعندما عاد هوتن إلى ماينز (١٥١٨) وجد ألمانيا فى ثورة بسبب مقالات لوثر عن صكوك الغفران ، ولابد أنه ابتسم عندما رأى صاحبه كبير الأساقفة المستهين بالأمور متورطاً فى موقف لا يحسد عليه . وكان لوثر قد استدعى إلى أوجسبورج لمواجهة الكاردينال كاجيتان ، وليدفع عن نفسه تهمة الهرطقة . وتردد هوتن . فقد كان مرتبطا ، عاطفيا وماليا ، بكبير الأساقفة ، ولكنه أحس بنداء الحرب فى دمه فامتطى جواده وسافر إلى أوجسبورج .

٨ — الكنيسة الألمانية

ترى كيف كانت الكنيسة الألمانية فى شباب لوثر ؟ لقد ظهرت إشارة فى استعداد كبار رجال الدين أن يتقبلوا النقد الموجه للكنيسة ونقادها . وكان هناك بعض الملحدين المشتتين ضاعت أسماؤهم فى غمرات الزمن ، ويذكر ارازموس «هناك بيننا أناس يُعتقدون مثل أبقراط أن الروح تموت مع الجسد» ، ووجد بعض المتشككين بين علماء الإنسانيات ، ومتصوفون أنكروا ضرورة الكنيسة أو القسس كوسطاء بين الله والإنسان ، وأكدوا التجربة الدينيـــة الباطنية كبديل للشعائر والقربان المقدس ، وكانت هنا وهناك جيوب صغيرة من الولدانيين الذين أنكروا التفرقة بين القسس والعامة ، وكان فى شرق ألمانيا

بعض الحسيين الذين وصفوا البابا بأنه خصيم للمسيحية ، وفى ايجر دمغ أخوان هما جون وليفين بن أوجسبورج صكوك الغفران ووصفوها بأنها أمر يدعو إلى السخرية (١٤٦٦) .

وأعلن جوهان فون فييل ، وهو أستاذ من ارفورت ، فى مواعظه أن الجبر والاختيار بفضل الله ، ورفض الاعتراف بصكوك الغفران والقربان المقدس والصلوات للقديسين وأعلن : « إنى لأحتقر البابا والكنيسة والمجالس ولا أعبد إلا المسيح » . وأدانته محكمة التفتيش ، فتراجع عما قال ، ومات فى السجن (١٤٨١) ، وقد ناقش فيسيل جانسفورت ، الذى اشتهر خطأ باسم جوهان فيسيل ، الاعتراف والحل ، وصكوك الغفران والمطهر ، واتخذ من الكتاب المقدس الحكم الوحيد على العقيدة وجعل الإيمان المصدر الوحيد للخلاص ، وإذن فهانحن أولاء أمام لوثر فى جملة . وفى عام ١٥٢٢ قال لوثر : « لو كنت قرأت مؤلفات فيسيل من قبل لظن أعدائى أن لوثر قد اقتبس كل شىء منه ، إذ أن آراءنا تتفق إلى حد كبير » .

ومع ذلك فإن الدين فى جملته كان يزدهر فى ألمانيا ، وكانت الغالبية العظمى من الناس محافظين ، وكانوا أتقياء بين خطاياهم وكئوسهم ، وكادت الأسرة الألمانية أن تصبح كنيسة فى ذاتها ، إذ كانت الأم تقوم بمهمة الواعظ والأب يقوم بدور القسيس ، وكان أفرادها يكثرون من الصلاة ، وكانت كتب الأسرة الخاصة بالتعبد لا يخلو منها بيت . أما الذين لا يستطيعون القراءة فكانت توفر لهم كتب مصورة **Biblia Pauperum** تصور قصص المسيح ومريم والقديسين ، وكانت صور العذراء عديدة كصور عيسى ، والتسابيح تتلى فى كثير من التكرار المشوب بالأمل . وأسس جاكوب شبرنجر عضو محكمة التفتيش جمعية من الرهبان لتكرار تلاوتها ، وثمة صلاة ألمانية كانت تخاطب الثالوث الوحيد المشهور : « المجد للعذراء والأب والابن » .

وكان بعض رجال الدين متدينين كالناس ، ولابد أنه كان هناك بعض القسس المخلصين للعقيدة — ولو أن أسماءهم قلما كانت تسمع وسط ضجيج الشر — يمكن أن ينشروا مثل هذا الورع الذائع أو يدعموه بين الناس . وكان لقسيس الأبرشية ، حظية أو زوجة يعترف بها القانون العام . ولكن يبدو أن الألمان الذين لا يخشـون الإقدام قد اغتفروا هذا الصنيع باعتباره سلوكا أفضل من التخالط الجنسى ، ثم ألم يتمرد البابوات أنفسهم فى هذا العهد الذى شاعت فيه الشهوات على العزوبة ؟ أما بالنسبة لرجال الدين النظاميين ، وهم هؤلاء الذين تعرضوا للخضوع لنظام صارم فى الدير ، فإن كثيراً من طوائفهم شغلوا أنفسهم وقتذاك بالإصلاح الذاتى الجاد . وقد استقر رهبان البندكتين فى شىء من رغد العيش بالدير ونعموا بالترف الدنيوى ، واستمر فرسان التيوتون فى انحلالهم الأخلاقى وقساواتهم العسكرية وأطماعهم الإقليمية ، ولكن رهبان الدمينيكان والفرنشسكان والرهبان الأوغسطينيين عادوا إلى التزام قواعدهم وقاموا بأعمال كثيرة فى مجال البر العملى ، وكان الزهاد الأوغسطينيون أشد الرهبان حماسة لهذا الإصلاح الدينى ، وكانوا فى الأصل نساكا أو رهبانا زاهدين ولكنهم تجمعوا فيما بعد طوائف وحافظوا فى إخلاص واضح على عهودهم الرهبانية من تقشف وعفة وخضوع ،وتعلموا إلى درجة تكفى لشغل كثير من كراسى الأستاذية فى الجامعات الألمانية . وكانت تلك هى الطائفة التى اختار لوثر أن ينتمى إليها عندما قرر أن يصبح راهبا .

وكانت الشكاوى ضد رجال الدين الألمان موجهة أساسا إلى البطاركة بسبب ثرائهم وانغماسهم فى النعيم الدنيوى . فقد كان على بعض الأساقفة والرهبان أن يهيمنوا على اقتصاد مساحات كبيرة وصلت إلى حوزة الكنيسة وإدارتها ، وكانوا سادة إقطاعيين متوجين أو مكللين ، غير أنهم لم يكونوا

دائماً متسامحين ، وكان رجال الدين هؤلاء يتصرفون مثل أناس تعلقت قلوبهم بالدنيا لا كرجال نذروا أنفسهم لعبادة الله ، ويزعم الرواة أن كثيرا منهم كانوا يذهبون فى مركباتهم لصحبة حظاياهم إلى مجالس الدايت الإقليمية أو الاتحادية . وقد لخص جوهانس جانس ، وهو بطريرك كاثولبكى متعلم ومؤرخ مساوئ الكنيسة الألمانية قبيل عهد الإصلاح الدينى ، ولعله كان قاسيا جدا فى حكمه فقال :

« إن التناقض بين الهيام بالتقوى والجشع الدنيوى ، بين الزهد الورع والتماس النفع الذى يتنافى مع الدين ، يبدو بوضوح بين صفوف رجال الدين كما يبدو بين طوائف المجتمع الأخرى . وفضلا عن هذا فإن الوعظ ورعاية الأرواح كانا يلقيان إهمالا تاماً من كثيرين من القسس ورجال الدين . واستشرى الشح والخطيئة الفادحة بين رجال الدين من جميع الرتب والطوائف فى غمرة تلهفهم على زيادة الموارد الدينية والدخول والضرائب والأجور العائدة إلى أقصى حد ، وكانت الكنيسة الألمانية أغنى الكنائس فى العالم المسيحى ، ويقدر البعض أن ما يقرب من ثلث الأراضى فى البلاد كان بين أيدى الكنيسة ، وأدى هذا إلى أمر يستحق اللوم بين السلطات الدينية ، إذ أخذت تنشد دائماً ممتلكاتها وكانت مبانى الكنيسة ومؤسساتها تستوعب أكبر جزء من الأرض فى كثير من المدن .

وفى قلب الهيئة الكهنوتية ذاتها كان هناك أيضاً تناقض ملحوظ فى الدخل ، فقد كانت الطوائف الدنيا من رجال الدين فى الأبرشيات ، الذين كانوا يستمدون رواتبهم الاسمية فقط من ضرائب العشور غير الثابتة ، يضطرون فى كثير من الأحايين — بدافع المسغبة ، إن لم يكن بدافع إغراء الحرص — إلى الاشتغال بتجارة لا تتفق بتاتاً مع مناصبهم ، وكانت تعرضهم إلى الاحتقار من رعايا أبرشياتهم ، ومن جهة أخرى فإن الطوائف العليا من رجال الدين كانت

تنعم بثراء فاحش لا حد له ، وكان كثير من رجالها لا يعانون شيئاً من وخز الضمير فى التظاهر بطريقة ممقوتة تثير غضب الشعب وحسد الطبقات العليا وازدراء كل العقول الجادة . . وجأرت الأصوات بالشكوى فى كل مكان من الارتزاق المهين بالمقدسات . . ومن المبالغ الضخمة التى ترسل على دفعات ، ومن الضرائب التى تدفع للبابا من الأرباح السنوية ، ومن مال الرشوة .

وبدأ إحساس مرير بمقت الإيطاليين يتفشى شيئاً فشيئاً ، حتى بين رجال من أمثال كبير الأساقفة برتولد فون هنيبرج ، ممن كانوا أبناء مخلصين للكنيسة المقدسة . وكتب يقول فى اليوم التاسع من سبتمبر عام ١٤٩٦ : « يجب على الإيطاليين أن يكافئوا الألمان على خدماتهم وألا يستنزفوا دماء الهيئة الكهنوتية بسلب الذهب على دفعات » .

وكان من الممكن لألمانيا أن تغتفر لأساقفتها تعلقهم بالدنيا ، لو أنها أعفيت من ادعاءات البابوات ومطالبهم ، وقد استاءت روح القومية الناهضة من مزاعم البابوية أنها لا تعتبر أى إمبراطور حاكماً شرعياً إلا إذا أيده البابا ، وأن من حقها خلع الأباطرة والملوك إذا أرادت . واستمر الصراع قائماً بين السلطتين الزمنية والدينية على التعيينات فى المناصب وعلى تداخل الاختصاصات بين القضاء المدنى والمحاكم الأسقفية ، وعلى حصانة رجال الدين من تطبيق جميع التشريعات المدنية تقريباً . وتطلع الأشراف الألمان فى غيظ وحسد لممتلكات الكنيسة الغنية ، وأسف رجال الأعمال لأن الأديرة التى تطالب بالإعفاء من الضرائب تنافسهم فى مجالس الصناعة والتجارة . وكان النزاع فى هذه المرحلة قائماً على أمور مادية أكثر مما هو قائم على اختلافات دينية ؛ وهاهو مؤرخ كاثوليكى آخر يقول :

« كان إجماع الرأى فى ألمانيا أن المحكمة الرومانية ركزت الضغط فى مسألة

الضريبة إلى درجة لا تحتمل . . . . وارتفعت الشكوى مرة بعد أخرى من أن مستحقات المحكمة العليا والضرائب التى تدفع للبابا من أرباح العام . . . ونفقات الرسامة للكهان قد زيدت بلا مبرر أو توسع فيها بطريقة غير قانونية ، وأن صكوك غفران جديدة كثيرة صدرت دون موافقة أساقفة البلد ، وأن ضريبة عشور تلو أخرى قد فرضت من أجل حرب صليبية ثم حولت إلى غرض آخر . بل إن رجالا كرسوا حياتهم للكنيسة والمحكمة البابوية . . . كثيراً ما أعلنوا أن شكاوى الألمان من روما كانت فى معظمها قائمة على أساس سليم من وجهة النظر المالية » .

وفى عام ١٤٥٧ وجه مارتن ميير رئيس الوزراء خطاباً غاضباً لخص فيه المتاعب التى تعانى منها ألمانيا من جانب المحكمة الرومانية قال فيه :

إن اختيار البطاركة كثيراً ما يؤجل دون داع ويحتفظ بالمراتب الرفيعة والمناصب الكرادلة وأمناء سر البابا ، وهاهو الكاردينال بيكولوميني نفسه قد منح أرضاً براحا فى ثلاث مقاطعات ألمانية بصورة غير عادية لم يسمع بمثلها من قبل . كانت الوعود بالمناصب والإقطاعيات تبذل بلا حساب ، وكانت الجزية والضريبة تجمع بالتعسف ، ولا يمنح المدينون مهلة للسداد ، ومن المعروف أن الضرائب التى تجبى كانت أكثر من المبالغ المستحقة ، وكانت الأسقفيات تمنح لا لأكثر رجال الدين جدارة بل لصاحب أكبر عطاء . وكانت صكوك غفران جديدة تصدر يومياً ، وضرائب عشور للحرب تفرض دون استشارة البطاركة الألمان لا لغرض إلا جمع المال . وكانت القضايا التى ينبغى أن تعرض فى الوطن تحول بسرعة إلى المحكمة الرسولية ، وقد عومل الألمان كما لو كانوا برابرة أغبياء وأغنياء واستنزفت منهم الأموال بألف حيلة ماكرة . . . . وقد ظلت ألمانيا سنوات طويلة تتمرغ فى التراب تنتحب على فاقتها ومصيرها المحزن ، أما الآن فإن أشرافها استيقظوا من النوم وقرروا أن يتخلصوا من نير العبودية وأن يستعيدوا حريتهم العريقة .

وعندما أصبح الكردينال بيكولوميني عام ١٤٥٨ البابا بيوس الثاني ، واجه هذا التحدى ؛ فطلب من ديترفون ايزنبورج مبلغ ٥٠٠ر٢٠ جيلدر قبل أن يؤيد ترشيحه لمنصب كبير أساقفة ماينز (١٤٥٩) ، فما كان من ديتر إلا أن رفض دفع المبلغ بحجة أنه تجاوز كل ما كان يدفع من قبل ، فأصدر البابا قراراً بحرمانه من غفران الكنيسة ، ولكن ديتر تجاهل هذا الحرمان وأيده فى هذا بعض أمراء من الألمان ، وعهد ديتر إلى محام من نورمبرج يدعى جريجور هايمبرج بإثارة الرأى العام لمنح المجالس الدينية سلطة أعلى من سلطة البابوات ، فذهب هايمبرج إلى فرنسا لرفع دعوى جماعية ضد البابوية ، وخيل للبعض فترة ما أن الأمم الشمالية سوف تنفصل من الولاء لروما ، ولكن عملاء البابا انتزعوا من الحركة الواحد بعد الآخر من أنصار ديتر وعين بيوس مكانه أدولف الناساوى . واشتبك جيشا الأسقفين فى حرب دموية هزم فيها ديتر ، ووجه إلى الزعماء الألمان تحذيرا بأنهم ما لم يقفوا معا فإنهم سيسامون الخسف والضيم واحدا بعد الآخر . وكان هذا الإعلان إحدى الوثائق الأولى التى طبعها جوتنبرج .

ولم يهدأ استياء الألمان بهذا النصر الذى أحرزه البابوات ، وبعد أن تحول مبلغ كبير من المال من ألمانيا إلى روما فى اليوبيل عام ١٥٠٠ طالب مجلس الدايت فى أوجسبورج بضرورة إعادة هذا القدر من المال إلى ألمانيا . وشكا الإمبراطور ماكسمليان من أن البابا سحب من ألمانيا دخلا يزيد مائة مرة عما يستطيع هو نفسه أن يجبيه منها . وفى عام ١٥١٠ ، وكان وقتذاك فى حالة حرب مع البابا يوليوس الثانى ، طلب من عالم الإنسانيات ويمفيلنج إعداد قائمة بشكاوى ألمانيا ضد البابوية ، وفكر فى فترة من الزمن أن يقترح فصل الكنيسة الألمانية عن روما ، ولكن ويمفيلنج أثناه عن عزمه بحجة أنه لن يجد تأييداً دائماً من الأمراء ، ومع ذلك فإن كل التطورات الاقتصادية فى هذا العهد مهدت لثورة لوثر . وليس من شك فى أن اختلافا فى المصالح

المادية مهد أيضاً للإصلاح الديني في ألمانيا ، فطالب الألمان بوضع حد لتدفق الأموال الألمانية إلى إيطاليا ، أي إلى نهضة إيطاليا تمول الشعر والفن بالذهب الوارد من وراء جبال الألب .

وواكبت حركة المعاداة لرجال الدين الورع بين الناس . وهاهو راع أمين يكتب « ان روحاً ثائرة من الكراهية للكنيسة ورجال الدين قد تفشت بين الجماهير في مختلف أرجاء ألمانيا . . . إن صيحة الموت للقساوسة « التي طالما ترددت في السر همساً أصبحت الآن كلمة السر التي تردد كل يوم » . كان هذا العداء المعروف حاداً إلى درجة أن محكمة التفتيش التي ارتفع شأنها وقتذاك في إسبانيا كانت لا تكاد تجرؤ على إدانة أي أحد في ألمانيا . وصدرت كتيبات عنيفة اللهجة حافلة بالهجوم على الكنيسة ، وكان رفيقاً بالكنيسة الألمانية بقدر ما كان عنيفاً على الكرسي الأسقفي الروماني .

وانضم بعض الرهبان والقساوسة إلى حملة الهجوم ، وأثاروا أبرشياتهم ضد الترف الذي يعيش فيه كبار رجال الدين . وجاء الحجاج العائدون من يوبيل عام ١٥٠٠ إلى ألمانيا بقصص فظيعة — ومبالغ فيها في كثير من الأحيان — عن البابوات المنحلين والسموم البابوية وصخب الكرادلة وعن وثنية وخسة عامة ، وأقسم كثير من الألمان أنهم سيسحقون هذا الطغيان مرة أخرى ، كما حطم أسلافهم سلطان روما عام ٤٧٦ . وتذكر آخرون ما لقيه الإمبراطور هنري الرابع على يد البابا جريجوري السابع من إذلال في كانوسا ، واعتقدوا أن الوقت قد حان للانتقام ، وفي عام ١٥٢١ قال الياندر ، القاصد الرسولي للبابا ، محذرا ليو العاشر من ثورة وشيكة ضد الكنيسة : « إنه منذ خمس سنوات سمع من كثير من الألمان أنهم لا ينتظرون إلا أحد الحمقى ، ليفتح فمه ضد روما » .

وكانت آلاف العوامل والمؤثرات الكهنوتية والفكرية والعاطفية

والاقتصادية والسياسية والأخلاقية ، تتجمع بعد قرون من التعويق والاضطهاد فى دوامة تقذف بأوربا فى أعظم فورة شهدتها منذ غزو البرابرة لروما . ثم إن إضعاف البابوية بالنفى فى أفنيون والانقسام فى صفوف البابوية وانهيار النظام فى الأديرة وترهب رجال الدين والترف الذى يرفل فيه البطاركة وفساد مجالس القضاء الرومانية ووجوه النشاط المتسم بالإقبال على الدنيا للبابوات وأخلاقيات الكسندر السادس وحروب يوليوس الثانى والمرح المستهتر الذى عرف به ليو العاشر والاتجار فى المخلفات المقدسة وبيع صكوك الغفران وانتصار الإسلام على العالم المسيحى فى الحروب الصليبية إلى جانب الحروب التركية وازدياد الاتصال بالعقائد غير المسيحية وتدفق العلم العربى والفلسفة العربية وتدهور مكانة الفلسفة الكلامية فى ظهور فلسفة سكوتس اللاعقلانية وشك أوكهام وفشل حركة التوفيق فى الإصلاح والكشف عن الحضارة الوثنية القديمة واكتشاف أمريكا واختراع الطباعة وانتشار القراءة والكتابة والتعليم وترجمة الإنجيل وقراءته والإدراك الجديد للتناقض بين فقر الرسل وبساطتهم وبين ثراء الكنيسة الفاحش والثراء المتزايد لألمانيا وإنجلترا واستقلالهما الاقتصادى ونمو طبقة وسطى ترفض التسليم بقيود رجال الدين ومزاعمهم والاحتجاج على تدفق الأموال إلى روما وتحويل القانون والحكم إلى الأغراض الدنيوية وفتوة القومية وتقوية الملكيات والتأثير القومى للغات والآداب الشعبية وتفاعل الميراث الفكرى الذى خلفه الوالدانيون وويكليف وهس والمطالبة الصوفية بالتخفف من الطقوسية فى سبيل ديانة تلتحم بالشخصية والروحية وتتسم بالاتصال المباشر بالإنسان . . . إن هذه كلها كانت تتحد فى سيل عارم سوف يحطم عرف القرون الوسطى الذى كان أدنى إلى القشرة ، وسوف يحل جميع المعايير والروابط ويمزق أوربا إلى أمم ومذاهب ، وسوف يكتسح أمامه أكثر فأكثر دعائم المعتقدات المأثورة وما تقدمه من عزاء ، ولعلها تؤذن ببداية النهاية لسلطان المسيحية على الحياة العقلية للرجل الأوربى .